الإسلام والدبلوماسية

قراءة في القيم الدبلوماسية في الإسلام

إعداد

د. محمد حبش

مستشار مركز الدوحة الدولي لحوار الأديان

ذوالقعدة ١٤٣٤هـ - سبتمبر ٢٠١٣م

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾

[الحجرات:١٣]

مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الدبلوماسية في الإسلام عنوان دقيق، يعكس الحاجة المتجددة لفهم القيم الكريمة التي بشر بها الإسلام في العلاقات الدولية، ويجتهد أن يقدم للمكتبة العلمية ملامح التوجه الحضاري للإسلام في الحياة الدبلوماسية.

تنطلق هذه الدراسة من مسلمة منطقية يتفق عليها العقل والنقل، وهي أن هذه الرسالة الخاتمة جاءت لخير الإنسانية العام، وأنها بسطت خطاب المحبة والسلام في الأرض على أساس من مصالح الناس، وأن الأصل في العلاقات الدولية التوازن والاحترام والمصالح المتبادلة، وليس الخصام والحروب، ولا شك أن ذلك لا ينفي حق الأمة في مواجهة الأخطار والتحديات الدولية، وبناء أمنها الوطني والدفاع عنه، ولأجل ذلك شرع الجهاد، الذي هو حق للأمة وواجب الراعي والرعية، والجهاد ماضٍ إلى يوم القيامة لا يبطله عدل عادل ولا جور جائر.

ولكن الغاية التي يتشوف إليها الإسلام هي الأمن والسلام العالمي، ونشر الإخاء والتراحم، بل إننا نؤكد هنا أن مصطلح السلام ليس هو الخيار القرآني في العلاقات الإنسانية، فالسلام هو هدنة بين متحاربين قد يكون على قلوب تغلي بالضغائن، وتأكيداً على هذه الحقيقة فقد أعلن الإسلام رسالته من أفق أعلى حين جعل الرحمة وليس السلام غاية كفاحه، فعكس بذلك أرقى هدف تسعى له البشرية

وهو الإخاء الإنســاني وهو الرحمة التي عبرت عنها الآية الكريمة في ســورة الأنبياء: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾.

ومــن المدهش أنه لم يقل رحمة بالمســلمين أو بالمؤمنــين أو بالمتقين، وإنما قال للعالمين، وهي صيغة لا يمكن تفســيرها بأقل من الأسرة الإنســانية الواســعة التي تعيش على كوكب الأرض.

ولكــن الوصول إلى هذا الهدف الكبير لا يتــم بإلقاء المواعظ ونثر الحكم، بل إنه يتطلــب وعياً حقيقياً بالعلاقات الدولية وبنــاء منظومة علاقات دولية متوازنة على أسس دبلوماسية حكيمة، تحترم فيها الخبرة والكفاءة وتجارب الأمم، ويعمل فيها المخلصون من أجل الوصول إلى عالم تسوده العدالة والمساواة والسلام.

وتتعاظم الحاجة لوضع هذه الحقائق أمام كوادرنا في السلك الدبلوماسي الذين يحملون صورة الوطن وقيم الإســلام إلى كل مكان يرحلون إليه في العالم، ليقدموا صورة طيبة عن الأمة الإســلامية، ويوفرون ســبل الإحياء الحضاري، وتوفير صلة ماضي هذه الأمة بحاضرها ومستقبلها.

إن توافر هذه المعارف الدبلوماســية وفق قيم الإســلام أصبح اليوم أكثر حيوية وضرورة لــشرح قيم الإســلام العليــا التي تتعرض لقــدر غير قليل من التشــويه والاتهامات تقوم بها حملات فوبيا منظمة يقوم بها إعلام يعادي الإســلام والعرب، وتحركه ماكينات معروفة بكراهيتها للإسلام وانحيازها ضد قضايا العرب.

ولكن الدور الأكبر لنشر الاســلاموفوبيا في العالم اليوم إنما يقع على عاتق أولئك المتطرفين الذين يرسمون صورة قاسية عن الإسلام في العالم، حين يقسمون العالم إلى فســطاطين اثنين، يتبــادلان ثقافة الكراهية، ويتناوبــان النفخ في كير الحروب، ويقدمــون موقفهم هــذا على أنه الجهاد الــذي فرضته الشريعــة، ويتبع ذلك بكل تأكيد رفضهم لأي علاقة ودية بين المســلمين وبين أمم الأرض، ويحولون دون قيام دبلوماســية ناجحة تتأسس على قيم الإسلام في الرحمة وتدعو إلى عالم من التفاهم والحــوار وفق ما دعا إليه القرآن الكريم: ﴿وَلَوْ شَــاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً

وَلا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ، إِلا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ﴾.

إنني متمسك بما كتبته من قبل أن هذه الحضارة التي نشهدها اليوم هي حضارة إنسانية بامتياز وليست شرقية ولا غربية، وإن القيم التي أعلن عنها القرن العشرون في الحرية والتسامح والعدالة والديمقراطية والعلاقات الدولية هي قيم إنسانية كافح الإنسان طويلاً في الشرق والغرب لتحقيقها، واشتركت فيها الحضارات جميعاً من يونانية ورومانية وإسلامية وأوربية، وإن ربط هذا المنجز الحضاري بأمريكا أو أوربا أو أي مكان في العالم يتبنى هذه القيم الحضارية ليس موقفاً صحيحاً، وإن الناس من سائر الأمم شركاء في هذه الحضارة الإنسانية، بما أنجزه آباؤهم وأجدادهم من كفاح شريف للوصول إلى هذه القيم الإنسانية المشتركة.

ويجب القول إن منطق صدام الحضارات الذي تبناه متطرفون في الغرب ومنطق الفسطاطين الذي يتبناه متطرفون في الشرق كلاهما مجاف للحقيقة وبعيد عن هدي الأنبياء، وإن السبيل الوحيد لقيام عالم آمن هو التعاون والتواصل والتكامل.

لقد دخلت هذه الحقائق الوعي الجمعي لدى المثقفين في العالم، ويتحد العقلاء اليوم في مواجهة ثقافة الإلغاء والإقصاء، وهي حقيقة جسدتها الدول الإسلامية في منظمة التعاون الإسلامي (منظمة المؤتمر الإسلامي سابقاً) حين اتفق زعماء العالم الإسلامي على رفض منطق صدام الحضارات، وقامت المنظمة بتحرك دبلوماسي مسؤول وتوجهت باقتراحها إلى الأمم المتحدة ونجحت في تسمية العام التالي عام حوار الحضارات، والذي أسس تالياً لما بات يعرف بتحالف الحضارات وهو ما تشارك فيه اليوم أكثر من مائة دولة في العالم، وتتولى قطر رئاسة الدورة الحالية لتحالف الحضارات العالمي.

ولا يخفي كاتب هذه السطور رأيه في هذه المسألة في وجوب تجاوز مصطلح الحوار إلى مصطلح الوحدة، فالحضارة الإنسانية في الواقع حضارة واحدة تعاقبت الأمم على بنائها خلال تاريخ طويل، انتقلت فيه شعلة الحضارة من الشرق الأدنى والشرق الأقصى إلى اليونان إلى فارس إلى الرومان إلى الحضارة الإسلامية ثم إلى

الحضـــارة الأوربية والأمريكية، وهي اليوم نتاج كفاح الأمـــم جميعاً، وبإمكانك أن ترى في مشافي كليفلاند في أمريكا أثراً واضحاً للرازي وابن سينا تماماً كما كنا نرى في بيمارســـتانات بغداد والأندلس أثراً واضحاً لأبقراط وجالينوس، والأمر نفسه في ســـائر العلوم الكونية، وكذلك في الســـنن الاجتماعية من الحرية والعدالة والمساواة والإخاء التي شـــاركنا فيها خلال التاريـــخ، وحين يتم إنجاز الإعلان العالمي لحقوق الإنســـان ويتم الإعلان عنه في نيويورك فإنني أبصر بين الرجال الذين حققوه عمر بـــن الخطاب وعمر بن عبد العزيز وصلاح الديـــن الأيوبي، وكفاح الأنبياء من قبل، فهؤلاء جميعاً شركاء في شرعة حقوق الإنســـان التي مرت عبر التاريخ في مواجهات كثيرة ضد الاســـتبداد والقهر، وشـــارك حكماء هذه الأمة صيحتهـــم في وجه العالم (متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً).

إنها إذن شـــعلة واحدة للحضارة الإنســـانية، فالحضـــارات تتكامل ولا تتقاتل، وتتواصـــل ولا تتدابـــر، فالصراع لا يكون بـــين الحضارة والحضـــارة أو بين النور والنور، وإنما يكون الصراع والصدام بين الحضارة والتخلف، وبين العلم والجهل، وبـــين الظلمات والنور، وإنها إذن الأسرة الإنســـانية الواحدة التي جاءت من نســـل آدم، ومســـؤولية أبنائه أن يتعاونوا لاســـتثمار خيرات هـــذه الأرض وضبط مقاطع الحقوق فيها وتوفير العيش الكريم لسائر الأمم والشعوب.

إن من المدهـــش أن الخطاب القرآني جاء عالمياً إنســـانياً بامتياز، ونادى الناس بصيغـــة يا بنـــي آدم، ويا أيها الناس، وهـــي الصيغة التي أعلنهـــا النبي الكريم في آخر أيام الرســـالة في حجة الوداع: (أيها الناس إن ربكم واحد وإن أباكم واحد وإن دينكم واحد، كلكم لآدم وآدم من تراب).

وقـــد افتتح القرآن الكريـــم بآية ذات دلالة وهـــي قوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْـــدُ للَّهِ رَبِّ ٱلْعَالَمِـــينَ﴾، فلم يقل رب المســـلمين ولا رب العرب ولا رب المتقـــين، واختتم بقوله: قُـــلْ أَعُوذُ بِـــرَبِّ النَّاسِ . مَلِكِ النَّاسِ . إِلَهِ النَّاسِ﴾، ولـــم يقل رب المؤمنين أو العرب أو العجم، وما بين الفاتحة والخاتمة جاء بيان القرآن العظيم: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلا تَعَاوَنُوا عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾.

وفي سـياق توضيـح هذه الحقائـق تأتي هذه الدراسـة التي أعددتهـا للمعهد الدبلوماسي في وزارة الخارجية بدولة قطر، كما أنها تأتي في سياق نجاحات متتالية قامت بها دولة قطر في الدبلوماسـية الدولية، وحوار الحضارات والأديان، وقدمت بما يقطع الشك قدرة الدبلوماسية الحكيمة على التأثير إيجابياً في القضايا الدولية، وقـدرة الدبلوماسـية في فض النزاعات، وقيام المصالحـات، وهو الدور الذي قامت به دولة قطر دبلوماسـياً لإنهاء الـصراع وإجراء المصالحات في لبنان واليمن وليبيا وفلسطين ودارفور، وهو دور آمل له النجاح أيضاً في بلادي المعذبة الجريحة سوريا.

وإذ أكتب هذه السطور فإنني أرجو أن أضع بين يدي زملائنا الباحثين، وأبنائنا الصاعديـن في السـلك الدبلوماسي هذه المعارف الدبلوماسـية التي نتقتبسـها من ضياء القرآن ونور السنة وتاريخ الأمة، وهي تلتقي مع كثير من القيم الدبلوماسية العريقة وتغنيها وتثريها وتفيد منها.

ولن يفوتني في هذه المقدمة أن أزجي الشـكر لسـعادة وزير الخارجية القطري الدكتور خالد بن محمد العطية ومساعديه سعادة السيد راشد بن خليفة آل خليفة وسـعادة الشـيخ أحمد بن محمد بن جبر آل ثاني، اللذين وفروا لي فرصة التفرغ للبحث العلمي في مركز الدوحة الدولي لحوار الأديان.

وأخص بالشـكر سعادة السفير الدكتور حسن بن إبراهيم المهندي مدير المعهد الدبلوماسي الذي أشرف على إعداد هذا البحث وتقديمه للمكتبة الدبلوماسية العربية.

وكلي أمل أن تجد هذه الدراسة مكانها في المكتبة العربية، وأن ينتفع منها أبناؤنا الصاعدون في السـلك الدبلوماسي، وأن يدرك شـبابنا المتقدمون إلى العمل في السلك الدبلوماسي غنى الحضارة الإسـلامية في هذا السـبيل، وحكمة الشريعة الإسـلامية وخصوصيتها، وبالتالي معرفة بعض التحفظات التي تمسك بها الفقهاء في السلوك الدبلومـاسي، وأن يدركوا الآفاق البعيدة التي قدمتها الحضارة الإسـلامية في حقل الدبلوماسـية، وحجم المشـترك الإنسـاني في الحقل الدبلوماسي، والمسؤولية الملقاة على عاتقهم لنقل صورة حضارية وحكيمة للدبلوماسـية الإسـلامية التي شاركت وتشارك بفاعلية ونجاح في تحقيق ازدهار الشعوب.

المحتويات

الفصل التمهيدي: الدبلوماسية.. المصطلح والاستخدام

- مصطلح الدبلوماسية
- تاريخ الدبلوماسية
- أهم الأعمال التي صنفها الفقهاء في الدبلوماسية الإسلامية

الفصل الأول: الفقه الدبلوماسي في الإسلام

- التأسيس الاعتقادي للعلاقات الودية في الإسلام
- مصطلح الدبلوماسية في التراث الإسلامي
- الدبلوماسية في العهد النبوي
- الدبلوماسية في التاريخ الإسلامي
- التطور الإيجابي والسلبي لعلاقة الأمة الإسلامية بالمجتمع الدولي
- مشروعية التمثيل الدبلوماسي في الإسلام
- حكم التمثيل الدبلوماسي الدائم في الإسلام

- تعيين السفراء واختيارهم
- مشاركة المرأة في الحياة الدبلوماسية
- مسائل تحول بين المرأة والعمل الدبلوماسي
- سفر المرأة
- مصافحة النساء
- النقاب
- حصانة السفراء
- الحصانة الشخصية
- الحصانة القضائية
- الحصانة الماليـــــة
- الحصانة السياسية
- الملحقيات
- الملحقية التجارية
- الملحقية العسكرية
- الملحقية الثقافية
- الملحقيات الثقافية ورسالة الدعوة

الفصل الثاني: القيم الدبلوماسية في الإسلام

- آداب السفراء
- مبدأ المعاملة بالمثل
- مسؤولية السفير بين وطنه ودار إقامته

- الدبلوماسية واختلاف العقائد

الفصل الثالث: الدبلوماسية في الكتاب والسنة

- السفارات في القرآن الكريم
- سفراء الرسول في حال السلم
- دبلوماسية الرسول في حل النزاعات

الفصل الرابع: المشترك بين الإسلام والدبلوماسية الحديثة

الملاحق:

- نموذج من التعامل الدبلوماسي لرسول الله
- نموذج من الخطاب الدبلوماسي لرسول الله

النتائج والتوصيات

المراجع

الفصل التمهيدي

الدبلوماسية.. المصطلح والاستخدام

تمهيد

مصطلح الدبلوماسية:

الدبلوماسية مصطلح لاتيني مشتق من الكلمة اللاتينية Diploma والتي تعني وثيقة رسمية[١]، حيث كانت مراسلات الملوك وأوامرهم وبلاغاتهم ومفاوضاتهم تدون في وثائق محكمة ثم تطوى في سجلات خاصة، وقد اكتسبت الكلمة شهرة عالمية للدلالة على الكفاءة والجدارة، ولا تزال مستخدمة بشكل واسع في الحقل الأكاديمي للدلالة على الوثائق التأهيلية التي يحصلها المتخرجون من الجامعات في إطار اختصاص معين، وهي تستخدم اليوم بكثرة في الحقل الأكاديمي العربي بعنوان دبلوم الاختصاص.

ويعرف رجال القانون الدبلوماسية بأنها: فن وعلم إدارة العلاقات الدولية[٢]، وتكون عادة بين دولتين، وهي تختلف عن العلاقات بين الأفراد أو الأحزاب أو المنظمات أو الهيئات.

وقد تناولت الموسوعة العربية تفصيل الاستخدامات المتعددة للدبلوماسية على الشكل التالي:

١ـ فمن حيث أطراف العلاقة الدولية: هناك الدبلوماسية الثنائية أي الدبلوماسية بين دولتين، وهناك الدبلوماسية الجماعية، أي الدبلوماسية بين مجموعة من الدول

---

(١) انظرموسوعة الدبلوماسية، د. عبد الوهاب الكيالي، الجزء الثاني، ص ١١٥

(٢) الموسوعة العربية، دراسة للدكتور عزيز شكري، العلوم القانونية والاقتصادية، المجلد التاسع، ص١٩٦

عن طريق المؤتمرات أو المنظمات الدولية، يسمي بعضهم النوع الأخير الدبلوماسية البرلمانيــة parliamentary diplomacy وقــد شــاع هــذا النوع الثانــي، بتواتر وتصاعد، منذ عصبة الأمم وحتى اليوم.

٢ـ ومن حيث الشــكل الذي تأخذه إدارة العلاقات الدولية: هنالك الدبلوماســية السرية وهي التي تجري بين الكواليس وتكتم نتائجها كلاً أو بعضاً عن الغير أو حتى عن رعايا الدول المتفاوضة. وهناك الدبلوماســية العلنية وهي التي تتضح نتائجها فور انتهائها حتى لو جرت المفاوضات بشكل غير علني. وقد كان إنشاء عصبة الأمم بهيئاتها ومجالسها العلنية واشــتراط ميثاقها تسجيل المعاهدات المبرمة بين الدول ونشرها تحت طائلة بطلانها، كان محاولة من جانب مؤسسي العصبة للخلاص من عهد الدبلوماسية السرية secret diplomacy الذي ساد حتى ذلك التاريخ.

٣ـ ومن حيث الوسائل المستخدمة في إدارة العلاقات الدولية: يمكن القول بوجود دبلوماســية ســلم تقوم على أســاس المفاوضة بين الدول المعنية وهــذا هو الأصل، ودبلوماسية عنف أو ما سمي دبلوماسية السفن الحربية Gun Boat Diplomacy تتجلى في تحقيق الدولة لأغراضها عن طريق اتباع وسائل الزجر والعنف بما في ذلك الحرب التي يعدها بعضهم استمراراً للنشاط الدبلوماسي للدولة في ميدان آخر غير ميدان المفاوضات[٣].

ويطلق تعبير الدبلوماسية اليوم على النشاط السياسي الذي يقوم به مفاوضون رســميون لشرح مواقف الدول ومصالحها، والحيلولة دون تحول الخلاف إلى نزاع وحرب.

ومــن الناحية التقنية يُشــار إلى فن التفاوض على أنه الممارســة الرســمية التي تتبعهــا معظم الأمم في إرســال ممثلين يعيشــون في بلدان أخــرى. وهؤلاء الممثلون المفاوضون يُعرفون بالدبلوماســيين ويساعدون على اســتمرارية العلاقات اليومية بين بلادهم والبلاد التي يخدمون فيها، وهم يعملون من أجل مكاســب سياسية أو اقتصادية لبلادهم ويعملون لبناء علاقات دولية جيدة لبلادهم في العالم.

(٣) المصدر نفسه، ص ١٩٥

تاريخ الدبلوماسية:

ربمـا كانـت أقدم اتفاقية في التاريـخ في الإطار الدبلومـاسي اتفاقية قادش بين الفراعنة والحثيين سـنة ١٢٧٩ ق.م وتعكس هـذه الاتفاقية رؤية متقدمة في حقل العلاقات الدبلوماسية الدولية.

وفي عصر الثنائية الإمبراطورية التي طبعت الشرق الأوسـط نحو ستة قرون في إطـار الصراع الفارسي الرومي، فإن الدبلوماسـية لم تسجل نجاحاً حقيقياً، وكان المبعوثـون الدبلوماسـيون بين الطرفين مجرد مخبريـن وأدوات غير فاعلة لا تؤثر في قـرار الحرب الذي كانـت الإمبراطوريتان الفارسـية والرومانيـة تتخذانه وفق اعتبارات القوة والضعف والاسـتعداد الحربي وليس وفق اعتبارات الحق والعرف الدبلوماسي، وقد أسـهم غياب دبلوماسـية حقيقية فاعلة في إنهاك الإمبراطوريتين، ومن ثم زوال الإمبراطورية الفارسية نهائياً وانحسار الأخرى إلى بلاد الروم والجانب الأوروبي، وقيام الحضارة الإسلامية الصاعدة.

وقـد مضت هـذه العلاقـات تاريخياً على هيئـة اتفاقيات محددة بـين دولتين، أو أعـراف تحترمها الدول كحماية الرسـل وحصانتهم، واسـتقبال الوفود وتبادل الرسـائل، وقـد ازدهرت العلاقـات الدبلوماسـية إبـان ازدهار الدولة الإسـلامية العباسـية، وكان هذا الازدهار يترافـق عادة مع رغبة الدولـة بالانفتاح والتعاون، وتركت الدولة العباسـية كثيراً من التقاليد الدبلوماسية الناجحة التي أغنت التراث البدلومـاسي، كمـا حقق صلاح الدين الأيوبي خلال الحروب الصليبية سـلسلة من النجاحات الدبلوماسـية في وقت الحرب، منحته مكانـاً محترماً حتى عند محاربيه من الصليبيين.

وربما كان من أهم التطورات الدبلوماسية ما أنجزه السلطان العثماني الشهير سـليمان القانوني الـذي كان يؤمن بدور الدبلوماسـية ويسعـى لتحرير أصولها

وقواعدها، وقد نجح في عقد سلسلة اتفاقات مع الملوك الأوربيين لضبط العلاقات الدبلوماسية، أشهرها اتفاقية عام ١٥٣٥م مع الملك الفرنسي فرانسوا الأول والتي نظم بها شكل العلاقات الدينية والحج المسيحي إلى الأماكن المقدسة في فلسطين.

وفي أوروبا فقد كانت الإمبراطورية الجرمانية المقدسة تفرض تقاليدها الدبلوماسية، ولكنها سرعان ما كانت تتغير بظروف الحروب المستمرة، وشهدت العلاقات بين الإمبراطورية والعالم الإسلامي سلسلة من التجارب الدبلوماسية الهامة، عصفت بها الحروب الصليبية فيما بعد، وخلال التاريخ جدت الحاجة لتنظيم هذه العلاقات الدبلوماسية، وكانت في البداية تقوم عبر اتفاقات ثنائية أو إملاءات إمبراطورية تلزم من يدور في فلكها، وأحياناً أوامر ملكية تفرض بالغلبة، وبعد سلسلة من الحروب الدينية الطاحنة في أوروبا جاءت معاهدة وستفاليا التي أرست لمبدأ سيادة الدول ١٦٤٨م، ثم أعقبتها سلسلة معاهدات واتفاقيات، أشهرها اتفاقية جنيف ١٨١٥م التي تحددت فيها طبيعة الدولة الحديثة، ثم توجت أخيراً باتفاقية فيينا للعلاقات الدبلوماسية لعام ١٩٦١م ثم اتفاقية فيينا للعلاقات القنصلية لعام ١٩٦٣م حددت بموجبهما ركائز عامة وتراتيب تفصيلية للعلاقات الدبلوماسية والقنصلية، وقد تمت الاتفاقيتان في إطار الأمم المتحدة وأصبحتا مرجعاً للعمل الدبلوماسي في العالم.

وقد أصبحت الدبلوماسية علماً مستقلاً، وتقدم الجامعات الكبرى مناهج دقيقة لإعداد الدبلوماسيين وتأهيلهم، ونشأت مدارس متعددة للدبلوماسية الحديثة، خاصة مع تطور أدوات الدبلوماسية ووسائلها في عصر العولمة وتحول العالم إلى قرية صغيرة.

والطريف في المعارف الدبلوماسية أنها تتجه دوماً إلى التوحد وليس إلى التفرق، وأن نجاحها يرتبط ارتباطاً كاملاً بمدى قدرتها على تقديم نسق اتفاقي بين الأمم، وإن أي تطور أحادي في الدبلوماسية لن ينظر إليه على أنه إنجاز، بل سيكون عقبة في وجه قيام الدبلوماسية بدورها الصحيح في بناء السلام والتعاون الدولي.

وظلت الصيغة الغالبة على العمل الدبلوماسي خلال التاريخ أنه نشاط سياسي

ليس لـه لون ديني، فلم تعـرف التقاليد الدبلوماسـية مثلاً تسميات دبلوماسـية مسيحية أو دبلوماسية يهودية أو دبلوماسية إسلامية.

ومن المفيد أن نقول إننا لا نتجه هنا إلى أسلمة الدبلوماسية ومنحها عباءة دينية وإنما نتجه لتأكيد المشترك بين القيم الإسلامية الأصيلة وبين المعارف الدبلوماسية، وبالتـالي نتجـه إلى إغناء المعـارف الدبلوماسـية التقليديـة وليـس إلى إلغائها أو استبدالها.

أهم الأعمال التي صنفها الفقهاء في الدبلوماسية الإسلامية:

وقد ظل هذا الجانب من المعرفة منثورا في كتب السيرة النبوية وفي أبواب متفرقة في الفقه الإسـلامي في باب الجهاد خاصة، وكتب السياسـة الشرعية، وآداب الملوك وسيرها، كما قام العلماء خلال التاريخ الإسلامي بتصنيف دراسات خاصة في الأدب الدبلومـاسي، وكانت تسمى عادة آداب الملوك، أو الأحكام السلطانية، أو السياسـة الشرعية، ومن أهم هذه الأعمال:

كتاب السير الكبير للإمام محمد بن الحسن الشيباني وشرحه للإمام السرخسي، وكتـاب الخـراج للقاضي أبي يوسـف، وكتاب: رسـل الملوك ومن يصلح للرسـالة والسفـارة لابـن الفراء، وكتـاب الأحكام السلطانيـة للماوردي، وكتاب السياسـة الشرعيـة لابن تيمية، وكتـاب مآثر الأنافـة في معالم الخلافة للقلقشـندي، وكتاب الإبريـز المسبوك في كيفية آداب الملوك للقاضي ابن الأزرق الأندلسي، وله أيضاً كتاب تخيير الرياسة وتحذير السياسة، وكتاب أخلاق الملوك للجاحظ.

أما الدراسات المعاصرة، فقد ظهرت أعمال كثيرة هامة منها:

العلاقـات الدولية في الإسـلام، للشيخ محمـد أبو زهرة، وكتاب آخـر بالعنوان نفسـه للدكتور وهبة الزحيلي، ومن هذه الدراسـات أيضاً: الدبلوماسـية الحديثة، للدكتور سموحي فوق العادة، والنظم الدبلوماسية للدكتور عز الدين فودة، وكتاب

الدبلوماسية بين الفقه الإسلامي والقانون الدولي لأحمد سالم باعمر، والدبلوماسية في التاريخ الإسلامي لعباس حلمي، والشرع الدولي في الإسلام لنجيب الأرمنازي، كما كتب الدكتور إبراهيم العدوي السفارات الإسلامية إلى أوروبا في العصور الوسطى، ولعـــلي بن مقبول اليمني كتاب الحصانات الدبلوماســية والقنصلية والمعاهدات في الفقه الإسلامي والقانون الدولي.

وكتب الدكتور محمد إبراهيم أبو جريبان بحثاً موثقاً بعنوان الأمن الدبلوماسي في الإســلام نشرته مجلة جامعة دمشق، كما كتب الدكتــور إبراهيم أحمد العدوي: السفارات الإسلامية إلى أوروبا في العصور الوسطى.

وتجدر الإشــارة هنا إلى كتاب بالغ الأهمية وهو كتاب التراتيب الإدارية في الدولة النبوية، للسيد عبد الحي الكتاني المتوفى ١٩٦١م، وقد أشار الكتاني أنه اعتمد اعتماداً كلياً في كتابه على كتاب تخريج الدلالات السمعية على ما كان في عهد رسول الله من الحــرف والصنائع والعمالات الشرعية تأليف أبــي الحسن علي بن محمد الخزاعي المتوفى ١٣٨٧م الملقب بذي الوزارتين وقد كان وزيراً في الدولة المرينية بالمغرب.

وقــد تضمن الكتاب قــراءة واعية للآداب الدبلوماســية التي ظهــرت في الدولة الإسلامية، ومن العناوين التي أفردها بالبحث والتفصيل:

- باب في الرسول (السفير) وفيه فصول
- فصل في صفات رســله عليه السلام من وفور العقل وطلاقة اللسان وقوة الحجة المقنعة للخصم
- باب في اختياره عليه السلام لرسله أن يكونوا أحسن الناس وجهاً
- فصــل في الترجمان الذي يترجم كتب أهل الكتــاب ويكتب إليهم بخطهم ولسانهم
- فصــل في كيفية مخاطبة الملوك وغيرهــم من المعاصرين له عليه السلام في زمانه
- باب ذكر ما كان يفتح به كتبه عليه السلام
- احتياطه عليه السلام في مكاتيبه الرسمية

- باب ذكر كيفية مخاطبته عليه السلام للمعاصرين له من الملوك
- باب ذكر عنوان المكاتب التي كانت توجه له عليه السلام
- باب ذكر عمله عليه السلام إذا لم يحضره الختم
- باب اتفاق القوم على من يمثلهم تمثيلاً رسمياً في محفل ديني رسمي
- باب ذكر المؤقت، وأهميته في التشريفات النبوية واستقبال الوفود
- باب في الرسول يبعث بالهدية
- باب في إنزال الوفود
- باب جوائزه عليه السلام للوفود
- باب تجمله عليه السلام للوفود[٤].

وهكـذا فقد كتب كل فقيه بلغة عصره، واختلفت المصطلحات والتسميات ولكن ما تؤكده الدراســات جميعاً هي أن الآداب الدبلوماسية كانت في الواقع محل اعتبار في التصرفات النبوية، وأنها كانت تنطلق من روح الإسلام القائمة على حسن الجوار والتعاون الإنساني.

وتتأكـد الحاجة لجمع هذه المعارف الرائـدة، في كتاب واحد يجمع آداب العمل الدبلوماسي في الإســلام ويكـون مرجعاً للمتخصصين في هــذا الأمر، ويقدم صورة مشرقة للحضارة الإسلامية والعربية في هذا السبيل، وتسعى هذه الدراسة لتلخيص مــا حرره السلــف في الأدب الدبلومــاسي، ومراجعة ما كتبه الخلــف في هذا السبيل والمقارنــة مــع النظم الحديثــة والأعراف الدوليــة في الشأن الدبلومــاسي، للوصول إلى موقف متوازن في القواعد الدبلوماســية التي أســس لها الإســلام وتم إقرارها في المحافل الدولية.

كما تتأكد الحاجة إلى إدخال القيم الإســلامية إلى التقاليد الدبلوماسية في مناهج الإعداد الدبلوماسي، وهي قيم متينة وواقعية، ولها اعتبار رسمي حقيقي لدى أكثر من ٥٧ دولة في العالم الإســلامي، كما أنها محل احــترام وتقدير لدى الدول المحبة للسلام من خارج العالم الإسلامي.

---

(٤) انظر كتاب التراتيب الإدارية في الدولة النبوية، الشيخ عبد الحي الكتاني، المقدمة والفهرس

الفصل الأول

الفقه الدبلوماسي في الإسلام

التأسيس الاعتقادي للعلاقات الودية في الإسلام:

جـاءت الشريعة الخاتمة بالدعـوة إلى الحوار والإخاء الإنسانـي، وعززت ثقافة القـرآن الكريم وجوب احـترام الإنسان وبناء علاقات صحيحـة بين البشر، وأكدت طبيعـة نـزوع البشر إلى الاختلاف والتنـوع، ودعا القرآن الكريـم إلى فهم الجانب الإيجابـي من الاختلاف بين الشعوب والأقوام، قال تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾، وقال: ﴿وَلَوْ شَـاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾، وأوصى القرآن في آيات كثيرة بوجوب بناء علاقات حسنة بين المسلمين وبين الناس، قـال تعالى: ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْناً﴾، ومثل هذه الآيات كثيرة في القرآن الكريم فهو يأمـر بالقول الحسن للناس بغض النظر عـن أديانهم وألوانهم وقبائلهم، ثم يأمر بالإحسان إلى الأرض وهي أمنا جميعاً بغض النظر عن أي انتماء ديني أو مذهبي.

وهـذه الروح مـن الانفتاح على العالم وبنـاء العلاقات الإيجابيـة هي في الواقع روح الإسـلام ورسـالته الأولى، ولكن يجب القول هنا بأن عـدداً من فقهاء السلف لـم يقبلوا هذا اللون مـن العلاقات الودية واختاروا تصنيـف العالم إلى فسطاطين اثنين دار إسلام ودار كفر، أو دار إسلام ودار حرب[٥]، وهذا الموقف الفقهي تتبناه اليوم التنظيمات الجهادية التي لا ترى في العالم إلا عدواً ينبغي قتاله، وهي ترفض منطق العلاقات الدبلوماسـية بكل أشـكاله، وتطالب بمواجهة عسكرية مع العالم حتى يدخل في الإسلام.

(٥) انظـر مثلًا كتاب المغني لابن قدامة المقدسي وفيـه أن الجهاد قتال الناس لإدخالهم في الدين الحق وأمر بغزو أهل الكتاب والمجوس بدون إنذار أو بلاغ، المغني ابن قدامة، ج ١٠، ص ٣٧٩

ولا بـد من القول أن ما روي عن كبـار الفقهاء من آراء متشددة إنما كان نتيجة ظروف سياسـية خاصة إبان الحروب الصليبية على وجه التحديد التي اشترك فيها الغرب في محاربة الإسلام، وأدت إلى تعاظم الريب وانهيار فرص الحوار والدبلوماسية.

ويقدم هؤلاء موقفهم على أساس أنه خيار السلف في العلاقات الدولية، ويشيرون إلى اختيـار الإمام أبي حنيفـة وكذلك فقهاء كثير من المالكيـة والحنابلة في تقسيم العالم إلى دار إسلام ودار حرب.

وقـد ثار الجدل قديمـاً في طبيعة العلاقة بين الدولة الإسـلامية والدول الأخرى وهـل الأصل في هذه العلاقات السلم أم الحرب، وقد كتبت دراسـات كثيرة لتأصيل هذه المسألة واسـتعرض أدلة الفريقين، ومنها ما حققته مجلة الجامعة الإسـلامية بالمدينـة المنورة، وحاصل القول انه اختلف الفقهـاء في أصل العلاقة بين المسلمين وغيرهم على ثلاثة أقوال:

القول الأول: ذهب كثير من الفقهاء من الحنفية والمالكية والشافعية والحنابلة إلى الأصـل في علاقة المسلمين بغيرهم الحرب، وإلى هذا الرأي ذهب عدد من العلماء المعاصرين منهم سيد قطب، وصالح اللحيدان، وأبو الأعلى المودودي.

ورأى أصحاب هذا القول أن تشريع الجهاد والأمر بالنفير في سبيل الله لمحاربة الكفار، والأمر بالاسـتعداد لمواجهة الكفار بالقوة ورباط الخيل يجعل الأصل هو الحرب، وأن السلم استثناء يقدر بقدره.

القول الثاني: ذهب بعض الفقهاء إلى أن أصل العلاقة بين المسلمين وغيرهم هو السلـم، وأن الحرب أمر طارئ لا يلجأ إليها إلا عند الاعتداء على المسلمين أو ظلمهم أو فتنتهم عن دينهم، وقد ذهب إلى ذلك الثوري والأوزاعي والكمال بن الهمام وابن تيميـة وابن القيم، ومن العلماء المعاصرين الدكتـور وهبة الزحيلي، والشيخ محمد أبو زهرة وعبدالله غوشة ومحمود شلتوت وعبدالله بن زيد آل محمود وغيرهم.

القـول الثالث: إن علاقة المسلمين بغيرهم مـن الأمم علاقة دعوة تتنوع حسب الظروف والأحوال تبعـاً للمصلحة الحقيقية لأهل الأرض جميعاً، فقد تكون علاقة

المسلمين بغيرهم علاقة سلم قبل إبلاغهم الدعوة أو أثناء تبليغها، وإذا تجاوبت الأمم غير الإسلامية مع الدعوة، وقد تكون علاقة المسلمين بغيرهم علاقة حرب بعد إبلاغهم الدعوة، وعندما توضع العقبات أمام تبليغها[٦].

ولا يخفي كاتب هذه السطور ميله إلى القول الثاني الذي اختاره شيخ الإسلام ابن تيمية والإمام الثوري والأوزاعي وابن القيم وآخرون، وهو أن الأصل في علاقات الأمة الإسلامية بغيرها من الأمم إنما هي السلم، وقد دلت على ذلك آيات ونصوص كثيرة، في الكتاب والسنة، منها قوله تعالى:

- ﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾[٧].
- وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾[٨].
- ومنها قوله تعالى: ﴿وَلاَ تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمْ السَّلاَمَ لَسْتَ مُؤْمِناً﴾[٩].
- وقوله تعالى: ﴿تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْن لهُ مُسْلِمُونَ﴾[١٠].
- وقوله تعالى: ﴿فَإِنِ اعْتَزَلُوْكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوْكُمْ وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ فَمَا جَعَلَ اللهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيْلاً﴾[١١].

ولا أعتقد أن الذين ذهبوا إلى القول الأول أو الثالث يقصدون بالفعل أن تبقى الأمة في حالة حرب مع الناس، وإنما كانوا يتحدثون عن ظروف خاصة عاشتها الدعوة الإسلامية في مواجهة أعداء طامعين، كما جرى إبان الحروب الصليبية أو

---

(٦) مجلة الجامعة الإسلامية - المدينة المنورة، المجلد ١٩، العدد الثاني، ص ٣٧٩-ص٤١٧، يونيو ٢٠١١، بحث د. محمد سليم الهواري.

(٧) سورة الأنفال، الآية ٦١

(٨) سورة البقرة، الآية ٢٠٨

(٩) سورة النساء، الآية ٩٤

(١٠) سورة العنكبوت، الآية ٤٦

(١١) سورة النساء، الآية ٩٠

المغولية أو الاستعمارية، عندما أكلتهم الناس عن قوس واحدة، وهو الحال نفسه الذي سبق أن واجهته الرسالة بعد أن تم فتح مكة، واتفق العرب على غزو مكة، وأقبل المشركون من ثقيف وهوازن وغطفان وحشدوا في وادي حنين أربعين ألفاً للقضاء على الإسلام واجتياح مكة، وعندها نزلت آية السيف في سورة التوبة وغيرها من الآيات التي تأمر بالقتال وتدعو إلى مواجهة شاملة مع قوى الكفر من المحاربين ومن يقف إلى جوارهم من أعداء الإسلام.

والحقيقة أن هذا الاختيار المنسوب للإمام أبي حنيفة بقسمة العالم إلى دار إسلام ودار حرب، له اعتباراته وضوابطه، ولا يعني أبداً أن أبا حنيفة قصد إلى استعار الحرب بين المسلمين وشعوب الأرض، بل كانت عنده محض ثنائية توضيحية أراد من خلالها تمييز دار الإسلام من سواها، بدليل أن فقه الحنفية أفرد في فصولاً متعددة للعهد والأمان والذمة، وفقهه رحمه الله طافح بالتسامح والتراحم والحكمة، ولكن هذا الموقف التصنيفي يقدم اليوم تبريراً للفكر الجهادي التكفيري الذي يدعو الناس إلى حمل السلاح وقتال الآخر غير المسلم حتى يدخل في الدين الحق.

ويرى هؤلاء أن الأمر على مات عليه الرسول وأن كل ما ورد من نصوص الشريعة في إطار العلاقات الحسنة مع غير المسلمين والتعاون معهم فإنه منسوخ بآية السيف في سورة التوبة، وربما استدلوا بقول السلف أن آية السيف نسخت جميع الموادعات، وفي نص آخر آية السيف نسخت مائة وأربعاً وعشرين آية في كتاب الله[١٢].

وآية السيف على المشهور هي قوله تعالى: وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَما يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ[١٣].

ومن المعلوم أن الأخذ بموقف كهذا يؤسس لعالم قائم على النزاع والخصومة والحروب، ويتنافى مع مقاصد الإسلام في نشر المحبة والإخاء، وفق ما أشارت إليه الآيات البينات: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاك إِلَّا رَحْمَة لِلْعَالَمِينَ﴾.

---

(١٢) انظر نواسخ القرآن لابي الفرج بن الجوزي، ج ١، ص ١٧٣، وانظر كذلك الناسخ والمنسوخ لهبة الله المقري، ص ٩٩

(١٣) سورة التوبة، الآية ٣٦

ولا ينكر هؤلاء ما في القرآن الكريم والسنة النبوية من نصوص التسامح والرحمة والتعامل الإيجابي مع الناس، ولكنهم يعتبرون ذلك منسوخاً بآخر ما نزل من آيات سورة التوبة.

وفي الحقيقة فقد فند العلماء قديماً ما روي من أن آية السيف نسخت سبعين آية أو أكثر من ذلك، وقد حرر الإمام السيوطي ذلك في كتابه الإتقان في علوم القرآن، مبيناً أن السلف ذكروا النسخ في غير المعنى الذي استقر عند علماء الفقه والأصول، وكانوا يقصدون بالنسخ تقييد المطلق أو تخصيص العام، وبشكل أدق فإن الأمة في أول الإسلام كانت منهية عن القتال حتى في إطار الدفاع عن النفس، وقد قضى ياسر وسمية وغيرهما شهداء على يد المشركين ولم يؤذن للرسول ولا للصحابة بالدفاع عن المستضعفين بالسيف أوغيره من السلاح، ونهى رسول الله سعداً عن رمي المشركين بالسهام، على الرغم من عدوانهم وأذاهم، مستدلاً بآيات العفو والرحمة: ﴿فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ﴾، ﴿فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَامٌ﴾، وغيرها من نصوص العفو والرحمة، ولكن الإسلام اشتد عوداً بعد ذلك، ونزلت الآيات المحكمات في مشروعية الجهاد، وأصبحت دلالة هذه الآية على ترك الدفاع عن النفس ضد الظالمين منسوخة، ونزول آية السيف رفع دلالة آيات العفو على ترك الجهاد والدفاع عن النفس، وهو ما كان ممنوعاً على أفراد المسلمين وجماعتهم قبل أن يصبح لهم دولة وقضاء وجيش وسلطان[١٤].

ومن جانب آخر فقد أطبق العلماء على أن القول بالنسخ يتطلب شروطاً كثيرة أشهرها ثلاثة وهي أن يتعذر الجمع بين النصين، وأن يكون الناسخ في قوة المنسوخ أو أقوى، وأن يعلم المتقدم والمتأخر ليصار إلى القول بنسخ المتأخر[١٥]، وذلك كله غير متحقق في ما يذهبون إليه، ولاسيما أن الجمع بين هذه النصوص ممكن وميسور، ولا نقول بالنسخ إلا عندما يتوفر نصان متناقضان لا يمكن قبول أحدهما دون رد الآخر.

---

(١٤) انظر الاتقان للسيوطي، ج ١، ص ٢٥٦
(١٥) المصدر نفسه

وهكـذا فقد نزلت الآيات الكريمة في القرآن الكريم تنظم علاقة المسلمين بالناس عـلى مستويات كثيرة رصدتها في دراسـة سـابقة بسبع عشرة مستـوى، ويمكننا ملاحظـة ذلك وتتبعه في القرآن الكريم حيث تبدأ مـن مثل قوله تعالى: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ آمَنُـوا يَغْفِـرُوا لِلَّذِينَ لا يَرْجُـونَ أَيَّامَ اللَّـهِ﴾[١٦]، ومثلها قوله تعـالى: ﴿لا إِكْرَاهَ فِي الدِّيـنِ﴾[١٧]، وقوله: ﴿لَكُمْ دِينُكُـمْ وَلِيَ دِينِ﴾[١٨]، ثم قولـه: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا﴾[١٩]، ثم قوله: ﴿وَقَاتِلُواْ فِي سَـبِيلِ اللّهِ الّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ﴾[٢٠]، ثم قوله تعالى: ﴿وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُم﴾[٢١].

وهـذه المستويات كلها كلام إلهي حكيم، ولكل منها موقعه وزمانه ومكانه، فما نزل في سـاعة المواجهـة والجهاد من الأمر بالقتال لا يلغي مـا نزل في وقت السلم، ولا يلغي ما نزل في حق الجوار والعيش المشترك مع غير المسلم ممن لا يروم سـوءاً بالإسلام أهله....

وحتـى لا نذهب في بحثنا هذا بعيداً، فإننا نكتفـي بالوقوف عند البيان القرآني الصريـح في سـورة الممتحنة الذي يصنـف الناس على مستويـات متعددة بحسب موقفهم من الإسلام والمسلمين:

﴿ لا يَنْهَاكُـمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِيـنَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ، إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّيـنِ وَأَخْرَجُوكُـم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُـمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُوْلَئِـكَ هُمُ الظَّالِمُونَ، عَسَى اللَّـهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِيـنَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً وَاللَّهُ قَدِيرٌ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[٢٢].

---

(١٦) سورة الجاثية، الآية ١٤
(١٧) سورة البقرة، الآية ٢٥٦
(١٨) سورة الكافرون، الآية ٤
(١٩) سورة الحج، الآية ٣٩
(٢٠) سورة البقرة، الآية ١٩٠
(٢١) سورة البقرة، الآية ١٩٢
(٢٢)سورة الممتحنة، الآية ٨

وأمـام هذا النص القرآني الواضح فإنـه لا مندوحة من القول بأن قسمة العالم إلى فسطاطين اثنين لا ثالث لهما هي قسمة غير حكيمة ولا مستقيمة.

وفي محاولـة للاقتراب من النـص القرآني الكريم في توجيهه للأمة حول شـكل العلاقـة مـع الآخرين، فقد اخـترت أن أضم هنا تطور الخطاب القرآني على سـبع عـشرة مرحلـة، تدور بين العفـو والمعاهدة والقتـال، ولكنهـا في النهاية تستجيب للظـروف الموضوعية المحيطة بتنزلها فيما يتصل بحـال الأمة ضعفاً وقوة، وحال أعدائها من الموادعة أو المخاصمة أو المحاربة.

م	الآيـــة	البيان	الزمان
١	﴿قُل لِّلَّذِينَ آمَنُواْ يَغْفِرُواْ لِلَّذِينَ لاَ يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ﴾	الغفران والتسامح مع غير المؤمنين	مكية
٢	﴿فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلامٌ﴾	الكف عن إساءاتهم واستهزائهم	مكية
٣	﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾	حق أتباع كل دين باختيار ما يؤمنون به	مكية
٤	﴿وَلا تَسُبُّـوا الَّذِينَ يَدْعُـونَ مِنْ دُونِ اللَّـهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾	الامتنـاع عـن مهاجمـة آلهتهـم حتى نضمن حيادهم	مكية
٥	﴿لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾	إعلان الحرية الدينية	مكية
٦	﴿وَلاَ تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمْ السَّلاَمَ لَسْتَ مُؤْمِناً﴾	احترام الخيار الاعتقادي والنوايا	مدنية
٧	﴿لا يَنْهَاكُـمُ اللَّهُ عَـنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُـمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا﴾	تقسيـم النـاس بحسـب خياراتهـم، وإقرار دار الحرب ودار العهد	مدنية
٨	﴿فَـإِنِ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُـمْ وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ فَمَا جَعَلَ اللهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيْلاً﴾	لا عدوان على الشعوب والدول المسالمة	مدنية
٩	﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا﴾	الإذن بالقتال ضد المعتدين	مدنية
١٠	﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلا تَعْتَدُوا﴾	نقاتل من قاتلنا ولا نعتدي	مدنية
١١	﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾	وجوب مقاتلة الجماعات الكتابية التي رفضت الانضمام للدولة الناشـئة حتى يدخلوا في طاعة الدولة	مدنية
١٢	﴿يَـا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُـوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُـمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً﴾	نقاتل الكفـار من الدول المجـاورة إذا تواطأوا على قتالنا	مدنية
١٣	﴿وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً﴾	نقاتـل المشركـين كافـة إذا اتفقوا على قتالنا كافة	مدنية

م	الآيـــة	البيان	الزمان
١٤	﴿وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ﴾	نقاتلهم ولو لم يكونوا في ساحة المعركة إذا سبق منهم العدوان والقتل	مدنية
١٥	﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ﴾	نقاتلهم في ساحة المعركة دفاعاً عن أنفسنا	مدنية
١٦	﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّه﴾	السلـم والموادعة أفضل عنـد الله حين تصح نواياهم في السلم	مدنية
١٧	﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً﴾	الدعوة للسلام الشامل	مدنية

ومـن خلال قـراءة النصوص فإن من الواضح القول بـأن تنزّل الآيات الكريمة كـان وفق الأحـداث والظروف التي تواجهها الأمة، وأن الأوامـر القرآنية إنما كانت تختص بظرف محدد، ولا بد أن نفهمها في سـياق سـبب النـزول الذي وردت به، وأن نـدرك أن هـذه النصوص جميعاً وإن كانـت بصيغة العمـوم ولكنه من باب العمـوم الذي أريد به الخصوص، والمطلق الذي أريد به المقيد، وهي قواعد واضحة عنـد علمـاء الأصول، ولا يجوز إطلاق التعميم فيما سـبق ليس فقط لأنه كما يظن المتشددون سيلغي العلاقات الودية مع غير المسلمين ولكن لأنه سيؤدي إلى التناقض وتعارض الأدلة، والحق الذي لا شـك فيه أن سائر هذه النصوص تنزيل حكيم من الله، ولا سـبب للقول بنسخ بعضها ببعض وإنما العمل بها جميعاً كل في الظرف الذي تنزل فيه.

وهكذا فإن العلاقات الودية مع الدول المسالمة في الإسـلام مؤسسة بنص القرآن الكريم، كما أن الجهاد ضد المعتدين هو أيضاً أمر قرآني كريم.

وقد سـبق الإمام الشافعي في تصنيف العالم إلى قسمة ثلاثية: دار إسـلام ودار حرب ودار عهد، وربما استخدم مصطلح دار أمان أو دار مصالحة، وبهذا التصنيف أكـد الإمام الشافعـي على وجود بلاد كثيرة ليست من أرض الإسـلام، والناس فيها يحتكمـون إلى أديـان أخرى، أو لا يدينـون بدين ولكن يحكـم علاقتهم بالمسلمين السلم وفق العهود والمواثيق التي يقبلها الطرفان.

وهكـذا فقـد اسـتقر في الفقه الإسـلامي التحـول إلى القسمة الثلاثيـة في إطار العلاقات الدولية[٢٣]:

- دار الإسلام
- دار الحرب
- دار المعاهدة

فتكون دار الإسـلام هي الأرض التي يعيش عليها المسلمون وتطبق فيها أحكام الشريعـة، ودار الحـرب هـي الدولـة التي تعلن الحـرب على المسلمـين ولا تحترم شعائرهم ودينهم ونبيهم، وما تبقى بعد ذلك فهو دار عهد يحكمها طبيعة الاتفاق الـذي تبرمه الدولة الإسـلامية مع هـذه الدولة في إطـار العلاقـات الدولية، وهذه العلاقـات والاتفاقيات تدور في فلك المبـاح الذي ترك لولي الأمر أن يتصرف فيه من خلال مؤسسات الشورى والحكم التي تتبناها الأمة.

وقد أفردت موسـوعة الفقه الإسـلامي وأدلته تحرير هـذا الموقف الفقهي تحت عنوان الاعتراف ونتائجه:

«إن تنظيـم المجتمع الدولي الحاضر تنظيم حديث لـم يكن على هذا النحو وقت ظهور الإسـلام وفي عصور دوله المتتابعة كما هو معروف، لذا كان مرجع تفصيل الأحكـام الدولية إلى القانون الدولي العام، إلا أن المبـادئ الأصلية والأخلاق الدولية السائدة مقررة بوضوح في الإسلام.

وبما أن الإسـلام ينشـد في الحقيقة الوصول إلى سـلم مستقـرة في علاقاته مع الشعوب الأخرى على أساس أحد أمرين: إما الدخول في الإسلام، أو المعاهدة والأمان، فـإن الاعتراف بوجـود الدولة الأخرى غـير المسلمة (دار الحرب) أمـر لا مانع منه اسـتصلاحاً في مبدأ الإسـلام وفقهه المتمثل في تقسيم العالم إلى دارين: دار إسـلام ودار حـرب، لأن دار الحـرب تشمـل كل الدول غـير المسلمة التـي كانت في الأصل غير مسالمـة للمسلمين ولا متعاهدة معهم، فإذا تمت المعاهـدة السلمية بين الدولة الإسـلامية وغيرها مـن دول دار الحرب، أو التزمت هذه الدول كلهـا ميثاقاً واحداً

(٢٣) انظر الحاوي في الفقه الشافعي للماوردي، ج ١٤، ص ٢٦٧

ينص على احترام السلم والأمن الدوليين، وتحريم التدخل في شـؤون الدول الأخرى كان ذلك اعترافاً ضمنياً من الدولة الإسلامية بغيرها، فضلاً عن أن الاعتراف يصدر في الغالب صراحة بإرادة حرة.

وهذا موافق لقوله تعالى: ﴿وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾[٢٤].

وبنـاء عليـه يجوز للدولة المسلمـة الاعتراف بدولة غير مسلمـة اعترافاً علنياً أو ضمنياً حقوقياً أو واقعياً بحسب الحال.

وكون الدعوة الإسـلامية ذات نزعة عالمية عن طريق الحكمة والموعظة الحسنة، وبالتالي امتداد سـلطان الدولة الإسلامية مع انتشارها في المعمورة: لا يعني تجاهل ظـروف الإمكان وضرورات الواقع ومصلحة السلام التي تجعل من دولة الإسـلام إحدى دول هذا العالم التي تتبادل بينها أمر الاعتراف لفض منازعاتها على أسـاس سلمي يتمشى مع منطق الإسلام ووحي رسالته[٢٥].

وقـال علي بن أبي طالب رضي اللـه عنه: «لاتدفعن صلحاً دعاك إليه عدوك ولله فيـه رضا .. فإن في الصلح دعـة لجنودك وراحة من همومـك، وأمناً لبلادك ولكن الحذر كل الحذر من عدوك بعد صلحه فإن العدو ربما قارب ليتغفل»[٢٦].

على أنه يجب القول بأن الدبلوماسـية ليست متخصصـة بالعلاقات الودية، بل تشتـد إليها الحاجـة حين تكون العلاقـات مضطربة ومتوترة، بـل إنني أجزم أن الغاية العليا للعمل الدبلوماسي هي النجاح في فض المنازعات، ومنع وقوع الحرب، وتعزيز فرص السلام.

ونستميح القارئ عذراً من هذا التوسـع والتفصيـل في مسألة القول بالنسخ في آيـات العفو والرحمة والسلم، لأن ذلك أمر جوهري في بناء علاقات دولية صحيحة بين المسلمين وبين شعوب العالم.

---

(٢٤) الأنفال، الآية ٦١
(٢٥) الفقه الإسلامي وأدلته، د. وهبة الزحيلي، ج ٨، ص ٤٤٨
(٢٦) نهاية الأرب، أحمد بن عبد الوهاب النويري، ج٢، ص ١٦٨

مصطلح الدبلوماسية في التراث الإسلامي:

لم ترد كلمة الدبلوماسية في الآداب الإسلامية، وكان الفقهاء يعبرون عن المعرفة الدبلوماسية بعنوان السير، ومن أقدم ما كتب في القضايا الدبلوماسية كتاب السير الكبير والصغير وقد وضعهما محمد بن الحسن الشيباني صاحب أبي حنيفة والمتوفى عام ٨٠٤ م، وكان مقرباً من الخليفة هارون الرشيد ولا شك أنه أفاد من قربه للبلاط بتقديم خبرات متقدمة في الحقل الدبلوماسي، وقد شرح السير الكبير شمس الأئمة السرخسي الفقيه الحنفي الشهير المتوفى عام ١٠٩٠م، وتبع ذلك سلسلة كتب تتحدث في آداب الملوك وأنظمة الحكم سنأتي بعد قليل على تفصيل القول فيها.

ولكن الدبلوماسية في العصر الذهبي للإسلام وإن غابت مصطلحاً فقد كانت حاضرة ومؤثرة، فقد اعترفت الأمة الإسلامية بوجود الدول المجاورة ونشأت علاقات حقيقية بين الدولة الإسلامية الناشئة في عصر الرسول وبين هذه الدول، وفي عهد الراشدين والخلافة التالية وتعززت فكرة التواصل مع دول غير محاربة، وبناء علاقات دبلوماسية حقيقية معها.

وبناء على ذلك يمكن للباحث تعريف الدبلوماسية في الإسلام بأنها مجموعة من القواعد والأحكام التي تتفق مع الشريعة الإسلامية والتي تعبر عن رغبة الدولة في تعاملها مع غيرها من الدول بما يحقق مصلحتها في جميع الأحوال والظروف[٢٧].

ولا شك أن الدبلوماسية بهذا المعنى لم تفرد ببحث مستقل ولكنها وردت في تضاعيف بحوث كثيرة، ويمكن التماسها في الفقه الإسلامي في أبواب كثيرة، منها باب المعاملات، وأحكام الجهاد، والمعاهدات.

وربما كان أكثر باب شرح فيه الفقهاء هذه المسألة هو باب الذمة والعهد، فقد أفاضوا في القول حول شروط منح الذمة للمعاهدين والمستأمنين والفرق بين أهل الحرب وأهل العهد وأهل الذمة.

(٢٧) بحث الدكتور إبراهيم أبو جريبان نشرته مجلة جامعة دمشق للعلوم الاقتصادية والسياسية المحكمة، المجلد ٢٤، العدد الأول لعام ٢٠٠٨، ص ٦١٦

وقد استخدم الفقهاء كلمة الحكمة مكان كلمة الدبلوماسية كما استخدموا لفظ أدب الملوك وآداب السلوك وسير الملوك، وآداب المعاهدين، وشرائط العهد، وغيرها من المصطلحات.

وعرفت الحكمة بأنها: فعل ما ينبغي على الشكل الذي ينبغي في الوقت الذي ينبغي.

كما عرفها آخرون بقولهم: هي معرفة الاشياء على ما هي عليه في الواقع حكما وأمراً، ثم العمل بمقتضاها.

ولا يمكن اعتبار ذلك تعريفا للدبلوماسية، فهي تعريفات عامة لا تتناول مباشرة العمل الدبلوماسي، ولكن يمكن اعتبار الدبلوماسية فرعاً من الحكمة، أو هي الحكمة المتصلة بسياسة الناس والعلاقات الدولية، وبهذا المعنى سنجد فقهاً غنياً يقدم كثيراً من جوانب المعرفة في هذا السياق.

الدبلوماسية في العهد النبوي:

منذ فجر الإسلام أعلن القرآن الكريم عالمية الرسالة ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيراً وَنَذِيراً﴾ وأدرك الناس أن الإسلام رسالة إخاء إنساني، هدفها إعمار الأرض وبناء الحياة على أساس من التعارف والتعاون والتكافل، وتعززت في التوجيه والممارسة إرادة تأسيس بناء علاقات دولية صحيحة، تنظمها قيم العدالة والمساواة التي قررتها مبادئ الإسلام الكبرى.

وقد قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم خلال حياته الكريمة فقهاً دبلوماسياً غنياً من خلال بناء علاقات مسؤولية مع الملوك حول الجزيرة العربية، كما عقد أوثق الصلات بزعماء القبائل في جزيرة العرب، وحمل معهم مسؤولية التعاون لبناء الدولة على أرض جزيرة العرب بعد أن عاش العرب قروناً نهباً لكل طامع، يتناوب على استعمارهم الشرق الفارسي والغرب الرومي، وتمكن عبر كفاح دبلوماسي صاحبته إرادة حقيقية في بناء الدولة بكل الوسائل المتاحة من قدرات

مالية وعسكرية واجتماعية، حتى صارت الدولة العربية مستعدة لترث الحضارات التاريخية في العالم القديم خلال أقل من عشر سنوات.

وكـذك فإن السيرة النبويــة طافحة في بيان النجاحات التي حققها رســول الله ســواء في سفارات السلم أو في سفارات الحرب، وسواء في علاقات الوفاق أو علاقات المواجهة، وهي تقدم الدليل المنطقي على أن الأصل في علاقة الدولة الإسلامية بالعالم من حولها هو التــوازن والاعتدال والمصالح المتبادلة، واحــترام القيم الإنسانية وأن النبي الكريم استخدم أرقى فنون الدبلوماسية لحل النزاعات وقطع أسباب الحروب.

وعلى الرغم من طبيعة المواجهة الشديدة التي لقيتها الرسالة في أيامها الأولى من قبــل الوثنية العربية، ثم المواجهة المباشرة مع الإمبراطورية الفارســية والبيزنطية، ومــا صاحب ذلك من حروب ونزاعات، فإن المسلمين نجحوا في التأســيس لعلاقات دبلوماسية متوازنة، تعتمد مبدأ العلاقات السلمية بين الدول، وتوفر فرصاً مستمرة لحــل النزاعــات بالطرق السلمية، وبناء علاقات دوليــة مسؤولة، وتسهم في حماية العيش المشترك وحسن الجوار.

ومنذ فجر الإســلام أقام النبي صلى الله عليه وســلم علاقات دبلوماسية ناجحة مع النجــاشي ملك الحبشة ومع المقوقس ملك مصر وتبادل معهما الهدايا والوفود، وأقــام علاقات متينــة مع نصارى نجران وجيزان، وكذلك مع قبائل وثنية شــهيرة كخزاعة والملك أكيدر بن عبد الملك الكندي وعرب الحيرة من المناذرة.

ويمكن رصد طبيعة العلاقات التــي حققها النبي الكريم في الحقل الدبلوماسي في الأنواع التالية:

- معاهدات حسن جوار وصداقة كما في حلفه مع النجاشي.
- معاهدات تحالف استراتيجي كما في حلف خزاعة، وحلفه مع الأوس والخزرج يوم العقبة.
- معاهدات عدم اعتداء كما في ودّان والعشيرة ودومة.
- معاهدات هدنة كما في صلح الحديبية.
- معاهدات نتج عنها اعتراف دبلوماسي وسياسي كما في صلح الحديبية.

- معاهدات سلام كما في معاهدة نصارى نجران.
- الزواج الدبلوماسي وأثره في المصالحات بين القبائل.

وسنأتي على تفصيل جوانب مهمة في الدبلوماسية النبوية الحكيمة خلال فصول الكتاب، وبوجه خاص خلال سفاراته الناجحة التي اختار لها أفضل الدبلوماسيين وأشرف على أدائهم، ونحيل هنا إلى كتاب التراتيب الإدارية للدولة النبوية للعلامة عبد الحي الكتاني الذي أفرد فصولاً طويلة لشرح الجوانب الدبلوماسية في سيرة النبي الكريم، والأصول الدبلوماسية التي علمها للناس واستقرت في عرف العلاقات الدولية من بعده[٢٨].

كما تجدر الإشارة إلى أن النبي الكريم حقق أيضاً مكاسب دبلوماسية مهمة عبر ما اصطلح على تسميته بالزواج السياسي، وقد كان هذا اللون من الزواج شائعاً في العصور الوسطى، ويجب القول إن النبي الكريم لم يلجأ إلى هذا اللون من الزواج أبداً في حياة خديجة رضي الله عنها وهي أم أولاده وشريكة حياته، ولكن في إطار قيادة الدولة في المدينة، فقد تزوج مرات متعددة، وكان لكثير من هذا الزواج تأثير مباشر في الصلح بين القبائل العربية أو تخفيف غلواء الأحقاد والكراهية، فمن ذلك زواجه برملة بنت أبي سفيان وهو زعيم المشركين في قريش، وكانت رسالة مودة مباشرة لزعماء قريش للتخلي عن حربهم على الإسلام، وكانت خطوبتها عبر النجاشي رسالة أخرى في بيان مدى انتشار الرسالة بين الملوك وحاجة قريش إلى بناء علاقات جيدة مع الرسول والرسالة.

وكذلك كان لزواجه بجويرية بنت حيي بن أخطب زعيم اليهود بعد معركة خيبر أثر كبير في منع استرقاق اليهود الخاسرين بعد خيبر، وكذلك فإن زواجه من جويرية بنت الحارث المصطلقي بعد حربه مع المصطلق كان له أيضاً أثر كبير في إنهاء الحرب مع المصطلق، وبدء مرحلة جديدة من العلاقات تأسيساً على هذه المصاهرة الكريمة.

---

(٢٨) السيرة النبوية، عبد الملك بن هشام، المعروفة بسيرة ابن هشام، ج٢، ص ٦٤٦، باب زواجه بميمونة، وكذلك زواجه برملة وجويرية

وفي عمـرة القضـاء فيما كان الناس يؤدون مناسـكهم كان رسـول الله مهتماً بتحقيـق مفاجأة كبيرة وهي زواجه من ميمونة بنـت الحارث وإصراره من جديد على مصاهرة بيوت قريش الرافضة للإسلام، وقد كان لهذا الزواج أيضاً تأثير كبير في تسارع القرشيين للدخول في الإسلام.

إن التعبـير المستخدم في كتب السير هو حكمة الرسـول الكريم في زواجه ببنات زعماء العرب، ولا بأس بأن نقول إن المقصود بالحكمة هنا تحديداً هو هذا الجانب الدبلوماسي الذي عاد بفائدة كبيرة على الناس والوفاق بين القبائل.

الدبلوماسية في التاريخ الإسلامي:

كـان على فترة الخلفاء الراشـدين أن تنجز الاسـتحقاق الكبـير المتمثل في فتح بـلاد العرب وتخليصهـا من المستعمر الأجنبي فارسـياً أو رومياً، فقد كانت أرض العـرب التاريخيـة في الشام والعـراق تعاني من حكم الغريـب المستعمر الروم في الشـام والفرس في العـراق، وكان تخليص أرض العرب من هذا الاسـتعمار واجباً دينياً ووطنياً، تقره سائر التشريعات والأعراف، ولذلك فقد اكتفى الخلفاء بإرسال الرسـل لإبـلاغ مواقف محددة ضد هـؤلاء المستبدين من قادة العجـم والروم، وقد اشـتهر هؤلاء السفراء بالشجاعة والذكاء والوضوح، واشـتهر من هؤلاء ربعي بن عامر والنعمان بن مقرن، والمغيرة بن شعبة، والأشعث بن قيس، وفرات بن حبان، وعطارد بن حاجب، وحنظلة بن الربيع، وعمرو بن معد يكرب.

وخلالئـذ لم تنشأ علاقات دبلوماسـية بالمعنـى المعروف مع هـذه الدول لأنها كانـت دول احتلال، وكان المطلـوب طردها من أرض العرب وليس إقامة العلاقات الدبلوماسية معها، وهكذا كان.

ومـع ذلك فإنـه يمكن رصد عدد مـن نشاطـات الخلفاء الراشـدين في الحقل الدبلوماسي ومنها ما أشار إليه الدكتور بوعباه بقوله:

كما اهتم عمر بن الخطاب بالرسـل وانشأ ديواناً للرسل، يتضمن الرسائل التي

تأتيه بواسطة الرسل، واعتمد وسيلة القضاء كأفضل وسيلة لتسوية المنازعات، ومثل العهد الذي منحه عمر بن الخطاب إلى أهل القدس أفضل وثيقة تاريخية تمثل قواعد القانون الدولي الإنساني[٢٩].

وخصص عثمان بن عفان مبالغ معينة من بيت المال لاستقبال الرسل الأجانب وتغطية نفقات إقامتهم. وعلى الرغم من التطور الذي يشهده القانون الدولي في الوقت الحاضر إلا أن الدولة لا تتحمل نفقات إقامة البعثات الأجنبية في بلدها[٣٠].

وبعد أن اكتمل فتح أرض العرب التاريخية، وتم إخراج المستعمر الرومي والفارسي منها، وعاد الروم إلى بلادهم ازدهرت من جديد الدبلوماسية الإسلامية ونشأت الحاجة لبناء علاقات حسن جوار مع الأمم المجاورة، لاسيما وأن عدداً من الخلفاء كانوا لا يرون الذهاب بعيداً في الفتح، فقد اشتهر عن عمر بن الخطاب قوله: «حسبنا لأهل العراق سوادهم والأهواز، وددت لو أن بيننا وبين فارس جبلاً من نار لا نصل إليهم ولا يصلون إلينا»[٣١]، ولولا تكرر الإعتداء من فارس وإصرارها على إعادة احتلال العراق لقامت علاقات دبلوماسية ناجحة بين الفرس وبين عمر ولكن الاعتداءات المتكررة دفعت بجيوش جديدة بقيادة الأحنف بن قيس إلى بلاد فارس.

وكذلك اشتهر موقف عمر بن عبد العزيز الذي كان يحبذ انتشار الدعوة والهداية عن طريق الحجة والبرهان أكثر من الغلبة والسلطان واشتهرت كلمته العظيمة: «إن الله بعث محمداً هادياً ولم يبعثه جابياً»[٣٢].

واشتهرت العلاقات الدبلوماسية الناشطة بين الخلفاء الأمويين والبيزنطيين، ومن هؤلاء عبد الملك بن مروان الذي أرسل القاضي شراحيل الشعبي وهو من مشاهير التابعين إلى الإمبراطور البيزنطي جستنيان الثاني وقد أثنى الإمبراطور جستنيان على لباقة الشعبي وحكمته وحسن سفارته[٣٣].

---

(٢٩) الدبلوماسية، للدكتور سعيد ابو عباه، ص ٣١
(٣٠) المصدر أعلاه، ص ٣١
(٣١) تاريخ الأمم والملوك لابن جرير الطبري، ج ٣، ص ١٧٦
(٣٢) المواعظ والاعتبار، للمقريزي، ج ١، ص ٩٧
(٣٣)الوافي بالوفيات، للصفدي، ج ٥، ص ٣٢٣

كما اشــتهر هارون الرشيد بنجاحاته الدبلوماســية ومنها معاهدة السلام التي أرســاها مع الإمبراطــورة البيزنطية أريني وما تلاها من ســلام متبادل، ثم غضبه بعــد ذلك على خلفها الإمبراطور نقفور الذي نقض المعاهدة فغزاه هارون الرشــيد واســتولى على مدينة هرقله شرق القسطنطينية من أرض تركيا اليوم، وهي المدينة التــي كان ينصَّــب فيها الإمبراطور الروماني، ثم ألزمــه الجزية، وتحول هارون في علاقاتــه الدبلوماســية إلى الأباطرة الرومــان الغربيين (الفرنجــة) الذين بدأوا مع شارلمان في آخن بألمانيا، وأرسل هارون الرشيد وفداً من المبعوثين، معهم الكثير من الهدايا والابتكارات الإســلامية العلمية – ومنها الساعة الميكانيكية الدقاقة- ومنها كذلك لعبة الشطرنج، وبدوره أبدى شارلمان وحاشيته إعجابهم بتلك الهدايا القيمة وبما وصل إليه المسلمون- وقتذاك، من اختراعات وحضارة وتقدم[٣٤].

وقد تطورت هذه العلاقات فيما بعد وأصبح لها أصولها وتقاليدها، وبلغت حد التعــاون الاقتصادي والتعاون في فض النزاعات، كما تشير إلى ذلك رســالةً وجَّهها إمبراطــور الرومتيوفيــل ٨٢٩م إلى الخليفة العباسي المأمــون بشأن تبادل الأسرى وإعادة الحياة الاقتصادية بين المسلمين والروم، وجاء في تلك الرســالة: «وقد كتبتُ إليك داعياً إلى المسالمة، راغباً في فضيلة المهادنة؛ لنضع أوزار الحرب عنَّا، ويكون كل واحــد لكل واحد وليّاًوحزباً، مع اتصال المرافق، والفسح في المتاجر، وفك المستأسر، وأمن الطَّريق».

وردَّ الخليفة المأمون مجيباً طلــب الإمبراطور البيزنطي؛ حتى تعود الحياة بين الطَّرفين إلى مجراها الطبيعي، وكان يسمح لحاملي تلك الرسائل بزيارة معسكراتِ اعتقــال الأسرى؛ ليتأكدوا من حُســن معاملتهم، وليتعرفوا على كلٍّ منهم، وكان من أغراض الدبلوماسية الإسلامية محاولةُ معرفةِ قوَّة جيرانهم، ومدى بأسهم، والتأكُّد مــن صحة طلب الفريق الآخر للصُّلح، أو للمهادنة، أو تبادل الأسرى، كما كان بين المأمــون وبين ملك الروم مراســلات وقد اســتظهر عليه المأمون فكتــب إليه يسأله إنفــاد ما يختار مــن الكتب القديمة المخزونــة بالروم فأجاب إلى ذلــك بعد امتناع

(٣٤) قصة الحضارة، ول ديورانت، ج ٢٢، ص ٤٥٨

فأخرج المأمون لذلك جماعة منهم: الحجاج بن مطر وابن البطريق وسلما صاحب بيت الحكمة فأخذوا ما اختاروا وحملوا إليه فأمرهم بنقله فنقل وكان يوحنا بن مأسويه ممن ينفد إلى الروم وكان محمد وأحمد والحسن بنو شاكر المنجم ممن عني بإخراج الكتب وكان قسطا بن لوقا البعلبكي قد حمل معه شيئا فنقل له[٣٥].

وكتب المأمون إلى ملك الروم يسأله الإذن في إنقاذ ما يختار من العلوم القديمة المخزونة ببلاد الرّوم، فأجاب إلى ذلك بعد امتناع. وأخرج المأمون لذلك جماعةً منهم الحجَّاج بن المطران وابن البطريق وسلمان صاحب بيت الحكمة وغيرهم. فأخذوا مما وجدوا ما اختاروا، وقيل أن المأمون كان يعطيه من الذهب زنة ما ينقله من الكتب إلى العربيّة مثلاً بمثل[٣٦].

وكان من مهمة السفراء أن يعلَموا حالة الطرُق والأمكنة التي توجد فيها المروج والأعشاب والحشائش للعلف، وكذلك قوَّة الجيش ومَؤونته في العَدَد والعتاد وفي الدِّفاع والهجوم، وأن يعرفوا كل ما يتعلق بأمور البلاد الأجنبية من النواحي الشخصية والعامة، كما أن الدُّبلوماسية الإسلامية في العهد العباسي كانت تتوخَّى من سفاراتِها أغراضًا علمية.

وفي هذا السياق أيضاً ما كان يقوم به المأمون من شراء كتب الحكمة من الرومان عبر سفراء ومندوبين يمثلون الخليفة، ويرسلون نفائس الكتب إلى بغداد حيث تتم ترجمتها إلى العربية عبر دار الحكمة.

ومن أمثلة ذلك: أنَّ الخليفة المأمونَ علم أن في القسطنطينية أستاذاً مشهوراً بالرياضيات، فأرسل إلى الإمبراطور البيزنطي تيوفيل سفارةً خاصة تحمل رسالة شخصية تطلب منه أن يسمح للأستاذ ليو بالحضور إلى بغدادَ فترة قصيرة، وقال المأمون في رسالته: «إنه يعتبر ذلك عملاً ودياً، ويعرض على الدولة البيزنطية صلحاً دائماً، وألفَيْ قطعة ذهبية في مقابل ذلك»، غير أن الإمبراطور البيزنطي رفض هذا العرض السخي؛ لأن بعض أبحاث العلماء كانت تعتبر في ذلك العهد من أسرار الدولة،

(٣٥) أبجد العلوم، صديق حسن خان القنوجي، ج ٢، ص ٢٥٢
(٣٦) الوافي بالوفيات، صلاح الدين الصفدي ج ٤، ص ٣٣٦

وقد قامت في العهد العباسي بين العباسيين وروما ومملكة البلغار والهند والصين، بالإضافة إلى القسطنطينية والفرنجة – علاقات دبلوماسية[٣٧].

وعرف العباسيون نظام المراسم واستقبال الرسل والاحتفاء بهم. إذ كانوا يخصون السفير ومرافقيه باستقبال حافل على الحدود ومرافقته حتى دخول العاصمة، حيث يجد بانتظاره شخصية سامية، وينزل ومرافقه قي قصر الضيافة، وقد جرت العادة على أن يستقبل السفير من قبل وزير مكلف بالمهمة (الوزير مرتبة أدخلها الفرس للدولة العباسية) يحدد معه موعد لمقابلة الخليفة (أمير المؤمنين) وعندما يحظى بمقابلة أمير المؤمنين يقدم له كتاب (سيده) رئيس دولته، ومن ثم الهدايا التي يحملها له[٣٨].

ومن نشاطات الدبلوماسية العربية العلميَّة ما قام به الخليفة العباسي الواثق بالله (٨٤٢م – ٨٤٧م)، إذ أرسل وفدًا إلى الإمبراطور البيزنطي دقليديانوس لزيارة الكهف الوارد ذكرُه في القرآن الكريم[٣٩].

كما أرسل الخليفة المتوكل نصر بن الأزهر سفيراً إلى إمبراطور الروم ميخائيل الثالث لدراسة موضوع تبادل الأسرى وقبول الفداء بين المسلمين ودولة الروم. وقد نجح هذا السفير في مهمته وافتدى ٢٣٠٠ أسير من المسلمين كانوا في بلاد الروم[٤٠].

واشتهر من السفراء السفير يحيى الغزال الذي عمل للأمير عبد الرحمن الثاني الأموي، وقد قام بعدة سفارات ناجحة أشهرها مع الإمبراطور البيزنطي تيوفيلوس وزوجته تيودورا، وقد نقل المقري في نفح الطيب أن الإمبراطور وزوجته أعجبا بالسفير الشاعر الفارس، وخف على قلبه، وطلب منه أن ينادمه فامتنع عن ذلك

---

(٣٧) قصة الحضارة، ول ديورانت، ج ٢٣، ص ٤٦٣

(٣٨) الدبلوماسية تاريخها ومؤسساتها للدكتور سعيد أبو عباه، ص ١٨٨

(٣٩) مقال الدكتور عباس حلمي، مجلة منار الإسلام الإماراتية، عدد ٤ لعام ١٩٧٩، ومن المؤكد أن الكاتب أخطأ في اسم الإمبراطور البيزنطي فالإمبراطور المعاصر للواثق هو الإمبراطور مايكل الثالث، أما الإمبراطور دقلديانوس فقد توفي عام ٣٠٥ ميلادية أي قبل الواثق بأكثر من خمسة قرون، ولا شك أنه التبس عليه بسبب أن دقلديانوس هو من ظهر في زمانه الفتية من أصحاب الكهف.

(٤٠) تطور الدبلوماسية الإسلامية عبر العصور، للكاتب محمد بوبوش، ص ١٢٥ – دار الفكر

واعتذر له بتحريم الخمر[٤١].

ثـم قام بسفارة أخرى إلى بلاد الدنمارك والتقى فيها نوركايوس ملك النورمان عـام ٨٤٤ م وتمكن من عقد اتفاقية صلح أنهت فتيل نزاع كان يوشـك أن ينفجر بين أوروبا وبين المسلمين في الأندلس.

واشتهرت بعد ذلك السفارات المختلفة بين الحمدانيين والأخشيديين والسلاجقة والزنكيين والأيوبيين، وغيرهم من الدول الإسلامية التي اجتهدت أن تؤسس علاقات مستقرة مع الدول المجاورة.

على أن دراسـة تاريخ العلاقات الدبلوماسية وتطورها يحتاج إلى بحث مستقل، وبحسبنا أن نشير هنا أن هذا اللون من العلاقات الدبلوماسـية كان حاضراً خلال التاريـخ الإسـلامي كلـه، في أحوال الحـرب وأحـوال السلم، وهو أوضـح دليل أن المسلمين خلال التاريخ كانوا يسعون لعلاقات دبلوماسـية جيدة مع جيرانهم، ولم يكونوا يرون في الجهاد إعلان حرب على العالم، بل كانوا يرون الجهاد حرباً وقائية تفرضها الضرورة لحماية الأمة من أعدائها.

التطور الإيجابي والسلبي لعلاقة الأمة الإسلامية بالمجتمع الدولي:

وفي الإطـار الفلسفي فإن القرآن الكريم طرح عـدداً من القيم التي تحكم صلة الدولـة المسلمة بغيرها مـن الدول انطلاقاً من آيـة الحجرات: ﴿يَا أَيُّهَـا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُـمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُـعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُـوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾[٤٢].

وواضح من سـياق الآيـة الكريمة أن التعارف هو غاية هـذا التنوع الذي يقوم في العالـم، ويجب القـول إن التعارف هو أصل في العلاقـات البيضاء بين البشر في

(٤١) نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب، لأحمد بن محمد المقري التلمساني، ج١، ص ٣٤٦
(٤٢) سورة الحجرات، الآية ١٣

الأرض، حين تكون العلاقة قائمة على أساس الأسرة الإنسانية، قبل أن تتعرض لأي تطور سلبي أو إيجابي.

وأشـار القرآن الكريم في آيات كثيرة إلى إقرار الاختلاف بين الناس، واعتبار ذلك الاختلاف محموداً إذا كان في إطار التنوع والاحترام، قال تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاء اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُم﴾[٤٣].

وحين تتطور العلاقات بين البشر إيجاباً وسـلباً فـإن القرآن الكريم طرح قيماً أخـرى للعلاقات بين الأفراد والدول، ولم يقبل من المسلم أن يستمر في لغة الصفح والغفران في حين أن الآخرين يمارسـون العدوان والقتال، بل طرح خيارات واقعية متعددة تتنوع بحسب واقع الأسرة الدولية وتطور العلاقات بين الدولة الإسـلامية ونظرائها في العالم.

ففي السيـاق الإيجابي لم يكتـف بالتعارف وإنما طرح سـلسلة من العلاقات الإيجابية تبدأ بالتعارف ثم التنافس ثم التعاون ثم الإخاء ثم التراحم ثم الإيثار، وفي الجانب السلبي فإنها تبـدأ أيضاً بالتعارف ولكنها تتطور هبوطا إلى التدافع حتى تبلغ في النهاية القتال والمواجهة.

ويمكـن قراءة هـذه الحقيقة في كتـاب الله من خـلال تتبع الوصايـا القرآنية الحكيمة في هذا السبيل:

التطور الإيجابي:

- التعارف: ﴿وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا﴾[٤٤].
- التنافس: ﴿وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾[٤٥].
- التعاون: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلا تَعَاوَنُوا عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾[٤٦].

---

(٤٣) سورة المائدة، الآية ٤٨
(٤٤) سورة الحجرات، الآية ١٣
(٤٥) سورة المطففين، الآية ٢٦
(٤٦) سورة المائدة، الآية ٣

- التراحم: ﴿أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾[٤٧].
- الإيثار: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾[٤٨].
- الإخاء: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾[٤٩].

ومن الطبيعي أن كل واحدة من هذه القيم مرتبطة بالسلوك المقابل الذي يقوم به الآخر ويحدد موقعه من منظومة القيم في إطار العلاقات المتبادلة.

التطور السلبي:

وبالمقابل فإن هذه القيم تتوجه هبوطاً لمواجهة سلوكيات شائنة يبادل بها الآخر موقف الأمة من التعارف والتكامل، فتتجه القيم إذن من:

- التعارف: ﴿وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا﴾[٥٠].
- الجدال: ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾[٥١].
- المعاملة بالمثل: ﴿فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُواْ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ﴾[٥٢].
- الحذر: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ خُذُواْ حِذْرَكُمْ فَانفِرُواْ ثُبَاتٍ أَوِ انفِرُواْ جَمِيعاً﴾[٥٣].

---

(٤٧) سورة الفتح، الآية ٢٩
(٤٨) سورة الحشر، الآية ٩
(٤٩) سورة الحجرات، الآية ١٠
(٥٠) سورة الحجرات، الآية ١٣
(٥١) سورة العنكبوت، الآية ٤٦
(٥٢) سورة البقرة، الآية ١٩٤
(٥٣) سورة النساء، الآية ١٠١

- التربص: ﴿قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُتَرَبِّصِينَ﴾[٥٤].
- الاستعداد: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾[٥٥].
- التدافع: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ﴾[٥٦].
- القتال: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾[٥٧].

وهكذا فإن العلاقة الطبيعية في الإسلام تبدأ بالتعارف ثم تتوجه صعوداً أو هبوطاً بحسب سلوك المتلقي، والأمر يصدق على العلاقة بين الأفراد وعلى الواقع السياسي بين الدول.

---

(٥٤) سورة التوبة، الآية ٥٢
(٥٥) سورة الأنفال، الآية ٦٠
(٥٦) سورة الحج، الآية ٤٠
(٥٧) سورة البقرة، الآية ١٩٠

(تصور للعلاقات البيضاء بين المجتمع الإسلامي والمجتمعات الأخرى القائمة على منطق لتعارفوا) والتعارف: قيمة بيضاء ومشتركة، ومنها يبدأ تطور العلاقات سلباً أو إيجاباً، وهي أدنى سلم الإيجاب وأعلى سلم السلب.

وقد قدمت الشريعة الخاتمة سـبلاً واضحةً لبناء علاقـة متينة من قيم التفاهم والتعاون، وفي إطار العقيدة على سبيل المثال فإن العقيدة الإسلامية تقوم على ستة أركان، وهي الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر.

ولـدى الملاحظـة البصيرة نجـد أن الإيمان في الإسـلام يرتكز عـلى ركنين اثنين يتصـلان مباشرة بالعلاقـة الحسنة مع الآخر، حيث أمر الإسـلام بالإيمان بالأنبياء جميعـاً والكتب السماوية، وهذا الإيمان هو أروع مدخل لبناء ثقافة الحب والسلام بين المسلم وبين العالم، وبناء حوار إيجابي بناء يخدم الجميع.

فمن المعلوم أن الإيمان بالأنبياء يقتضي ضرورة احترام هديهم ونورهم والإيمان بالكتـب السماوية يقتضي حكماً احـترام تعاليمها وهديها، والتعامـل إيجابياً مع الموروث منها، وبناء المقاربات الإيجابية بين المسلم وبين أتباع الأنبياء جميعاً.

وقد حقق النبي الكريم صلى الله عليه وسـلم هذه المعاني الرائعة في بناء علاقة حوار إيجابي متوازن، تجلى في دسـتور المدينة الذي كتب فيه ما يضمن حقوق كل المقيمين في المدينة بغض النظر عن أديانهم وثقافاتهم وأعراقهم، كما أنه صلى الله عليه وسـلم فتح أبواب المدينة لأبناء الأديان الراغبين بالتعرف على سماحة الإسلام وقيـام علاقات إيجابية بناءة، وحين جاءه وفد نصـارى نجران كرمهم وأنزلهم في مسجده الشريف وأقاموا فيـه زمناً يأكلون ويشربون، ومع أنهم لم يعلنوا صراحة دخولهم في الإسـلام فإن النبي صلى الله عليه وسـلم اسـتمر في حوارهم وإكرامهم ودعا لهم بالهداية، وقد جاءه كثير منهم فيما بعد مسلمين.

إن ثقافة التعاون الإيجابي بين الناس تتكرر في كل سورة في القرآن الكريم وقد حققهـا رسـول الله صلى الله عليه وسـلم على أتم وجه، ولا نعلـم أن النبي الكريم قتـل أحدا لمخالفتـه في الرأي أو إصراره على كفره، وإنما قاتـل من قاتلوه وحارب من حاربوه وسالم من سالموه وآخى من آخوه، وأعطى أعظم مثل للإخاء والتراحم.

مشروعية التمثيل الدبلوماسي في الإسلام:

يتأسس التمثيل الدبلوماسي في الإسلام فقهياً على هدايات الكتاب والسنة، كما يتأسس على القواعد الكلية للفقهاء في الاستحسان والمصلحة المرسلة والعرف.

أولاً: من القرآن الكريم:

فمن الكتاب العزيز ورد النص القرآني الكريم بجواز منح العهد والأمان لغير المسلم، ولو سبق منه الحرب على الإسلام، وذلك في قوله تعالى:

﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ﴾[٥٨].

وقد نزلت هذه الآية الكريمة في يوم الفتح الأعظم، وفيها الأمر للنبي صلى الله عليه وسلم بإعطاء الأمان للمشركين إذا طلبوه، على الرغم من بقائهم على الكفر، طالما أنهم لا يحاربون المسلمين، ولعل هذا الأمان الذي نالوه يمكنهم من فهم أعمق لروح الإسلام وهدايات الشريعة.

ويجب أن نشير هنا أن هذه الآية الكريمة إنما نزلت في المشركين الذين كانوا يحاربون الإسلام ووضعوا السلاح، فالأمر مع من لم يحاربوا الإسلام أصلاً مشروع من باب أولى، وهو حال سائر السفراء اليوم من الدول التي لا تحارب المسلمين.

قال ابن كثير: والغرض أن من قدم من دار الحرب إلى دار الإسلام في أداء رسالة، أو تجارة أو طلب صلح أو مهادنة، أو حمل رسالة أو نحو ذلك من الأسباب وطلب من الإمام أو نائبه أماناً متردداً في دار الإسلام وحتى يرجع إلى داره ومأمنه فله ذلك[٥٩].

وهذا الفهم الذي ذهب إليه شيخ المفسرين ابن كثير هو التطبيق العملي لمفهوم

---

(٥٨) سورة التوبة، الآية ٦

(٥٩) تفسير القرآن العظيم، عماد الدين أبي الفداء إسماعيل ابن كثير، ج ٢ ، ص ٣٣٧

السفارة والعمل الدبلوماسي الذي تطور مع الأيام، وكما نلاحظ هنا فإن ابن كثير يتحدث عن السفير القادم من بلاد الحرب، وأنه يحق للإمام أن يعطيه عهداً وأماناً، ولا شك أن السفير القادم من بلاد العهد، ولا يمثل بلداً عدواً محارباً فهو مشمول من باب أولى.

وكذلك فإن النصوص العامة في القرآن الكريم جاءت بحرمة الدماء وتجريم الاعتداء على الناس بغير الحق، ﴿مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا﴾[٦٠].

كما دعت نصوص القرآن الكثيرة إلى الدخول في السلم وتعزيزه، والعمل على حمايته، وتشجيع الصلح بين الناس ونزع فتيل الصراعات.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾[٦١].

وقال: ﴿لا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إِلا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾[٦٢].

وكذلك فقد جاءت النصوص بتكريم الإنسان وحقه في الانتقال والسفر والعمل: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً﴾[٦٣].

وظاهر أن هذا التكريم والتفضيل لا يختص بدين دون آخر أو ملة دون أخرى بل هو تكريم لسائر بني آدم، وإنما يخرج منه المعتدون، فقد أمرنا بمحاربة المعتدين: ﴿وَقَاتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ الّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ﴾.[٦٤]

---

(٦٠) سورة المائدة، الآية ٣٢
(٦١) سورة البقرة، الآية ٢٠٦
(٦٢) سورة النساء، الآية ١١٤
(٦٣) سورة الإسراء، الآية ٧
(٦٤) سورة البقرة، الآية ٢٠٧

ثانياً: من السنة النبوية:

أرسل الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم السفراء إلى الملوك وزعماء القبائل وأوصاهم بوصاياه وهو ما سنعرض له في الفصول التالية، وقد كان له سفراء في وقت السلم وسفراء في وقت الحرب، وقد كان رسول الله صلى الله عليه يزودهم بخاتمه وكتبه ويوفر لهم حرساً وصحبة في السفر.

وقد اشتهرت أخبار سفرائه صلى الله عليه وسلم إلى الروم والفرس والحبشة وغسان واليمن وهو ما سنفرد له فصلاً خاصاً في هذه الدراسة.

كما استقبل النبي صلى الله عليه وسلم سفراء الملوك والقبائل الوافدين عليه وأكرم وفادتهم ووفر حمايتهم، فاستقبل سفير النجاشي وسفير المقوقس، وكان الوفد فيهما حميمياً ودوداً، كما استقبل خرخسره وبابويه سفيري كسرى القادمين من عند واليه على اليمن الملك باذان على الرغم من أن الرسالة التي جاءا بها كانت تنص على أن يحضرا رسول الله إلى كسرى ليقتله!!

ومع ذلك فقد استقبل رسول الله السفيرين وتلطف في إبلاغهما الرسالة والدعوة، واستمع إلى رسالتهما ولم يبطش بهما على الرغم من لؤم الرسالة التي يحملانها، وذلك إقراراً لمبدأ حصانة الرسل، وبعد أن استقبلهما أسبوعين في المدينة حملهما رسالة رد لباذان والي فارس على اليمن، ثم أعطى خرخسره منطقة فيها ذهب وفضة كان قد أهداها له بعض الملوك، فخرجا من عنده حتى قدما على باذان[٦٥].

ولعل من أوضح الأدلة على حصانة السفراء كذلك استقباله لرسولي مسيلمة الكذاب، ابن النواحة وثمامة بن أثال، حيث استمع إليهما وحاورهما على الرغم من أن رسالة مسيلمة التي يحملانها كانت في غاية الاستفزاز والبغي، حيث ادعى مسيلمة النبوة وغلب على نجد وما حولها وشق بها عصا الطاعة وكانت أخطر ردة في الإسلام[٦٦].

---

(٦٥) السيرة النبوية، لابن كثير، ج ٣، ص ٥٠١

(٦٦) مسند الامام أحمد، ج ٨، ص ٣٤٦

ومع أن الرسولين أعلنا صراحة ذلك، ولكن رسول الله لم يأذن لأحد أن يمسهما بسوء وأكد أن السفير ناقل للرسالة، ويجب أن يحظى بالأمن والحماية حتى يؤدي رسالته.

ثالثاً: الاستدلال بالقواعد الشرعية الكلية:

كما يمكن أن نستدل بالقواعد الشرعية الكلية فإرسال الرسل جائز استحساناً ولو ورد على خلاف القياس، حيث رأى بعض الفقهاء أنه معارض للنص الصريح بوجوب إخراج المشركين من جزيرة العرب، فالقياس عدم الجواز لظاهر النص، ولكن الاستحسان الجواز لما في ذلك من عموم فائدة وخير، ولأن النهي محمول على المشركين المحاربين وليس على عموم المشركين.

كما يمكن الاستدلال بالمصلحة المرسلة، فإن وجود السفراء والسفارات من أعظم حاجات الناس ومن أهم الضروريات لتأمين معاش كريم للناس في وثائق السفر وفي التواصل مع البلد الأم، وفي نشر الدعوة والرسالة عبر السفارة وغير ذلك من المقاصد المشروعة النبيلة، والأمور بمقاصدها، والعمل الدبلوماسي ليس مما ورد النص مباشرة عليه لا منعاً ولا إيجاباً، فيكون من المصالح المرسلة التي يتعين على ولي الأمر أن يحققها لمصلحة الأمة، وهذا يجعل أمر إرسال السفراء لا يتوقف عن المباح بل يتعداه إلى المستحب وربما الواجب الذي تعلقت به مصالح الأمة.

كما يمكن الاستدلال باستقرار العرف في العلاقات بين الدول، والمعروف عرفاً كالمشروط شرطاً، وفي قيام هذه السفارات فوائد عظيمة للأمة وفي إغلاق هذه السفارات مضار كثيرة وتعطيل لمصالح العباد ومنافع الناس وتفويت لهذا الثغر الجليل من ثغور الأمة.

كما يستدل بعموم قوله تعالى:﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾، فقد صارت هذه العلاقات الدولية أعرافاً ملزمة لسائر شعوب الأرض، والمسلمون أمة منهم، وقد التزم العمل بهذه الاتفاقيات من سبق من الحكام، ولا وجه لنقض ما اتفقوا

عليه، والعمل بالاستصحاب فيما لا يخالف صريح الكتاب والسنة.

كما يستدل بالعموم في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾.[٦٧]

ولا شك أن هذه الأدلة تتناول بشكل مباشر السفارات المؤقتة التي تنتهي بانتهاء المهمة التي كلف بها المبعوثون، وهو واقع سائر السفارات التي عرفت في عهد النبوة سواء من سفراء الإسلام إلى الملوك الأخرى أو من سفراء الملوك إلى دار الإسلام.

حكم التمثيل الدبلوماسي الدائم في الإسلام:

أما السفارة الدائمة بالمعنى المعروف حالياً فهو أمر محدث كما أشرنا إليه، وقد بدأ مع قيام الدولة الحديثة في القرن السابع عشر الميلادي، ولكن يمكننا القول إن النبي صلى الله عليه وسلم أرسل بعض السفراء المقيمين، ويمكن أن نشير هنا بشكل خاص إلى ثلاثة من سفرائه الكرام:

- جعفر بن أبي طالب الذي أوفد في سفارة فريدة وهامة إلى النجاشي ملك الحبشة، وقد أمر أن يقيم فيه، وعلى الرغم من دخول المدينة في الإسلام وهجرة النبي صلى الله عليه إليها فقد أمر أن يقيم بالحبشة إلى السنة السابعة حيث أتم في سفارته أربعة عشر عاماً متصلة عادت بأفضل النتائج على البلدين.
- مصعب بن عمير الذي أوفد في سفارة دائمة إلى يثرب، واستقر بها نحو عامين اثنين حتى وصل رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الهجرة.
- أبو عبيدة بن الجراح الذي أوفده رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى نجران فكان يمثل الدولة الإسلامية في نجران ويقوم بجباية الجزية من النصارى وفق العقد الذي تم الاتفاق عليه.

(٦٧) سورة الفتح، الآية ١٠

فهؤلاء الثلاثة يصدق عليهم وصف سـفراء مقيمين لأنهم كلفوا بمهام رسـمية مستمرة في بلاد غير مسلمة.

وهناك صحابة كثر كلفوا بمهام دائمة في البلاد التي اختارت الإسلام كما جرى الحال مـع اليمن والبحرين وكنـده وقبائل العرب الأخرى، فهـؤلاء يعتبرون دعاة وهداة أكثر منهم سـفراء، كما إن بعضهم كان واليـاً أو قاضياً وهذا حقل مختلف عن حقل الدبلوماسية.

وقبـل أن نتحدث عن موقف الفقهاء في حكم السفارة الدائمة ننوه أنهم قصدوا ببحثهـم مدة إقامة السفير غير المسلم في أرض الإسـلام، وليـس مدة إقامة السفير المسلـم في أرض غير المسلمين، فلم يذكروا حداً لأكثر ما يقيمه المسلم سـفيراً في دار غير المسلمين، وأناطوا ذلك بمصلحة الأمة وصحة التفويض من ولي الأمر على وجه مستقيـم، ولكنهـم ذهبوا إلى تحديـد إقامة السفير غير المسلم في بـلاد المسلمين إلى ثلاثة مذاهب في شأن السفارة الدائمة:

- الأول: لا يجـوز أن تزيـد السفـارة الطويلة عـن أربعة أشـهر وهو رأي الشافعية.
- الثاني: تمتد السفارة إلى سنة ولا يجوز فوق ذلك وهو رأي الحنفية.
- الثالـث: لا حد لمـدة السفارة، وهي تمتد طالما كانـت تحقق مصالح الأمة وحاجاتها، وهو رأي الحنابلة ووافقهم المالكية.

وقد استدل الشافعية لرأيهم بتحديد مدة السفارة الدائمة بأربعة أشهر بقياس الأمان على الهدنة، ومدة الهدنة مع الكفار لا تزيد على أربعة أشهر[٦٨] لقوله تعالى:

﴿فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ﴾[٦٩].

(٦٨) مغنـي المحتاج، الشربيني الخطيب، ج ٤ ، ص ٢٣٨، وانظر مواهب الجليل لمحمد بن عبدالرحمن الحطاب ج ٣ ، ص ٣٨٦

(٦٩) سورة التوبة، الآية ٣

ولما كانت مدة الهدنة ينبغي أن لا تزيد على أربعة أشهر، لاحتمال حدوث قوة بالمسلمين فكذلك مدة الأمان بالنسبة للمستأمنين قيدها هؤلاء الفقهاء بما لا يتجاوز الأربعة أشهر[٧٠].

ويبدو من خيار الشافعية أنهم قصدوا السفارة من الدول المحاربة للإسلام، كما يظهر من كلام فقهائهم، فلذلك قيدوا ولي الأمر بإعطاء أمان أو عهد لمثل الدولة المحاربة بأربعة أشهر كما عند الشافعية والزيدية وبسنة كما عند الحنفية.

ولا شك أن من حق الدول المسلمة أن تحتاط لأمنها في أيام الحروب، بل إن كثيراً من الدول تلجأ إلى إغلاق السفارات بين الدول المتحاربة وطرد السفراء لما يعنيه وجودهم من رمزية خطيرة، ولإمكانية أن يقوم عناصر هذه البعثة الدبلوماسية بأعمال تمس أمن الوطن وسلامته.

أما الدول التي ليس بينها وبين الإسلام حرب، وهي التي نسميها دول العهد فلا تتحقق فيها تلك المخاطر، ومن حق الدولة أن تقدر مصلحة الأمة في مدة بقاء هؤلاء السفراء، ولعل هذا هو ما قصده فقهاء الحنابلة باختيارهم تفويض الإمام بمنح ما يراه من أمان وعهد لمثلي الدول غير الإسلامية.

أما الحنفية فقد استدلوا لرأيهم بتحديد أقصى السفارة سنة بالمعقول، فقد قالوا: إن الأصل العام في الأمان أن الحربي لا يمكن من الإقامة بين المسلمين إلا بالاسترقاق أو بالجزية، وللضرورة يمكن من الإقامة اليسيرة، لما يترتب على ذلك من تعامل تجاري وغير، ويمكن الفصل بين الإقامة الدائمة وغير الدائمة بمقدار سنة، لأنها مدة تجب فيها الجزية[٧١].

وواضح من التأمل في خيار الحنفية أنهم قصدوا في عقد الأمان هذا ما يكون لأغراض خاصة كتجارة أو زراعة أو إقامة، أما الإقامة للغرض الدبلوماسي ومتابعة العلاقات بين البلدين فهي مسألة محدثة، وهي تتطلب اجتهاداً مستقلاً.

---

(٧٠) شرح منح الجليل، الشيخ محمد عليش، ج ١، ص ٧٦٦

(٧١) تبيين الحقائق شرح كنز الدقائق، عثمان بن علي الزيعلي، ج ٣ ، ص ٢٦٨، وانظر البحر الزخار لأحمد بن يحيى بن المرتضي، ج ٦ ، ص ٤٥٤

أمـا الحنابلـة والمالكية فقد ذهبـوا إلى أن تفويض الإمام (الدولـة) بمنح الأمان لمستأمنـين ليس له حـد في الشرع، وهو مما فوض فيه الإمـام المؤتمن على مصالح الرعيـة، وقالوا: «يجوز لكل سـفير أن يقيم في الدولة الإسـلامية حتى تنتهي مهام عمله دون دفع الجزية»[٧٢].

واعترض الحنابلة على دليل الشافعية بالتحديد استدلالاً بآية التوبة: ﴿فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْـهُرٍ﴾ بقولهم: إن الآية وردت في الهدنة وإن قياسهم الأمان على الهدنـة قياس مع الفارق، لأن عقد الأمان مبني على المسالمة والمسامحة، ولذلك فإنه يتوسـع في منحه لغير المسلمين حتـى إنه يتصور قبوله من الأفـراد، وهذا بخلاف الهدنة[٧٣].

وهكذا فإنه يمكن التفريع على اختيار الفقهاء الكرام بأن الأقوال الثلاثة محكومة بظروفها، والدولة تختار من هذه الأقوال بحسب حال السفير ومن يمثل، ففي حالة البلـد المحاربة فالواجب التضييق، والسماح بسفارات محددة الأجل وقد تكون أقل من أربعة أشـهر وفق خيـار الشافعية، وقد تمتد إلى عام وفـق اختيار الحنفية، في حين أن الدول المسالمة التي تشهد علاقاتنا بها اسـتقراراً ونمواً فلا بأس بأن تمنح الدولة سـفراء هذه الدولة عهـداً طويلاً بما يحقق مصلحـة البلدين، وهذا وفق ما اجتهد فيه الحنابلة والمالكية.

والأصـل في التمثيـل الدبلوماسي هـو الأعراف المتبعة من قبـل الدول والشعوب بحيث تكون هذه الأعراف متفقة مع سياسة الأمة وتوجهاتها، وهذا العرف قائم منذ زمن قديم، لذلك فالتمثيل الدبلوماسي القديم لم يكن دائماً، بل كان مؤقتاً لتعارف أهلـه عـلى ذلك، أما الآن فإن الأعـراف الدولية قائمة على بقـاء التمثيل الدبلوماسي دائماً، وغير مؤقت بسنة واحدة.

---

(٧٢) المقنع، لابن قدامة المقدسي، ج ١ ، ص ٥١٨

(٧٣) الشرح الكبير لابن قدامة المقدسي، شمس الدين أبو الفرج عبدالرحمن، ج ١٠ ، ص ٥٦٣

وفضلا عن قيـام التمثيل الدبلوماسي على الأعراف المتبعـة من قبل الدول، فهو يقوم كذلك على مبادئ وقواعد مكملة، كمبدأ المعاملة بالمثل، ويلزم هذا المبدأ الدول كافـة معاملة بعثاتها الدبلوماسـية بالمثل، وعلى ذلك ينبغي للدولة الإسـلامية، أن تعامل الممثلين الدبلوماسـيين للدول الأخـرى كما تعامل تلك الدول مبعوثي الدولة الإسـلامية، فإذا كانت تلك الدول تسمح لممثلي الدولة الإسلامية بالإقامة الدائمة من أجل أداء مهماتهم، فلا يعقل أن تعاملهم - سفراء الدول الأخرى - معاملة قد تضر بهم وبدولهم، كأن لا تسمح لهم بالإقامة فوق سنة إلا بأخذ الجزية منهم(٧٤).

ولا بد من الإشـارة هنا إلى أن هذه الخيارات الفقهية الكريمة صدرت عن الأئمة الكـرام والفقهاء من أتباعهم قبل قيام الدولة الحديثـة بالمعنى الذي نعرفه اليوم، ولا بـد أن يأخـذك العجب أن يظهر من الفقهاء هذا الخيار من الوعي والتسامح في ظروف كانت علاقات الدول تتأسس على الغلبة والقوة والحرب، ولا أشك أبداً أنهم لو شـهدوا عصر الدولة الحديثـة والاتفاقات الدولية التي تنظـم قيام الدول وبناء علاقاتها فسيكون لهم بكل تأكيد فقه متكامل في أصول العمل الدبلوماسي تأسيساً عـلى قيم الإسـلام الكبرى في التعـارف والتعاون الإنساني، وبنـاء الأسرة الإنسانية الواحدة.

وقد أشرنا إلى عدد من السفراء الذين قاموا بأدوار إيجابية كبرى في بناء علاقات دولية متوازنة مع الأمة الإسـلامية، ويعد السفير عامر بن شراحيل الشعبي سـفير عبـد الملك بن مروان إلى إمبراطور الروم جستنيان الثاني، وكذلك يحيى الغزال من أبـرز سـفراء الأمويين بالأندلس، كمـا يصنف أبو بكر محمـد الباقلاني ونصر بن الأزهر من أفضل من كلفوا بالسفارة في العصر العباسي.

(٧٤) الأمن الدبلوماسي في الإسلام، محمد إبراهيم جريبان، مجلة جامعة دمشق، مجلة العلوم الاقتصادية والقانونية، المجلد ٢٤ سنة ٢٠٠٨

تعيين السفراء واختيارهم:

لا يختلف مبدأ تعيين السفراء في الإسلام عن تعيين أي من موظفي الدولة وخبرائها، وهو يعتمد الكفاءة والأمانة، وهي العبارة التي وردت في القرآن الكريم في سياق اختيار الموظفين على لسان يوسف عليه السلام إذ قال لملك مصر: ﴿قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾[٧٥]، وعلى لسان ابنة شعيب إذ قالت عن نبي الله موسى: ﴿إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ﴾[٧٦].

ويتطلب اختيار السفراء حكمة ودراسة، أو بتعبير الفقهاء رواية ودراية، والمقصود بالرواية الإحاطة بنصوص الشريعة ووصاياها، وبالدراية فهم مقاصد هذه النصوص، وتنزيلها على الواقع.

وفي الحديث الشريف: «من استعمل على المسلمين رجلاً وهو يرى أن غيره خيراً منه فقد خان الله ورسوله»[٧٧].

وجاءت النصوص الشريفة بالتأكيد على الكفاءة والنزاهة في اختيار موظفي الدولة، بغض النظر عن أنسابهم ومواقعهم وأمجاد آبائهم، وقال صلى الله عليه وسلم: «اسمعوا وأطيعوا ولو ولي عليكم عبد حبشي كأن رأسه زبيبة».

وكان صلى الله عليه وسلم يراقب في موظفي الدولة نزاهتهم وأمانتهم واستقامتهم وكفاءتهم، وقد اشتهر حديث ابن اللتبية الذي أرسله رسول الله إلى اليمن لجباية الخراج، فعاد بهدايا شخصية كثيرة، فصعد النبي صلى الله عليه وسلم منبره الشريف وقال: ما بال العامل نَبعثه فيأتي، فيقول: هذا لك وهذا أهدي إلي، فهلاَّ جلس في بيت أبيه وأُمِّه، فيَنظر أيُهْدى له أم لا؟ والذي نفسي بيده، لا يأتي بشيء إلاَّ جاء به يوم القيامة يحمله على رقبته، إن كان بعيراً له رُغاء، أو بقرة لها خُوار، أو شاة تَيْعَر[٧٨].

---

(٧٥) سورة يوسف، الآية ٥٥

(٧٦) سورة القصص، الآية ٢٦

(٧٧) أخرجه البيهقي في سننه، ج١٠، ص ١١٨، وفي رواية: من ولي من أمر المسلمين شيئاً فولى رجلًا وهو يجد من هو أصلح للمسلمين منه فقد خان الله ورسوله

(٧٨) أخرجه البخاري ومسلم عن ابن عمر وهو عند البخاري، ج ٣، ص ٤٢٨، وعند مسلم، ج٦، ص١١

وكـان يحـدث الناس عن عظيم شـأن المسؤولية العامة في النـاس وما تحتاجه مـن ضبط وجد وحـزم، ولأجل ذلك فقد صد عن الإمارة والسفارة ناسـاً من خيرة الصحابة، فقـد أخرج الإمام مسلم بسنده عن أبي ذر الغفاري رضي الله عنه قال: «قلت يا رسول الله ألا تستعملني»، أي توليني الإمارة، فضرب بيده على منكبي ثم قال: «يا أبا ذر إني أراك ضعيفاً وأنها أمانة وإنها يوم القيامة خزيٌّ وندامة إلا من أخذها بحقها وأدى الذي عليه فيها»[٧٩].

وعن عبد الرحمن بن سمرة رضي الله عنه قال: قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم: «يا عبد الرحمن بن سمرة! لا تسأل الإمارة، فإنك إن أعطيتها عن غير مسألة أعنـت عليهـا، وإن أعطيتها عن مسألة وكلـت إليها، وإذا حلفت عـلى يمين فرأيت غيرها خيراً منها فأت الذي هو خير، وكفر عن يمينك»[٨٠].

والأحاديث في هـذا المعنى كثيرة جداً وكلها تشير إلى عظيم المسؤولية التي تلقى على من يلي أمور الأمة في إمارة أو سفارة أو وزارة أو قضاء أو جباية خراج.

لقـد كانت حكمة النبي صلى الله عليه وسـلم بليغة ورائـدة في اختيار العاملين لديه، وهذا ظاهر في اختياراته لمواهب أصحابه، ففي مثال واضح فقد أسـلم خالد بن الوليد وأبو هريرة في وقت متقارب، أما خالد بن الوليد فقد دفعه رسول الله إلى قيـادة السرايـا والكتائب وعقد له الألوية وأعطاه أعنة الخيـل، فكتب الله له الفتح المبين، وأسلم أبو هريرة فدفعه إلى الحفظ والرواية وأمره أن يلزم مجالسه ليروي ما يسمعه فيها، فروى عنه بأكثر من خمسة آلاف حديث، ولو أنه دفع أعنة الخيل لأبي هريرة وعهد لخالد بن الوليد بحفظ الروايات لضاعت الفتوح والرواية جميعها:

ووضع الندى في موضع السيف بالعلا مضر كوضع السيف في موضع الندى

وفي مثال آخر أرسل عبد الرحمن بن عوف إلى سوق التجارة فكان يقول: «والله لو رفعت حجراً لرأيت تحته ذهباً»، وأفاض الله عليه في العطاء وكانت ثروة لنفسه وللأمة، وأرسل زيد بن ثابت إلى تعلم اللغات وحفظ القرآن ولو أرسل زيداً إلى سوق

(٧٩) صحيح مسلم، ج ٦، ص ٧
(٨٠) صحيح البخاري، ج ٨، ص ١٢٧

التجارة وابن عوف إلى حفظ اللغات لضاعت اللغات والتجارة جميعاً.

إنها إذن الحكمة في الاختيار، وإنزال الناس منازلهم، ووضع الرجل المناسب في المكان المناسب، وكل ميسر لما خلق له.

وقد أفردنا في هذا الكتاب فصلاً خاصاً عن سفراء النبي الكريم والحكمة والبلاغة في اختيار كل منهم، وتجنباً للتكرار نحيل إلى ذلك الفصل.

ومن الواقعي أن نقول إنه لم ترد في الكتاب ولا في السنة شروط خاصة بالسفراء وأصول تعيينهم، ولكن تتبع هدي النبي صلى الله عليه وسلم في اختيار موظفي الدولة والعاملين على الشأن العام يكشف عن جملة من الآداب والشروط في اختيار السفراء خاصة.

ويمكن هنا أن نلتمس من هدي القرآن الكريم والسنة النبوية عدداً من الشروط فيمن يلي سفارة للأمة:

- أن يكون مواطناً متمتعاً بالحقوق الوطنية في بلاده، وأن لا يكون له ولاء لبلد آخر، لأن السفارة صفة تمثيلية للأمة، فلا يصح فيها الولاء المتعدد، وإذا كانت دولة الإسلام بلداناً متعددة كما هو الحال في زماننا فإنه لا بد أن يكون ولاؤه لبلد واحد منها، وفي هذا السياق نستأنس بقول الله تعالى: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا،الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾[٨١].
- أن يتدرج في سلك وظيفي صحيح، فلا تصح العهدة بهذه المناصب لمن لم يختبر في عمل عام، لأنها مسؤولية وأمانة، ولأنه مؤتمن على مصالح الأمة، فلا يصح المغامرة فيها، بل يحتاط بما هو أتم المعايير وأوثقها، وفي هذا السياق نستأنس بقول النبي الكريم لأبي ذر رضي الله عنه: يا أبا ذر إنك تسأل الإمارة، وإنك امرؤ ضعيف، لا تولين على اثنين ولا تحكمن في مال يتيم[٨٢].

(٨١) سورة المزمل، الآية ٢٩
(٨٢) سورة الزمر، الآية ٢٩

وفي هـذا السياق عموم قوله تعـالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُـؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَـا وَإِذَا حَكَمْتُـمْ بَيْنَ النَّـاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَـدْلِ﴾[٨٣]. فقد دلت الآية في عمومهـا على وجوب دفع الأمانات إلى أهلهـا والمنصب أمانة فلا يجوز دفعه لغير أهله، ومن أمارات اسـتحقاقه توفر المرشـح لهـذا المنصب على الكفاءة المطلوبة والخبرة الوافية.

وفي الحديـث: «كلكم راع وكلكم مسـؤول عن رعيته فالإمام الذي على الناس راع وهـو مسؤول عن رعيته والمرأة راعيـة في بيت زوجها وهي مسئولة عن رعيتهـا والولـد راع في مال أبيـه وهو مسئول عن رعيتـه والعبد راع في مال سيده وهو مسئول عن رعيته ألا فكلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته»[٨٤].

- أن يكون اختياره عن شورى، وليس المقصود هنا شورى سائر الأمة، بل أهل الحـل والعقد في هذا الشأن، بمعنى أن لا ينفرد في التعيين شـخص بمزاجه، مهمـا علت رتبته، لأن تمثيـل الأمة مصلحة عامة لسائـر المسلمين، وفي هذا السياق نستأنس بما ورد من شـورى النبي صلى الله عليه وسـلم لأصحابه فيمـا يتصل بتعيينات الأمراء والوزراء والسفراء، ومع مكانته صلى الله عليه وسـلم في النبوة والوحي فإنه كان أكثر الناس مشاورة لأصحابه، وفي سـبب نـزول سـورة الحجرات روى البخاري عن عبد الله بـن الزبير أنه قدم ركب مـن بنـي تميم على رسـول الله صلى الله عليه وسـلم فقال أبـو بكر: «أمِّر القعقـاعَ بن معبد»، وقال عمر: «بل أمِّـر الأقرعَ بن حابس»، فقال أبو بكر: «مـا أردت إلا خلافي!!» وقال عمر: «ما أردت خلافك»، فتماريا حتى ارتفعت أصواتهمـا، فنزل في ذلك قوله تعالى:﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُـولِهِ»[٨٥] وواضح من الخبر أن النبي صلى الله عليه وسلم كان على الرغـم من تأييده بالوحي يطرح على كبار الصحابـة أمر التعيينات الهامة، ويعتمد على رأيهم فيها، وواضح أيضاً أنهم كانوا يجتهدون رأيهم ويدافعون

(٨٣) رواه البيهقي في السنن، ج١٠، ص ١١٨
(٨٤) صحيح البخاري، ج ١، ص ٣٠٤
(٨٥) رواه البخاري ومسلم، لمحمد بن اسماعيل البخاري، ج ٥، ص ١٦٨

عنه، رجاء اختيار الأكثر كفاءة وصلاحاً.

- أن يكـون مشهوداً لـه بالكفاءة والخبرة، ولا بد في هـذا السبيل من تحصيل برامـج تخصصية يعد فيها السفراء للقيـام بواجباتهم على أكمل وجه، وفي هذا السياق نتذكر قول رسـول الله: «من اسـتعمل على المسلمين رجلاً وهو يرى أن غيرَه خيرٌ منه فقد خان الله ورسوله»[٨٦].

والمنصب أمانة وتسليمه لغير أهله خيانة، وقد قال الله تعالى:﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[٨٧].

وقـد ورد القـرآن الكريم شـديداً مـن يقوم بمنـع أصحاب الكفـاءات من تسلـم حقوقهم ومنهـا حقهم في تولي المناصب التـي يستحقون، قال تعالى: ﴿تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ﴾، وسمى هذا اللون من البخس إفساداً في الأرض فقال مستأنفاً: ﴿وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾.

- أن يكـون حسن السمت والاسـم والوجـه والهيئة، وهنا نستأنـس بما ورد عـن الخليفة الراشـدي عمر بـن الخطاب رضي الله عنـه حيث حدد شروط الدبلوماسي في النقاط التالية[٨٨]:
  - أن يكون اسمه جميلاً. فالأشياء تؤخذ من عناوينها.
  - أن يكون شكله وسيما جميلاً.
  - أن تكون لغته سليمة.

وقـد ورد في هذا المعنـى من حديث الحضرمي بن لاحـق أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «إذا أبردتم بريداً، فأبردوه حسن الوجه، حسن الاسم»[٨٩].

- أن يكـون عارفـاً بثقافة البلاد التي يسافر إليها، ولا يجوز إرسـال مبتعثين

---

(٨٦) أخرجه البيهقي في سـننه، ج ١٠، ص ١١٨، وفي رواية: من ولي من أمر المسلمين شـيئاً فولى رجلًا وهو يجد من هو أصلح للمسلمين منه فقد خان الله ورسوله

(٨٧) سورة الأنفال، الآية ٢٧

(٨٨) الدبلوماسية، للدكتور بو عباه، ص ٣١

(٨٩) أورده ابن حجر العسقلاني في المطالب العالية، وفي سنده مقال، ج ٣، ص ٨

دون أن تكـون لهـم معرفـة كافية بالبلاد التي سـيخدمون فيهـا، وفي هذا السياق نستأنس بقول رسـول الله لزيد بن ثابت: «تأتيني كتب بالسريانية فأحـب أن أعرف ما فيها فتتبـع لي السريانية فتعلمها، فقـال زيد فتتبعتها فأتقنتها في سبعة عشر يوماً»[٩٠].

وفي هذا السياق يتعين على المعاهد الدبلوماسـية المتخصصة توفير مزيد من دورات الإعداد للبعثات الدبلوماسية لتأهيلها بثقافة البلاد التي تبتعث إليها، فهي أمانة، ومعرفة المبتعث بآداب الأمم وثقافاتها وقوانينها أدعى لتحصيل نجـاح حقيقي لخدمة الأمة، وذهاب مـن لا يعرف ثقافات البلدان وتاريخها وعاداتها سيؤدي إلى ضياع مصالح الأمة، وقد قال النبي الكريم: «إذا ضيعت الأمانة فانتظر الساعة قيل يا رسول الله: وما إضاعتها؟ قال: «إذا وسد الأمر إلى غيره أهله فانتظر الساعة»[٩١].

- أن يكـونَ مـن المعروفين بالصـلاح والاسـتقامة، لأن السفير صـورة الأمة، وسـلوكه ليس شـأناً خاصاً يختار فيه ما يشاء إنه يمثل أمته ومن حق الأمة أن تخضعـه لحمـلات مراقبـة ومتابعة تتناسـب مع حجـم المسؤولية التي ستلقى عليه.

وفي الحديث قال صلى الله عليه وسـلم في التحذير من تولي المناصب على غير كفاءة: «إنها أمانة وإنها يوم القيامة خزي وندامة إلا من أخذها بحقها وأدى الذي عليه فيها»[٩٢].

وفي القرآن الكريم لم يذكر المنصب إلا ذكرت معه الكفاءة والأمانة، قال تعالى على لسان نبي الله يوسف: ﴿اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾، وقـال له ملك مصر لما التقاه: ﴿إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾[٩٣]، وقالت ابنة شعيب حين رغبت بموسى: ﴿خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ﴾، وعلى سبيل

(٩٠) مسند أحمد بن حنبل، تحقيق الأرناؤوط، ج١، ص٢١٥
(٩١) صحيح البخاري، ج١، ص٢٢
(٩٢) صحيح مسلم، ج ٣، ص ١٤٥٧
(٩٣) سورة يوسف، الآية ٥٤

الاســتئناس، فقد أشارت الآية إلى صفة جبريل وهو السفير بين الله وأنبيائه: ﴿لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ، ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ، مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ﴾[٩٤].

ومــن الواضــح أن تكرر صفــة الأمانة في ســائر هذه النصــوص تأكيد على أنهــا شرط في كل ولاية، وقد اعتبر النبي صلى الله عليه وســلم تولية الخائن وتخوين الأمين من شروط الساعة التي تسبق خراب الدنيا وأهلها، وفي الواقع فإن انتشارالفساد في أمة من الأمم هو اقتراب ساعتها وهلاك أهلها وسقوط حضارتها وأفول نجمها.

وأجــد من الضروري هنا أن أتحدث عن مسألة القدوة فهي من المسائل الدقيقة التي تختلف فيها الرؤية بين الإسلام والحضارة الغربية، وتناضل مؤسسات الحرية في الغرب من أجل الاعتراف بحق الناس في حياة خاصة لا ســلطان لأحد عليها، وأن المرء لا يطالب بالتزام القدوة، بل عليه أن يؤدي وظائفه بانضباط، ولا شــأن لأحد بعــد ذلك بسلوكه الشخصي، وعادة ما يتم الفصــل بين أدائه في العمل وبين الحياة الشخصية التي يرغبها مهما كانت مسرفة في المجون أو الإنحلال.

ولكــن القيم الإســلامية لا تقبل هذا المبــدأ، فالقرآن يطالب المرء بالتزام ســلوك القدوة، ظاهراً وباطناً، ولا تقبل الشريعة الإسلامية في المسؤول الحكومي أو الموظف أن يــؤدي واجبه ثــم ينصرف إلى ملذاته بشكل يسيء إلى مكانه في القدوة، ولا تعتبر تبريــر ذلك بالشأن الخاص أو بالحياة الخاصة للمسؤول مبرراً كافياً أومقنعاً، وفي هــذا السياق جــاءت النصوص القرآنية الكثيرة: ﴿يَــا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُــوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ، كَبُرَمَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لا تَفْعَلُونَ﴾[٩٥].

إن فــرض رقابــة صارمة عــلى حياة السفــراء وتنظيــم المتابعة والمحاســبة في ســلوكهم الشخصي هو أمر ضروري لا يمكن تجاوزه، وبشكل خاص السفير الذي

(٩٤) سورة التكوير، الآية ٢١
(٩٥) سورة الصف، الآية ٣

يمثل صورة بلاده ووطنه وقيادته في ضمير الأمم، ومن المؤسف أن الدول المتخلفة تفرض هذه الرقابة بصرامة على ما يتصل بولاء السفير للمسؤولين الذين أرسلوه، ومتابعة ما قد يعود به من ربح عليهم، ولكنها لا تعطي أي اهتمام لسلوك السفير الشخصي الذي قد ينغمس في الملذات والمفاسد بشكل يسيء أبلغ الإساءة إلى صورة بلاده.

وتجب الإشارة هنا ما اشتهر في الفقه الإسلامي من تفضيل الفاجر الخبير على الأمين الضعيف، هو أمر لا مساق له هنا وربما كان المقصود في ساعة القتال والحرب، وهو ما اختاره ابن تيمية من تولية الرجل الفاجر على الحرب إذا كان من أهل الخبرة وتقديمه على أهل الصلاح ممن ليس لديهم تلك الخبرة أمر مختلف عن الباب الذي نحن بصدده.

ونص كلام ابن تيمية رحمه الله: كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول: «اللهم أشكوا إليك جلد الفاجر وعجز الثقة، فالواجب في كل ولاية الأصلح بحسبها فإذا تعين رجلان أحدهما أعظم أمانة والآخر أعظم قوة قدم أنفعهما لتلك الولاية: وأقلهما ضررا فيها فتقدم في إمارة الحروب الرجل القوي الشجاع وإن كان فيه فجور على الرجل الضعيف العاجز وإن كان أميناً»، كما سئل الإمام أحمد: عن الرجلين يكونان أميرين في الغزو وأحدهما قوي فاجر والآخر صالح ضعيف مع أيهما يغزى؟ فقال: أما الفاجر القوي فقوته للمسلمين وفجوره على نفسه وأما الصالح الضعيف فصلاحه لنفسه وضعفه على المسلمين فيغزو مع القوي الفاجر وقد قال النبي صلى الله عليه و سلم: «إن الله يؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر»[٩٦].

فهذه جملة من الشروط التي لا بد منها لتتحقق قدرة السفير الناجح على تولي هذه الأمانة، ومن نافلة القول أن أشير هنا إلى أن هذه الشروط ليست محل إجماع أو اتفاق، وإنما هي قراءة في الشروط العامة لمن يلي شيئاً من أمر هذه الأمة.

(٩٦) السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية، لابن تيمية، ص ٩

مشاركة المرأة في الحياة الدبلوماسية:

لقـد قصدت إلى إفراد هذا العنوان بشكل خاص لتأكيد حقيقة المشاركة الفعالة التي يمكن أن تؤديها المرأة في الحياة الدبلوماسـية ولتوضيح بعض الحقائق حول مشاركة المرأة المسلمة في الحياة الدبلوماسية خلال التاريخ الإسلامي.

إن مشاركة المرأة في العمل الدبلوماسي خلال التاريخ الإسـلامي لا تبدو واضحة لدى أول وهلة، ولكن التأمل في سيرة المرأة في عصر الرسالة يجعلك تدرك أن الإسلام دفـع بالمرأة إلى العمـل العام وأطلقها من قيـود الجاهلية وأعلـن حقها الكامل في العمل والعطاء، وقد مارست خلال التاريخ هذا الحق بكفاءة واقتدار.

ويمكن أن نلتمس مشاركة المرأة المسلمة في الحياة العامة في الأيام الأولى للدعوة والرسالة، فقد كان أول قلب اطمأن بالإسلام قلب خديجة بنت خويلد وقد شاركت هذه السيدة الطاهرة خلال تاريخ الرسـالة بدور دبلوماسي بالغ الأهمية، فقد كان رسـول الله يشكـو إليها أول الأمر ما يجـده من أمر الوحي، وكـان يعود إلى داره يرتجـف من الخوف وهو يقول زملونـي دثروني، وقد أكرمه الله تعالى بهذه المرأة الكريمة التي وقفت إلى جانبه بوعي ومسؤولية، وأعلنت موقفها من بداية الرسـالة بقولهـا: كلا والله لا يخزيـك الله أبداً إنك لتحمل الـكل وتنصر المظلوم وتعين على نوائب الدهر.

وخلال فترة المراجعات وفتور الوحي مضت خديجة إلى ورقة بن نوفل وهو عالم بالكتب الأولى وذكرت له ما لقيه النبي الكريم، ومع أن القصة معروفة فيما كان بين النبـي الكريم وبين ورقة ولكن ما نحتاج للتذكير به هنا أن النبي الكريم كان يكن أعظـم الاحترام لعقل السيدة خديجة ووعيها ورأيها، وكان حواره مع ورقة يعكس ذلك بجلاء، وقد مضت خديجة بعد ذلك إلى المشاركة في الرسالة وكانت تقوم بشراء العبيد والموالي الذي تتوسم فيهم القدرة على مناصرة النبي الكريم في رسالته.

وحين فرضت عليه قريش حصارها الخانق في شـعب أبي طالب كانت خديجة إلى جانبه، واستمرت في رسالتها الواضحة في نصرة النبي الكريم.

وهنــاك دور هــام لخديجــة في فك الحصــار عن النبــي وأصحابــه، وذلك عبر التفاوض لفك الحصار، أو بعبارة أدق في تحسين شروط التفاوض مع قريش وذلك عن طريق إقناع الرأي العام بالوجه الوحشي للحصار الظالم الذي مارسته السلطة في قريش ضد النبي الكريم.

كــان الرأي العام في مكة ضد رســالة النبي الكريم على أســاس أنه يهدد مكانة مكة الدينية كمركز للآلهة ومصدر للرزق لزعماء قريش، وبعد حملة من الاتهامات الظالمــة عمدت قريش إلى كتابــة وثيقة ظالمة بالاتفاق بين زعماء قريش تحرم فيها أي اتصال مع رســول اللــه وأصحابه، وتمنع تزويدهم بالطعــام والشراب، وتمنع التزاوج منهم أو الأصهار إليهم.

كان ذلك الحصار قاســياً للغاية، وكانت له أســبابه الدبلوماســية التي مارسها كفار قريش بدهاء ومكر، عبر قوافل من المبعوثين الذين أرسلتهم إلى القبائل العربية تشرح فيها أســباب حربها على الإسلام، ورغم مرور عامين اثنين فإن الحصار كان يشتد على الرسول الكريم، ولم تقبل قريش أي تفاوض بشأن هذا الحصار أقل من تخلي الرسول عن الرسالة.

لقد قادت خديجة حملة دبلوماســية حكيمــة ودقيقة لإنهاء هذا الحصار، وذلك عــبر عمها حكيم بن حزام الــذي كان ينفق من مال خديجــة، ويمرر للمحاصرين أحمال الإبل من الزاد، وتعمد أن يفعل ذلك بمحضر من ســفهاء قريش الأمر الذي أثــار أبا جهل حتى هــم بضربه، وتفاعل الأمــر وتهامس النــاس أن قريشاً فقدت صوابها حتى تحصر أبناءها في الشعب بدون زاد ولا طعام حتى أوشكوا على الموت.

وبعد نضج هذه المحــاولات كانت خديجة تقوم باتصال بالغ الأهمية مع زعماء قريــش مــن أهل الشهامة والنخــوة والحمية عبر عمها حكيم بن حزام واســتجاب له عدد منهم وهم زمعة بن الأســود وهشــام بن عمرو وزهير بن أبي أمية والمطعم بن عدي وأبو البختري بــن هشام، وبعد حوار طويل، قام هؤلاء بتمزيق الصحيفة الظالمة ونجح الدور الدبلوماسي لخديجة وعمها حكيم في رفع الحصار الذي استمر سنتين وأربعة أشهر في شعب أبي طالب.

بعـد خمسة وثلاثين يوماً اشـتد المرض بالسيدة خديجـة وماتت، بعد الخروج مـن الحصار وقد كـان لفراقها أثر مؤلم على النبي الكريم، الذي حزن عليها أشـد الحزن وسـمى العام كله عام الحزن، وكان لا يترك ذكر شـمائلها وعقلها ونبلها في كل مجالسه.

وفي استطراد ذي دلالة فإن النبي الكريم لم ينس لها جهادها وبعد عشر سنوات مـن وفاتها لـم ينس لها ذلـك العطاء الكبير وحـين أكرمه الله بفتـح مكة وناداه أشرافهـا إلى بيوتهم ودورهم ومجالسهم الوثـير ليقيم فيها ولكنه اختار أن يمضي بناقته إلى مقبرة الحجون وهناك عند حجارة سود أمر أن تنصب خيمة انتصاره... لقـد أراد أن يقول إن هذه المرأة كانـت شريكة كفاحي وهي اليوم شريكة نجاحي، إنها شريكة الصبر وهي اليوم شريكة النصر.

ومن السيرة النبوية يمكن أن نتذكر دوماً السيدة الفاضلة أسـماء بنت يزيد بن السكـن التي جاءت إلى النبـي الكريم في وفد من نساء قومها ووقفت بجلاء وقالت: يا رسول الله أنا وافدة النساء إليك.

عن أسـماء بنت يزيد الأنصارية من بني عبد الأشـهل: أنها أتت النبي صلى الله عليه وسلم وهو بين أصحابه فقالت بأبي أنت وأمي يا رسول الله أنا وافدة النساء إليـك، ومـا من امرأة كانت فى شرق ولا غرب سـمعت بمخرجي هذا أو لم تسمع إلا وهـي على مثل رأيي، أن الله بعثك إلى الرجـال والنساء كافة فأمنا بك وبإلهك فإذا معشر النساء محصورات قواعد بيوتكم ومفضى شهواتكم وحاملات أولادكم وإنكم معـاشر الرجال فضلتم علينا بالجمع والجماعات وعيادة المرضى وشـهود الجنائز والحج بعد الحج وأفضل من ذلك الجهاد فى سـبيل الله وإن الرجل منكم إذا خرج حاجـاً ومعتمراً أو مرابطاً حفظنا لكـم أموالكم وغزلنا أثوابكم وربينا لكم أولادكم أفما نشارككم فى هذا الخير يا رسـول الله؟ فالتفـت النبي إلى أصحابه بوجهه كله ثم قال: «هل سمعتم مقالة امرأة قط أحسن من مسائلتها عن أمر دينها من هذه؟» قالوا: «يا رسول الله ما ظننا أن امرأة تهتدي إلى مثل هذا».

لقد كانت أسماء بنت يزيد بن السكن وافدة النساء، وتحدثت بدبلوماسية عالية،

وأكـدت على صفتهـا التمثيلية لمن وراءها من النساء، بـل أعلنت تمثيلها الافتراضي لـكل من يتبنى هذا الموقف من النسـاء، وكان خطابها الشهير بحضرة الرجال وفي حرم المسجد وبمسمع من الصحابة، وقد أثار إعجاب الجميع واحترامهم.

ومن الواضح أن النبي الكريم قد أعجب بشجاعة المرأة وحسها المسؤول وشارك أصحابه في إعجابه ذاك وقالوا ما ظننا أن امرأة تهتدي إلى هذا.

وكانت رسـالة النبي الكريم واضحة ومؤثرة حين أعلن بوضوح أن رسالة المرأة لا ينبغي أن تنصرف إلى الحروب والمشاركات العسكرية، وإنما خلق الله لها فضاء من صناعة الجمال والإبداع فيه ومنح الحياة رونقها الأبيض.

ولكـن اعتراضه على مشاركـة المرأة في الحروب والتأكيد عـلى الجانب العاطفي الذي أقامها الله مسؤولة عنه، لا يعني أنها لا تشارك في عمل يليق بمكانتها كامرأة، وقد كانت مشاركة المرأة في الحياة العامة في عصر الرسالة واضحة جلية.

وفي جوابه لها أشـار باحترام إلى صفتها التمثيلية للنساء، كما أشار باحترام إلى الـدور الإنسانـي النبيل الذي تقـوم به المرأة في نشر الجمـال والحب والخير وقال: «انصرفي أيتها المرأة، وأعلمي من خلفك من النساء، إن حسن تبعل إحداكن لزوجها تعدل ذلك كله»، قال: «فأدبرت المرأة وهي تهلل وتكبر استبشارا».

وفي الحديث أن أم عمارة الأنصارية جاءت إلى المسجد، فقالت: «يا رسول الله ما أرى كل شيء إلا للرجال، وما أرى النساء يذكرن بشيء»، فنزلت الآية الكريمة:﴿إِنَّ الْمُسْلِمِـينَ وَالْمُسْلِمَـاتِ وَالْمُؤْمِنِـينَ وَالْمُؤْمِنَـاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَـاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَـاتِ وَالصَّابِرِيـنَ وَالصَّابِـرَاتِ وَالْخَاشِـعِينَ وَالْخَاشِـعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِـينَ وَالْمُتَصَدِّقَـاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيراً وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾[٩٧].

ومن المعلوم أن النبي الكريم كان إذا خرج في غزو أقرع بين نسائه، فمن خرجت قرعتهـا صحبتـه في غزواته، ولا شـك أن خروج المـرأة في الغزو لم يكـن لوناً من

(٩٧) الجامع لأحكام القرآن، للإمام محمد بن أحمد القرطبي، حـ١٤، تفسير سورة الأحزاب

السياحة، فالخروج كان في الغالب إلى حرب، وثمة مسؤوليات تنهض بها النساء في النشاط العسكري إلى جوار الرجال.

عن أم عطية الأنصارية قالت: غزوت مع رسول الله سبع غزوات أخلفهم في رحالهم فأصنع لهم الطعام وأداوي لهم الجرحى وأقوم على المرضى[٩٨].

عن أنس بن مالك قال: «لما كان يوم أحد انهزم الناس عن النبي، قال: ولقد رأيت عائشة بنت أبي بكر وأم سليم، وإنهما لمشمرتان، أرى خدم سوقهما تنقزان ـ وفي رواية ـ تنقلان القرب على متونهما، ثم تفرغانه في أفواه القوم، ثم ترجعان فتملآنها ثم تجيئان فتفرغانها في أفواه القوم»[٩٩].

وعن الربيع بنت معوذ قالت: «كنا مع النبي نسقي ونداوي الجرحى، ونرد القتلى إلى المدينة»[١٠٠].

وقد عنون الإمام البخاري لهذا الحديث: باب غزو النساء وقتالهن مع الرجال، وهو جلي في أن خيار المحدثين الذين يعتبر البخاري عمدتهم كان مؤيداً لمشاركة المرأة في المسؤوليات العامة وعلى رأسها الجهاد.

ولعل أوضح الأمثلة على مشاركة المرأة في الحياة السياسية والدبلوماسية ما نقرؤه في أهم شخصية نسائية في التاريخ الإسلامي وهي عائشة زوجة الرسول الكريم التي شاركت بقوة في صناعة القرار السياسي بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكان لها في كل حدث عام رأي وموقف، وعندما تطورت الأمور وقتل عثمان بن عفان خرجت تطالب بدمه في الناس واشتهرت الخطب البليغة المؤثرة التي كانت تشرح فيها للناس وجوب الخروج انتصاراً لدم الخليفة المقتول، وكان لفصاحتها وقوة تعبيرها أبلغ الأثر في إقناع الناس بصواب موقفها، حتى قال سعيد بن المسيب ما رأيت الكلام في فم أحد أفخم منه ولا أفصح منه في فم عائشة.

---

(٩٨) أخرجه مسلم في كتاب الجهاد والسير، باب غزو النساء مع الرجال، ج٥، ص ١٩٩

(٩٩) أخرجه البخاري عن أنس، كتاب الجهاد والسير، ج ٤ ص ٣٣

(١٠٠) أخرجه البخاري عن الربيع بنت معوذ، كتاب الجهاد والسيرة، باب غزو النساء وقتالهن مع الرجال، ج ٤، ص ٣٤

وبغــض النظر عن صواب خروجها والآثار التي ترتبت عليه، فإن ما لا شــك فيه أنها كانت بصيرة عارفة بالشرع ولكنها رأت واجبها الرسالي يفرض عليها قيادة عمل دبلوماسي وســياسي كبير تطور فيما بعد إلى عمل عسكري، وكان يهدف بوضوح إلى تحقيق مسؤولية المجتمع في وجوب تطبيق العدالة على قتلة عثمان ومطاردتهم وهو ما قامت به بوضوح وشجاعة، وأصبح موقفها مُلهِما لتوجه المرأة عبر التاريخ الإسلامي.

واشتهرت السيدة أم كلثوم بنت علي بن أبي طالب، وهي زوجة عمر بن الخطاب بدور هام في الدبلوماسية بين العرب والروم.

وذلــك أن عمــر بن الخطاب لــم يكن راغباً أن يتوســع بالفتح بعــد فتح الشام والعــراق، وكــان يرى أن هذا الفتح كاف لاســتقرار دولة الإســلام وكان يقول عن فــارس وددت لو أن بيننا وبين فارس جبلاً من نار لا يصلون إلينا ولا نصل إليهم، وكذلــك فإنه نهى معاويــة أن يركب البحر غازياً للروم، وحــين تسامع ملك الروم بذلك ترك الغزو وكاتب عمر بن الخطاب وقاربه، ووصلت رسله إلى المدينة المنورة.

واشــتهر في هذه السفارات الدبلوماســية دور أم كلثوم زوجة عمر بن الخطاب، وذكــر ابــن الأثير في الكامــل في التاريخ أن أم كلثوم بنت علي بــن أبي طالب زوجة عمر بن الخطاب أرســلت إلى امرأة ملك الروم بِطيب وشيء يصلح للنساء مع البريد فأبلغه إليها، فأهدت امرأة الملك إليها هدايا منها عقد فاخر.

ويبــدو أن هذه المراســلات قد فعلت فعلها في العلاقات بــين البلدين، وتعاظمت الهدايا بين أم كلثوم وامرأة ملك الروم قسطنطين الثاني.

فلمــا رجع البريد أخذ عمر ما معها ونادى الصــلاةُ جامعة فاجتمعوا، وأعلمهم الخبر، فقال قائلون: «هو لها بالذي كان لها، وليست امرأة الملك بذمة فتصانعك به، ولا تحت يدك فتتقيــك»، وقال آخرون: «قد كنا نهدي لنستثيب»، فقال عمر: «لكن الرســول رســول المسلمين والبريدُ بريدهم»، والمسلمون عظموها في صدرها، فأمر بردها إلى بيت المال، وأعطاها بقدر نفقتها[١٠١].

(١٠١) الكامل في التاريخ، لابن الأثير الجزري، ج ١٣، ص ١٩

وهكذا فإن مشاركة المرأة في الحياة العامة والدبلوماسية بدأت منذ عصر النبوة واستمرت بعد ذلك خلال التاريخ، وسجلت مشاركات كبيرة للمرأة أيام العباسيين والأيوبيين والمماليك، ولكن دورهن انحسر أيام العثمانيين.

وفي السيرة النبوية فقرات هامة من ممارسة المرأة للعمل الدبلوماسي والنشاط السياسي وقد أقر النبي صلى الله عليه وسلم بعض هذه النشاطات ورد بعضها، ومن ذلك قيام المرأة بمنح الجوار لعدد من المطلوبين للدولة.

في غزوة بدر أجارت السيدة زينب بنت الرسول الكريم أبا العاص بن الربيع، وأعلنت هذا الجوار وهو موقف دبلوماسي هام، وقد أقر النبي الكريم جوار زينب، وأطلق سراح الأسير واشترط عليه أن يأذن لزينب بالهجرة إلى المدينة ووفى أبو العاص بما اشترط عليه.

ومن الصحابيات اللاتي مارسن دوراً دبلوماسياً مهماً السيدة أم هانئ بنت أبي طالب فقد كانت واحدة من أكثر نساء العرب ذكاء وجمالاً، وفي يوم فتح مكة قامت أم هانئ بدور هام في تأمين جوار اثنين من زعماء قريش الذي كان يطاردهم فتيان الصحابة نظراً لما سلف منهما من عدوان على الإسلام، ومع أن علي بن أبي طالب كان يتولى أمر مطاردة الرجلين ولكن أم هانئ أعلنت موقفها في منحهما الجوار، وفتحت دارها للرجلين تؤويهما من غضب شباب الصحابة، وسرعان ماحضر علي بن أبي طالب مع مجموعة من شباب قريش الذي ذاقوا مظالم قريش، ولكن أم هانئ وقفت في وجه المجموعة الغاضبة وقالت: «والله لا تقتلهما حتى تبدأ بي»، ثم أغلقت الباب حتى أتت النبي الكريم وذكرت له جوارها للرجلين وإيوائهما في دارها فقال النبي الكريم: «قد أجرنا من أجرت يا أم هانئ».

وعن عائشة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «ذمة المسلمين واحدة فإن أجارت عليهم جارية فلا تخفروها، فإن لكل غادر لواء يوم القيامة»[١٠٢].

وهكذا فإن قيام المرأة يمنح الجوار السياسي للمطلوبين للعدالة يعكس المجال الكبير الذي تمتعت به المرأة في الحياة الدبلوماسية والعامة.

---

(١٠٢) اتحاف الخيرة المهرة بزوائد المسانيد العشرة للحافظ البوصيري، ج ٥، ص ١٩١

وقــد قام بهذا الــدور الدبلوماسي الهام في جوار الفاريــن من المشركين عدد من الصحابيات أبرزهن:

- أم حكيم بنت الحارث أجارت زوجها عكرمة بن أبي جهل.
- زينب بنت رسول الله أجارت زوجها أبا العاص بن الربيع.
- أم هانــئ بنت أبــي طالب أجارت من قومها عبد الله بن أبي ربيعة والحارث بن هشام وزهير بن أبي أمية وجعدة بن هبيرة وأخاها عقيل بن أبي طالب.
- أم غيلان الدوسية أجارت ضرار بن الخطاب.

ونكتفــي بهذا القدر الذي أوردناه وندع لكتب الفقه التفصيل في ذلك، وبحسبنا أن نشير هنا إلى أن المراة في التاريخ الإسلامي لم تمنع من ممارسة العمل العام، بل شاركت فيه حيث تسنى لها وفق ضوابط الشريعة في الاستقامة والعفاف.

واليوم في الحياة السياســية المعاصرة انطلقت المرأة المسلمة من جديد وشاركت في الحياة العامة، ووصلت المرأة في البلاد الإســلامية إلى رئاسة الوزراء مراراً كما في ميغاواتي ســوكارنو في إندونيسيا أكبر بلد إسلامي، وفي بنغلاديش الشيخة حسينة واجــد، والشيخة خالدة ضياء، وفي باكستان بنازير بوتــو، وباكستان وبنغلاديش هما ثمرة النضال الإســلامي في القارة الهندية، وتانسو تشيلر في تركيا، وهذه دول إســلامية، تحتكم إلى الشريعة الإســلامية في معظم قوانينهــا ونظمها، ويسهر على مراقبة ذلك مجامع فقهية تضم علماء دين كبار في هذه البلاد حيث يزيد ســكانها عن ستمائة مليون نسمة، نحو ٩٥٪ منهم من المسلمين.

وإن مــا أرجــو أن يتأكد من خلال هذه الأمثلة هــو أن مايروج له بعض خصوم الرسالة من اضطهاد المرأة في المجتمعات الإسلامية ليس واقعياً، وإن المرأة المضطهدة التي يتحدثون عنها موجودة في إطار ضيق، نتيجة تراكم جملة من الأعراف والتقاليد، ربما كان لها مؤيد في الفقه الإسلامي، ولكنه بعيد عن روح الإسلام.

إننا بالطبع لا نسعى إلى حمل المرأة على خوض السياســة والدبلوماسية تقحما، لمحض التعبير عن حقها في ذلك، إذ المجالات الطبيعية للمرأة إنما هي تلك النشاطات

التي لا تفقد فيها أنوثتها وهي كثيرة وكافية، وهذا المنطق هو ما تدل له الإحصاءات الاجتماعيــة في العالــم، فمــع أن أكثر مــن (١٧٥) دولة في العالم تمنــح المرأة حق التصويت والترشــيح من أصل (١٩٢) دولة، فإن الــدول الكبيرة التي وصلت فيها المرأة إلى سدة الرئاسة الأولى والثانية خلال العشرين سنة الأخيرة لا تزيد عن (٢٠) دولة، منها (٥) دول إسلامية.

ولا تــزال مشاركة المــرأة في الوزارات والبرلمانات رمزيــة ومحدودة، وليس ذلك بالــضرورة نتيجة التأثــير الديني، فهذا هو الحال حتى في الــدول العلمانية، بل في الدول المعادية للدين، وذلك نتيجة واقعية لطبيعة المرأة وحاجاتها الفطرية.

وهكذا فإن تجلية هذه المسائل أمر ضروري لبيان أمرين اثنين:

أ - إن ما تقوم به بعض البلاد الإســلامية بتأثير من التيارات المتشددة فيها من صد المرأة عن المشاركة في الحياة العامة، والحول بينها وبين فرص المشاركة والتفوق هو خيار واحد من خيارات أخرى في التاريخ الإسلامي، وهو مردود ببيانــات القرآن والسنة التي قدمناها، وهو معارض لما قامت المرأة بإنجازه في عصر المجد الإسلامي، كما بيناه في كفاح عائشة أم المؤمنين.

ب- إن المنطــق العدائي الذي يمارســه خصوم الإســلام لجهــة اتهامه بتحييد المرأة عن الحياة هو منهج انتقائي يتخير أسوأ ما في تجارب التاريخ والواقع الإســلامي، ويغض الطرف عامداً عن الجوانب المتألقة لما تحقق من مشاركة حقيقية للمرأة ســواء في عصر المجد الإســلامي، أو في المجتمعات الإســلامية المتنورة المعاصرة.

وفي تصريح جلي حول حق المرأة في المشاركة السياسية فإن الإمام المجتهد شيخ المفسريــن الطبري أجاز للمرأة أن تلي الإمــارة والقضاء، وهو رواية عن الإمام مالك وأبي حنيفة في غير الحدود[١٠٣].

(١٠٣) انظــر تحفة الأحوذي، شرح الترمذي لمحمد بن عبد الرحمن المباركفوري، شرح الحديث ٢٣٠٣ وانظــر كذلك المغني، لابن قدامة، كتاب القضاء، وفيــه أن ابن جرير أجاز للمرأة أن تكون قاضية إذ يجوز أن تكون مفتية

مسائل تحول بين المرأة والعمل الدبلوماسي:

نناقش في هذا الفصل ثلاث مسائل فقهية، تبدو أكثر المسائل حساسية ودقة في مسالة مشاركة المرأة في الحياة الدبلوماسية، وهي:

- سفر المرأة.
- مصافحة المرأة.
- النقاب.

وسنشير إلى هذه المسائل على سبيل الاطلاع، دون أن ندخل في التفاصيل الفقهية لها، فهذا مكانه كتب الفقه الإسلامي المتخصصة، وسنعتمد في مناقشتنا لهذه المسائل الدقيقة على بسط الأدلة دون ترجيح، تاركين للقارئ الكريم ولمراجع الفتوى الكرام التقدم بالاختيار والترجيح، وبحسبنا أن نقول إن لهذه الإشكالات أجوبة شرعية متينة سبق إليها عدد من الأئمة الكرام.

ولا بد من التذكير كذلك أن الفقه الإسلامي غني وثري، ومرن ومستوعب، وهو ديوان العقل الإسلامي في فترة صعود حضاري، ولا زال الله تعالى يكرم هذه الأمة بالمفكرين والفقهاء في كل جيل الذين يرفع الله بهم الغمة ويرفع الحرج، وفق ما قال الله تعالى في القرآن الكريم: ﴿مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ﴾[١٠٤]، وكذلك قوله تعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾([١٠٥]).

سفر المرأة:

لعل أكثر ما يحول بين المرأة والعمل في الحقل الدبلوماسي هو الفتوى المشهورة من تحريم سفر المرأة بغير محرم، ولا شك أن مقتضى ذلك منع النساء من العمل الدبلوماسي الذي يتطلب السفر باستمرار، وقد لا يتوفر المحرم في كثير من هذه الأسفار.

(١٠٤) سورة المائدة، الآية ٦
(١٠٥) سورة البقرة، الآية ١٨٦

والواقع أن اجتهادات الفقهاء في الإسلام فيما يتصل بسفر المرأة بدون محرم لم تلزم رأياً واحداً، وقد ذهب كثير من الفقهاء أن هذا المنع معلل بحالة فقد الأمن والخوف من الهلاك والانفراد والخلوة، وأن هذه المسألة من باب أن ما ثبت لعلة زال بزوالها، وأن الحكم يدور مع علته وجوداً وعدماً.

والأصل في منع المرأة من السفر بدون محرم الحديث الشريف: «لا يحل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر أن تسافر سفرا فوق ثلاثة أيام فصاعداً إلا ومعها أبوها أو أخوها أو زوجها أو ابنها أو ذو محرم منها»[١٠٦].

ويقضي ظاهر النص منع المرأة من السفر مطلقاً إلا بوجود المحرم، وهو ما لا يتيسر لكل امرأة، ومن غير المعقول أن تعطل طاقة اجتماعية كاملة لمجرد تحقيق رفقة طاقة أخرى، فإلى أي مدى مضى الفقه الإسلامي في إعمال هذا الحديث، وهل دلالته الظاهرة محل اتفاق بين المسلمين، أم أنه مرتبط بعلة خاصة وجوداً وعدماً.

لقد كان السفر في عهد النبي ضرباً من المشقة القاسية، وكان سفر المرأة ثلاثة أيام بلا محرم يشبه أن يكون مفسدة مؤكدة، وخطراً حقيقياً على المرأة، ولم تكن قد جدت الحاجة لارتحال المرأة في تحصيل العلم والمعرفة في المدن.

ولكن الفقه الإسلامي بدأ يدرك مع الأيام الحاجة الملحة لانتقال المرأة ويمكن هنا أن نورد طرفاً من خيار الفقهاء في هذا السبيل.

نظر الإمام الشافعي في مسألة حج المرأة إلى غاية هذا القيد وهو تحقق الأمن للمرأة فقال: «لا يتعين هذا ـ أي المحرم ـ بل الواجب هو ما يتحقق به الأمن عليها كأن تحج مع نسوة ثقات»[١٠٧].

ونص الإمام الباجي من أعلام المالكية في المرأة المتجالة (الكبيرة): «تسافر كيف

---

(١٠٦) رواه البخاري في كتاب المناسك، باب المرأة تحج بغير محرم، ج ٢، ص ٤٣ عن أبي سعيد الخدري، ورواه كذلك مسلم والترمذي وله لفظ: مسيرة يوم وليلة، وفي رواية لأبي داود: لا تسافر بريداً، وهو نحو عشرين ميلاً.

(١٠٧) مغني المحتاج للخطيب الشربيني، كتاب الحج، ج ٥، ص ٤٠٢

شاءت بلا زوج ولا محرم»[١٠٨]، ونقل هذا الرأي عن القاضي عياض[١٠٩].

أما الإمام الأوزاعي فقد ذهب إلى تحرير العلة من هذا المنع بخوف الفتنة، وانفراد المـرأة في السفر البعيد مع جماعة من الرجال، فقال: ولا شـك أن القوافل العظيمة تقوم مقام المحرم في تحقيق الأمن للمرأة ولو مع فقد المحرم[١١٠].

وبمثلـه نقل الترمذي عن مالك بن أنس والشافعـي: إذا كان الطريق آمنا فإنها تخرج مع الناس في الحج[١١١]، وهذا القول نفسه نقله النووي في شرح صحيح مسلم عن عطاء وسـعيد بن جبير وابن سـيرين ومالك والأوزاعي والشافعي: «لا يشترط المحرم بل يشترط الأمن على نفسها»[١١٢].

وسئل الإمام مالك عن المرأة تريد الحج وليس لها ولي؟ قال: «تخرج مع من تثق به من الرجال والنساء»[١١٣].

وقال الحافظ ابن حجر في فتح الباري: اسـتدل بحديث عائشة: «أحسن الجهاد وأجملـه الحج» على جواز حج المرأة مع مـن تثق به ولو لم يكن زوجاً ولا محرماً.. وقد أذن عمر لنساء النبي في الحج من غير محرم ولم ينكر عليه[١١٤].

وعـلى هدي خيارات الفقهاء فإن من اليسير القـول إذن إن هذا الحكم معلل بعلة فقـد الأمـن، وبذلك يدور الحكم مع علته وجوداً وعدماً، ولا شـك أن الأمن الذي يتوفر اليوم للفتاة المحتشمة تسافر في علم أو عمل، وتقيم في سكن مناسب مع مجموعة من الطالبـات، أو تسافر بالطائرة إلى عمرة أو حج أو اللحاق بزوج أو والدين، في شركات مأمونة مضمونة، لا شك أن ذلك على اختلاف أشكاله أصبح مأموناً غاية الأمن في زماننا.

---

(١٠٨) حاشية العدوي على شرح كفاية الطالب، ج ٨، ص ٢٥٠

(١٠٩) كمـال المعلم شرح صحيح مسلم للقاضي عيـاض، ج ٤، ص ٢٣٢، وانظر عون المعبود في شرح سنن أبي داود، لمحمد شمس الحق العظيم آبادي، كتاب المناسك، باب في المرأة تحج بغير محرم

(١١٠) المنتقى شرح الموطأ للباجي المالكي وقد عزاه إلى الإمام الأوزاعي، ج ٤، ص ٤٣٤

(١١١) تحفة الأحوذي بشرح سنن الترمذي، للمباركفوري، ج ٧، ص٣٤٤

(١١٢) شرح صحيح مسلم للنووي، كتاب الحج، باب سفر المرأة مع محرم إلى حج وغيره

(١١٣) المدونة الكبرى للإمام مالك بن أنس برواية عبد الرحمن الأصبحي، جـ١ ، ص٤٥٠

(١١٤) فتح الباري بشرح صحيح البخاري، لابن حجر العسقلاني جـ٤، ص٤٤٦

وقد وردت آثار كثيرة عن النبي تشير إلى أن الأمن سيغلب على الأرض وأن المرأة ستسافر من الحيرة حتى تطوف بالبيت من غير أن يصحبها أحد، من ذلك ما أخبر به النبي صلى الله عليه وسلم عدي بن حاتم بقوله: «يوشك أن تخرج الظعينة من الحيرة تؤم البيت لا جوار معها»[١١٥].

ولا شك أن بشارة النبي بهذا، واستبشاره به قرينة قوية في أنه لو انتفى الخوف فإن سفر المرأة بدون محرم وارد وممكن، بل هو من أعظم إنجازات الإسلام في الأرض.

وليس مقتضى ذلك إعفاء المرأة من مسؤوليتها، بل إن رعاية هذه الاعتبارات يجعل المرأة مباشرة في موقع المسؤولية، إذ هي المكلفة أصلاً باجتناب مواضع الفتنة، ورب فتن طاغية وفرتها التكنولوجيا الحديثة للرجل والمرأة على السواء وهما في الحضر، تجعل مظنة الفتنة في الدار أكبر من المظنة في السفر.

مصافحة النساء:

يبدو هذا الباب من أكثر الأبواب حرجاً في العمل الدبلوماسي، حيث تحكم المصافحات والمجاملات أعراف دبلوماسية كثيرة، وربما ترمز المصافحة أو عدم المصافحة إلى موقف سياسي لا يريد أي من الفريقين الإشارة إليه، الأمر الذي يفترض بيان بعض الحقائق في هذا السبيل.

إن امتناع المرأة عن المصافحة في الفقه الإسلامي له نظائر كثيرة في تقاليد الأمم، وينص قانون العرش البريطاني على مناصب محددة يسمح لها بمصافحة الملكة، ويعتبر امتناع الملكة عن المصافحة أمراً مبرراً في القانون يجب احترامه، كما تنص الآداب اليابانية والصينية على آداب خاصة تتصل بالمصافحة والانحناء، وهي تقاليد تحظى باحترام لدى تلك الشعوب ومن شأن اللياقة الدبلوماسية أن تحترم تلك العادات.

---

(١١٥) رواه البخاري في كتاب المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام، ج ٣، ص ١٣١٦

وفي المجتمع الإســلامي فقد اعتمدت عدة دول عربية وإسلامية مبدأ غياب المرأة عن البروتوكول الدبلوماسي، وهو أمر لا اعتراض عليه دبلوماســياً، ولكنه في الواقع كرس الصورة النمطية عن الإســلام التي يكرســها الخطاب الغربي عموماً وهو أن المرأة المسلمة مغيبة ومنتقصة الحقوق.

كمــا قامت المرأة المسلمــة في كثير من البلدان الإســلامية بالمشاركــة في النشاط الدبلوماسي بحجابها دون أن تصافح الرجال.

ومع ذلك فإن من ضرورة هذه الدراسة أن تبسط الأدلة لكل من الفريقين، دون أن نتدخل بالترجيح بين الأدلة، تاركين ذلك للعلماء والفقهاء في كل بلد إسلامي.

وجملة القول أن الذين ذهبوا إلى حرمة المصافحة اســتدلوا بأدلة كثيرة أشهرها اثنان:

- قوله صلى الله عليه وسلم: «إني لا أصافح النساء»[١١٦].
- وقول عائشة رضي الله عنها: «ما مست يد رسول الله يد امرأة قط»[١١٧].

أما الذين رأوا جواز المصافحة فقد استدلوا بأدلة كثيرة أشهرها اثنان:

- حديث مارية التميمية: قالت: «صافحت رســول اللــه فلم أر كفاً ألين من كفه»[١١٨].
- حديــث بيعة النساء: عن هنــد بنت عتبة أنها قالت: «يا نبي الله! بايعني؟ فنظــر إلى يدها فقــال: «لا أبايعك حتى تغيري كفيك كأنهما كفا ســبع»، فذهبت فغيرتهما بحناء ثم جاءت فبايعته[١١٩].

---

(١١٦) رواه الإمام مالك، انظر المنتقى، شرح الموطأ، ج ٤، ص ٤٤٢، كما رواه النسائي وأحمد

(١١٧) رواه البخاري ومسلم، البخاري، ج٧، ص٤٩، ومسلم ج٦ ص٢٩

(١١٨) الإصابة في تمييز الصحابة، ج ٨، ص ١١٣، وكذلك الاســتيعاب في معرفة الأصحاب، ج ٢، ص ١١٩

(١١٩) رواه أبو داود في سننه، ج ٢، ص ٤٧٥

فهـذه باختصار الأدلـة المتقابلة، ولا شـك أن للعلماء كلامـاً في كل واحد منها، وبحسبـك الاطـلاع على الأمر وما ذهب إليه الفريقان واختيار ما هو أنفع للإسـلام والمسلمين.

النقاب:

لا شك أن النقاب يعتبر عائقاً حقيقياً بين المرأة وبين العمل الدبلوماسي، ويمكن القول بأن المرأة المنقبة لا تستطيع أن تمارس العمل الدبلوماسي.

ومـن المؤكد أن التزام النقاب لـم يكن عاماً في الصحابيـات فقد كان منهن من تلتزمه ومنهن من لا تلتزمه، وكان في نساء الصحابة من وصفت بالحميراء والزهراء والبيضاء والسوداء والسفعاء وغير ذلك، وهذه الأوصاف كلها لا تتأتى بدون كشف الوجه.

وقد فهم عدد من الفقهاء وجوب النقاب من آيتين كريمتين في كتاب الله:

الأولى آيـة النـور: ﴿وَلا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَـا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ﴾[١٢٠].

والثانية آية الأحـزاب: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلابِيبِهِنَّ ذَلِكَ أَدْنَى أَن يُعْرَفْنَ فَلاَ يُؤْذَيْنَ﴾[١٢١].

ولا خلاف أن النص القرآني في المسألة قطعي الثبوت في التنزيل ظني الدلالة في التأويـل، فقد اختلف الفقهاء في تأويله اختلافـاً كثيراً، وهو ما دونه علماء التفسير بتفصيل كبير.

وتعـددت أقـوال الصحابة والتابعـين في تأويل المراد بقوله تعـالى: ﴿وَلا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ إلى نحو اثني عشر قولاً تتردد بين القول بمنع ظهور أي

(١٢٠) سورة النور، الآية ٣١
(١٢١) سورة الأحزاب، الآية ٥٩

شيء مــن المرأة وهو قول ابن مسعود إلى القول بجواز بدو يديها وقدميها ووجهها وهو قول ابن عباس[١٢٢].

ولــو أراد القطــع والحســم لقــال: وليضربن بخمرهــن على وجوههــن، ولقال ولا يبدين شيئاً من وجوههن بلا استثناء.

كما تعددت أقوالهم في المراد بإدناء الجلباب في قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يُعْرَفْنَ فَلا يُؤْذَيْنَ﴾ إلى نحو ثمانية أقوال، منها أن المراد أن تدني الجلباب ليعرفها الناس فــلا ينالوها بــأذى، لأن الحرة إذا عرفهــا السفهاء أعرضوا عنهــا، وإنما يتناولون بالأذى من لا يعرف لها أهل ولا قرابة.

ولو أراد القطع لقال: ذلك أدنى أن لا يعرفن فلا يؤذين.

ولا خلاف أن المرأة نهيت عن النقاب في إحرامها بالحج، واعتبر سفورها إحراماً لازماً لصحة نسكها، وفي الحديث أن النبي صلى الله عليه وسلم أردف خلفه الفضل بــن العباس وهو محــرم فجاءته امــرأة خثعمية وضيئــة الوجــه، فجعلت تسأله والفضل بن العباس ينظر إليها، فحول رســول الله وجهه إلى الطرف الآخر فجعل ينظر إليها من الشق الآخر[١٢٣].

وكــان غاية أمره صلى الله عليه وســلم أنه أمر الفضل بغــض البصر ولم يأمر المرأة بالنقاب.

وبالجملــة فهذه هي الأقوال معــزوة إلى مراجعها المعتمدة وليس من شرط هذه الدراسة أن تتولى الترجيح والفتوى، بل تبسط الأدلة بين يدي العلماء، رجاء إظهار عذر من أخذ بكل دليل، وإن أعلم الناس أعلمهم باختلاف الناس، واختلاف الفقهاء توسعة على الأمة ورحمة، وقد قال عمر بن عبد العزيز: «ما أحب أن أصحاب رسول الله لم يختلفوا، لو لم يختلفوا لم تكن سعة»، والله أعلم.

---

(١٢٢) انظر تفسير الجامع لأحكام القرآن القرطبي، سورة النور، الآية ٣١

(١٢٣) صحيح البخاري، ج ٢، ص ٥٥١

حصانة السفراء:

لم ترد في الفقه الإسلامي عبارات حصانة السفراء أو حصانة السلك الدبلوماسي، ولكـن المعانـي المقصودة بهذه العناويـن واردة بوفرة في كتب الفقه الإسـلامي في باب الجهاد باب المستأمنين وأهل العهد، وهو باب لا يخلو منه كتاب فقه إسـلامي مرجعي.

وسنتناول مسألة الحصانة من زوايا أربعة وفقاً لما قررته اتفاقية فيينا الخاصة بالعلاقات الدبلوماسية في الدول، ونتناول منها:

- الحصانة الشخصية.
- الحصانة القضائية.
- الحصانة المالية.

١- الحصانة الشخصية:

نصـت اتفاقية فيينا لعـام ١٩٦١ على مبدأ حصانة المبعوثين الدوليين، مما ورد فيها: «حرمة الاعتداء على شـخص المبعوث الدبلومـاسي وذاته، فلا يقتل ولا يؤذى بجرح أو ضرب أو غيره[١٢٤] من أنواع الأذى».

ومنها: عدم تعريضه للإهانة، وأي نوع من أنواع الأذى النفسي، بل يجب معاملته باحترام لائق، وخلاصة ذلك أنه يحرم الاعتداء على شخصه أو حريته أو كرامته.

ومما يندرج تحت مبدأ الحصانة الشخصية كل ما يتعلق بحماية منزله وحماية أوراقه ومراسلاته، والسماح له بحرية السفر والتنقل في إقليم دولته.

وقد نصت المادة ٣٠ من هذه الاتفاقية في فقرتها الأولى على حرمة مسكن المبعوث،

---

(١٢٤) المدخـل إلى القانـون الدولي العام وقـت السلم، للدكتور عزيز شـكري، ص ٣٤٢، وعلي صادق أبو هيف، القانون الدولي العام، ص ٤٩٦

ونصــت في الفقــرة الثانية على حرمة الأشــياء المتعلقة به من أمــوال ومستندات أو مراسلات.

وفي الواقع فإن هذا اللون من الحصانة مقرر في الشريعة لكل إنسان بغض النظر عن جنسيته ودينه ولونه وقومه، طالما أنه دخل الدولة الإسلامية بإذن صحيح، فقد تواتــرت النصــوص القرآنية الكريمة على حرمة دم الإنســان وماله وعرضه، وعدم جواز المساس بها بأي لون من الأذى، قال تعالى: ﴿وَلا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاّ بِالْحَقِّ، وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُوماً فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُــلْطَاناً فَلا يُسْرِفْ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُوراً﴾[١٢٥].

وفي القــرآن الكريم: ﴿مَن قَتَلَ نَفْساً بِغَيْرِ نَفْــسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعاً وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعاً﴾[١٢٦].

ومن الملاحظ في الآيتين أن القرآن هنا لم يقل من قتل مؤمناً أو مسلماً بل من قتل نفساً، وهو يشمل كل إنسان كائناً ما كان دينه.

وفي حجة الوداع قال النبي الكريم صلى الله عليه وسلم: «أيها الناس إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم حرام عليكم كحرمة يومكم هذا في بلدكم هذا... ألا هل بلغت.. اللهم فاشهد».

ومن الجدير ذكره أن خطاب النبي صلى الله عليه وسلم للناس يوم الحج الأكبر كان بصيغة يا أيها الناس، وهو شامل لك لأحد، فتجب عصمة الدماء ويجب توفير الكرامة لكل إنسان.

ومع ذلك فقد خص النبي صلى الله عليه وسلم المعاهدين والمستأمنين بنصوص خاصــة تفرض احترامهم وتحقق أمنهم وتحمــي تحركاتهم، وذلك حتى لا تلتبس الأمــور على الناس، بين المــشرك المحارب والمشرك المسالم، الــذي دخل في أمن الأمة وجوارها، قال صلى الله عليه وسلم:

---

(١٢٥) سورة الإسراء، الآية ٣٣
(١٢٦) سورة المائدة، الآية ٣٢

«مــن قتل معاهداً لــم يرح رائحة الجنة، وإن ريحهــا ليوجد من مسيرة أربعين عاماً»[١٢٧].

وفي حديث آخر قال صلى الله عليه وسلم: «ألا من قتل نفساً معاهدة لها ذمة الله وذمة رسوله فقد أخفر ذمة الله ولا يرح رائحة الجنة»[١٢٨].

ولعــل من أوضح صور حمايــة المعاهد والمستأمن قيامه صلى الله عليه وســلم باستقبال وفود الدول المحاربة على الرغم من سوء بغيهم وحربهم على الإسلام، فقد استقبل رســولي كسرى خرخسره وبابويه وأكرم وفادتهما مع أن سفارتهما كانت في غايــة البغي واللؤم، وكانا يحملان أمراً ينص على ضبط وإحضار محمد بن عبد الله القرشي إلى مولاهما كسرى.

كذلك فإنه استقبل رسولي مسيلمة الكذاب ابن أثال وابن النواحة، ومعهما كتاب مسيلمة إلى رسول الله ونصه: «من مسيلمة رسول الله إلى محمد رسول الله!!.. أما بعــد فإني قد أشركت في الأمر .. لــك نصف الأرض من قبلك ولنا نصف الأرض من قبلنا، ولكن قريشاً قوم يعتدون!!»

وحين ســألهما النبي صلى الله عليه وســلم عن موقفهما أفحشا في القول، وحين سألهما ما تقولان في مسيلمة قالا: «نقول إنه رسول الله»، وحين سألهما ما تقولان في قالا: «لا نعلمك رسولاً لله!!!».

وقال رســول الله لهما: «لولا أن الرســل لا تقتل لقتلتكما»، وفي رواية «لو كنت قاتلاً رسولاً لقتلتكما»، قال ابن مسعود: «فمضت السنة أن الرسل لا تقتل»[١٢٩].

ورغم غضب الصحابة الشديد من رســالة الرســولين وفحش استفزازهما فإن رســول الله رفض أن ينالهم أحد بسوء، ووفر لهما أمناً وحماية وزاداً حتى خرجا من المدينة.

---

(١٢٧) صحيح البخاري، ج ٤، ص ٩٩
(١٢٨) رواه أحمد في مسنده، ج ٥، ص ٣٦
(١٢٩) أرخرجه الإمام أحمد في المسند، ج ١ ، ص ٣٩٦

وفي مثال آخر فقد استقبل النبي صلى الله عليه وسلم عقب عمرة القضاء وفد قريش وفيهم حويطب بن عبد العزى، وكان شديد النكاية بالإسلام والمسلمين، وقد جاء يحمل رسالة لئيمة من قريش، تأمره بوجوب مغادرة مكة على الفور هو وأصحابه، ومع أن رسول الله استأنى بهم وتلطف، وقال: «وماذا عليكم لو خليتموني يوماً رابعاً فأعرست بين ظهرانيكم وصنعت لكم طعاماً فدعوتكم إليه»، ولكن حويطب قال: «لا حاجة لنا بك ولا بطعامك اخرج عنا...» وغضب الصحابة أشد الغضب من لؤم حويطب وصاح سعد بن عبادة في وجهه قائلاً: «كذبت لعمر الله ليست بأرضك ولا بأرض أبيك!! لا يخرج منها إلا طائعاً راضياً»، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «يا سعد لا تؤذوا قوماً زاؤونا في رحالنا»[١٣٠].

وهذه كلها أصول تعزز مبدأ الحصانة الشخصية للسفراء، زيادة على ما هو مقرر من هذا اللون من الحصانة والحماية لسائر الناس في الإسلام، وهي تعكس وعياً دبلوماسياً مبكراً في حاجة الدولة الإسلامية لبناء مصداقية عالية من التعامل الدبلوماسي في إطار العلاقات الخارجية والدولية، وهو ما يعود بالخير على الدولتين وعلى شعبيهما.

وزيادة في تسهيل مهمة البعثات الدبلوماسية فقد أكد الفقهاء على قبول ادعاء الممثل الدبلوماسي ولو لم يكن يحمل تفويضاً من الدولة الإسلامية بعد، وقرر الإمام الشوكاني أن أمان الرسل مقرر شرعاً[١٣١]، وأكد وجوب توفير الأمن لهم، بل إن الإمام أبو يوسف يعقوب بن إبراهيم وهو إمام الحنفية في فقه الدولة والقضاء والخراج ذهب إلى أبعد من ذلك واعتبر أن من ادعى أنه سفير قوم وجب تصديقه حتى يبلغ مأمنه ولو لم يكن معه تفويض من الدولة المسلمة، وذلك تسهيلاً لعمل المبعوثين الدبلوماسيين، لاسيما في عصر لم تكن فيه وسائل الاتصال متاحة بالشكل المعروف من الهاتف والبريد الالكتروني وغير ذلك، وكان من الوارد أن يذهب السفير بسفارته دون علم البلد التي يسير إليها، ويتعين حمايته ورعايته حتى يثبت العكس، ونص عبارة الإمام أبي يوسف: «إن الولاة إذا ما لاقوا رسولاً،

(١٣٠) سيرة ابن هشام، الجزء الثاني، ص ٣٧٣
(١٣١) نيل الأوطار للإمام الشوكاني، ج ٨، ص ٣٠

يسألونه عن اسـمه فإن قال: «أنا رسـول الملك بثني إلى ملـك المسلمين وهذا كتاب معي»، فإنه يصدق ولا سبيل عليه، ولا يتعرض له»[١٣٢].

وقـرر الإمام الرافعي مرجـح الفقه الشافعي أنه إذا نبـذ المستأمن العهد وجب تبليغـه المأمـن ولا يتعرض لما معه بلا خلاف.. ولو خـرج المستأمن إلى دار الحرب غير ناقض للعهد بل لرسـالة أو تجارة ومات هناك فهو كموته في دار الإسـلام..... والمذهـب: القطع برده إلى وارثه، لانه مـات والأمان باق في نفسه، فكذا في ماله..... بل ويجوز لورثة من نال الأمان، وله مال في بلاد المسلمين دخول بلاد الإسلام لطلب ذلك المال بغير أمان[١٣٣].

٢- الحصانة القضائية:

لا تعرف في الفقه الإسـلامي عبارة الحصانة القضائية كمصطلح، وحتى بعيدا عن المصطلح فإن الفقه الإسـلامي شديد في وجوب التزام أحكام القضاء واستقلال القضاة بالحكم وحقهم وواجبهم في اسـتدعاء الناس وسماع شهاداتهم وأقوالهم، ولا يحـل لأحد الامتناع عـن المثول أمام القضاء إذا دعاه القضاء، وقد دلت على ذلك نصوص شرعية كثيرة واضحة.

وقد جاء القرآن الكريم شديداً في وجوب الخضوع للقضاء وعدم توفير استثناءات أو امتيازات في القضاء، ولعلنا نكتفي هنا بإيراد نص قرآني طويل في سورة النساء جاء نصاً في المسألة، حيث رفع إلى رسول الله قضية سرقة اتهم بها صحابي اسمه طعمة بن أبيرق فدفع باتهام مواطن يهودي اسمه زيد بن السمين، وقد هم رسول الله بأخذه بالجناية بقرينة أن يده كانت على المال المسروق، مع أن ذلك كان كيداً من طعمة بن أبيرق، فنزل القرآن الكريم شـديداً في وجوب التحري والتثبت والاحتياط وعدم تمييز النـاس في القضاء بسبب مواقعهم أو منازلهم أو مراتبهم: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْـكَ الْكِتَابَ بِالْحَـقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَـا أَرَاكَ اللَّهُ وَلاَ تَكُـن لِّلْخَائِنِينَ خَصِيمًا،

(١٣٢) كتاب الخراج، لأبي يوسف، ص ١٨٨
(١٣٣) روضة الطالبين، للرافعي، ج٧، ص ٤٨١

وَاسْتَغْفِرِ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا، وَلاَ تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا، يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلاَ يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لاَ يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا، هَاأَنتُمْ هَؤُلاء جَادَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَمَن يُجَادِلُ اللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلاً، وَمَن يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا، وَمَن يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَى نَفْسِهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا، وَمَن يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئًا فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾[١٣٤].

والنص بالغ الشدة في وجوب تنفيذ أحكام القضاء، وعدم جواز التمييز بين الناس لمراتبهم أو منازلهم أو درجاتهم.

وقد تواترت النصوص بوجوب الاحتكام إلى القضاء الشرعي للوصول إلى العدالة، وتواترت الأخبار بخضوع كبار الأئمة في الإسلام للقضاء وأحكامه، حيث كان القضاء يستدعي من يقتضي من الناس لإحقاق الحق وظهور العدالة، حتى استدعي الخلفاء أنفسهم إلى القضاء، وقد استدعى القاضي شريح أمير المؤمنين علي بن أبي طالب إلى مجلس قضاء بخصومة خاصمه فيها يهودي، وأمر القاضي شريح بإثبات يد اليهودي على الدرع لعدم كفاية الأدلة، وحكم ضد علي وهو خليفة[١٣٥].

وبناء عليه فإن من العسير أن نذهب إلى القول بأن الفقه الإسلامي المتقدم منح الحصانة القضائية للمسؤولين أياً كانت مواقعهم في الدولة، وذلك التزاماً بدعم القضاء المطلق لتحقيق العدالة والإسراع في الإدلاء ببيناتها وشروطها، ولا نعرف أن الفقه الإسلامي منح أحداً الحصانة فوق حكم القضاء أياً كان هؤلاء وأياً كانت منازلهم ومراتبهم.

وفي الحقيقة فإن الأقرب لروح الإسلام ومبادئه أن لا يكون استثناء في القضاء، ولا حرج من القول بوجود هذا الخلاف بين الفقه الإسلامي وبين التوجه الحديث في الحقوق الدبلوماسية.

---

(١٣٤) سورة النساء، الآيات ١٠٥-١١٢

(١٣٥) أخبار القضاة، ج ١، ص ٣٣٤

ومــع ذلك فلا يمنع أن نؤصل لبعض الوســائل التي يمكــن أن تساعد المسؤول الدبلوماسي أو الأمني في متابعة القضاء وتحقيق العدالة دون أن يؤثر ذلك مباشرة عــلى دوره الدبلوماسي، فقد نصت اتفاقية جنيف على اســتثناءات متعددة يخضع فيها الدبلوماسي للقضاء المحلي، ومن هذه الحالات:

- إذا كان النزاع حول ملكية عقارية يمتلكها بصفة شخصية.
- إذا كانت الدعوى ناشــئة عن أعمال تجارية قــام بها المبعوث الدبلوماسي لحسابه الخاص.
- إذا كانت الدعوى متفرعة عن دعوى أصلية تقدم بها المبعوث الدبلوماسي بنفسه إلى قضاء الدولة باعتباره مدعياً.
- إذا كانت الدعوى تتعلق بشؤون الإرث، والتركات التي يدخل فيها بوصفه منفذاً أو مديراً أو وريثاً.

كما أن هذه الحصانة لا تعني - أيضاً - أن يخرج المبعوث الدبلوماسي على قوانين الدولة المضيفة وأمنها، وأن يرتكب الجرائم في أرضها، فإن فعل ذلك أعتبر شخصاً غير مرغوب فيه لدى تلك الدولة، ويحق لها أن تلفت نظر دولته، أو تطالب بسحبه أو طرده، وذلك بحسب نوعية وعظم الجرم الذي أقدم عليه، لكنها لا تملك - في نظر القانــون الدولي - بإخضاعه لقانونهــا الجنائي، وهذا الذي تكفلت به اتفاقية فيينا لسنة ١٩٦١ في المادة الحادية والثلاثين[١٣٦].

ويمكن هنا الاستعانة بالبحث العلمي الذي قدمه الدكتور بوبوش بعنوان تطور الدبلوماســية عبر العصور، وتحدث فيه عن الحصانة القضائية للدبلوماســيين في الإسلام بقوله:

«الحصانة القضائية والعدلية للفقه الإسلامي في هذا الصدد موقف مستقل عن غيره، وأســاس هذا الموقف تحميل المعاهــد أو المستأمن، ومثله المبعوث الدبلوماسي

(١٣٦) الدكتــور محمد إبراهيم جريبان، الأمن الدبلوماسي في الإســلام، مجلة جامعة دمشق، عدد ٢٤، عام ٢٠٠٨

ونحــوه المسؤوليــة المدنية والماليــة، والمسؤولية الجنائية الجزائيــة عما يرتكبه من أعمال في بلاد الإسلام، لأنه ملزم بأحكامها حال إقامته فيها أو وجوده على أراضيها الإقليمية»، وبيان هذا إجمالاً على النحو التالي:

أ- اتفق الفقهاء على وجوب استيفاء الحقوق والحدود من المعاهد والمستأمن والدبلومــاسي ونحوه إذا تعلقت بالأفراد. ويعبر عن هذه الحقوق في الفقه الإســلامي بحقوق العبــاد، كالضرب والشتم والسرقــة، والقذف، والقتل، وتقــوم هذه الفكــرة على مبدأ فطــري، هو: أن حقوق الأفــراد قائمة على المفاتشة والمشاحة، بخلاف حقوق الله تعالى القائمة على المسامحة.

ب- اختلف الفقهاء في وجوب استيفاء الحقوق والحدود من المعاهد والمستأمن والدبلومــاسي ونحوه إذا تعلقت بالحق العــام أو النظام العام، ويعبر عن هذا الأمر في الفقه الإسلامي بحقوق الله تعالى.

فقــال الجمهور: لا تقــام حدود الحق العــام ولا عقوباته على هــؤلاء ونحوهم، لئــلا تخل إقامتها بإبلاغهم مأمنهــم المأمور به في الآية: ﴿وَإِنْ أَحَــدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ﴾[١٣٧].

وقال أبو يوســف القاضي وبعض الشافعية: «تقام حدود الحق العام وتستوفي عقوباته على هؤلاء إحقاقاً للحق والعدل، وقياساً على المواطن الذمي في بلاد الإسلام، ولأن المعاهد ونحوه ملتزم ضمناً، بمجمل أنظمة الدولة حال مكوثه فيها».

والقــول الأخير هــو المعترف عليه والمستقــر التعامل به بين الــدول هي الجملة وذلك لضمان الأمن والاســتقرار. وفرض هيبة القوانين الإقليمية، علماً بأن بعضهم يــرى أن تبلــغ الدولة المضيفة دولة الموفد بإجــراءات محاكمته في أراضيها، كما أن لها أن تعده شــخصا غير مرغوب فيــه Persona non grata ، وتطرده من البلاد للمحافظة على سيادتها وسلامتها[١٣٨].

(١٣٧) سورة التوبة، الآية ٦.
(١٣٨) تطور الدبلوماسية الإسلامية عبر العصور، للكاتب محمد بوبوش، ص ١٤٨ - دار الفكر

ومـع كل مـا قدمناه فإنه يمكن للدولة الإسـلامية أن تؤسـس لاتفاقيات ثنائية بشأن الحصانـة القضائية، تعتمد مبدأ التعامل بالمثـل، وتميز بين القانون المدني والقانون الجنائي في الاحتكام إلى القضاء.

ومع ذلك فقد ذهب الإمام أبو حنيفة إلى أن الجرائم نوعان حق الله وحق العباد، ورأى أن حقـوق العبـاد لا يحل تأجيلهـا، ولا يحل التمييز فيها فالناس سواسـية كأسـنان المشط، أما حقوق اللـه فإنهم لم يلتزموا أحكام الإسـلام وإنه لا إكراه في الدين، ولا يحل إرغامهم عليها وحسابهم إلى الله[١٣٩].

وقد نسب هذا الرأي إلى الإمام الشافعي أيضاً ووافقه الإمام مالك في مسألة الزنا يرتكبه المستأمن[١٤٠].

وأشـاروا إلى الفرق بـين الذمي وبين المستأمن فالذمي مواطن في دولة الإسـلام وعليه التزام القانون العام فيها، ولكن المستأمن غير مواطن ومهما طالت سـفارته فهـو مقيـم بصفة مؤقتة، وواجب الدولة الإسـلامية أن تبلغه مأمنه حين يريد، ولا وجه لأخذه بأحكام الإسـلام وهو ليس مسلماً ولا هو مقيم في سلطان المسلمين، بل إنه ينص على ولائه لبلده وقد نال العهد والأمان وهو يلتزم ذلك ويعلنه، فلا ينبغي أن نرغمه على أحكام ديننا.

بل إن الفقهاء نصوا أنه لو أن رجلاً أتلف خمراً لمسلم أو كسر صليباً لمسلم فإنه لا يضمن لحرمة ذلك عليه، أما إن أتلف خمراً لذمي أو قتل خنزيراً له أو كسر صليباً له فإنه يضمن لأنها أموال متقومة محترمة عندهم وإن لم تكن لدى المسلمين كذلك.

وهذا الاستثناء الذي ذكره الفقهاء في باب إتلاف مال الذمي أقل خطراً من حمل الدبلوماسي المستأمن على التزام أحكام لا يؤمن بها في شريعته.

وهـذا كلـه في حقوق الله، أما حقوق الناس فلا أعلـم أن فقيهاً من الفقهاء منح

---

(١٣٩) السرخسي، المبسوط، ج ٩، ص ٥٥

(١٤٠) انظـر أبو إسـحاق إبراهيم الشـيرازي، المهذب في فقه الإمام الشافعـي، ج ٢، ص ٢٦٣، وكذلك حاشية العدوي على كتاب أبي زيد القيرواني، ج ٢ ، ص ٢٥٦

المستأمنين على اختلاف وظائفهم حصانة قضائية تحول بينهم وبين الإنصاف للناس من أنفسهم، وهذا هو الأصل الذي دلت له الشريعة، وتؤيده عمومات النصوص في الكتاب والسنة.

ولا بد للدولة الإسلامية أن تنص قوانينها على عقوبات خاصة لمن يترافع كيدياً ضد دبلوماسي، لأن في ذلك إساءة مزدوجة للدبلوماسي المستأمن ولبلده الذي خوله هذا الحق، فلا بأس أن توضع قيود ضامنة تقرها البعثات الدبلوماسية وتقبل بها تحمي البعثة الدبلوماسية من الدعاوى الكيدية التي تعيق عملهم، لاسيما إذا ما تذكرنا الاحتمال الكبير الوارد أن هذه الدعاوى قد تكون ذات خلفية سياسية وتدفع إليها أحزاب بعينها بدوافع كيدية وسياسية يجب أن نجنب الدبلوماسيين الوقوع فيها.

وكذلك فإنه رفعاً للحرج ذهب فقهاء الشافعية بوجه خاص إلى النص على أنه يمكن أن يخص هؤلاء المستأمنون بعقود خاصة مع الدولة الإسلامية، فلا يلزمون إلا بما التزموه من الأحكام فيها بالإرادة المتبادلة، وأعتقد أن هذا الذي ذهب إليه الفقهاء الشافعية يمكن أن يؤسس لمخرج من هذا الحرج بحيث تقوم الدولة الإسلامية بترتيب اتفاقيات خاصة للبعثات الدبلوماسية تحقق مبادئ الشريعة في العدالة والمساواة وتؤسس على قبولهم لمبدأ الاحتكام إلى التقاضي المحلي فيما يخص حقوق الله وحقوق العباد جميعاً.

قال الشربيني «وفي سرقة معاهد ومستأمن، إذا سرقا أقوال: أحسنها إن شرط عليه في عهده قطعه بسرقة قُطِع لالتزامه وإلا فلا يقطع، لعدم التزامه. والأظهر عند الجمهور لا قطع مطلقاً؛ لأنه لم يلتزم الأحكام فأشبه الحربي[١٤١].

وواضح من عبارة الخطيب الشربيني إقرارهم لمبدأ السيادة في العلاقات الدبلوماسية المؤسسة على عقد الأمان والعهد، فلا يقاضى إلا بما التزم، وبناء عليه يمكن أن تشمل أوراق الاعتماد اتفاقية خاصة للحصانة القضائية وحقوق التقاضي وواجباته.

(١٤١) الخطيب الشربيني، مغني المحتاج، ج ٤، ص ١٧٥

٣- الحصانة المالية:

لا شك أن البعثة الدبلوماسية في الإسلام نالت الحصانة المالية بحكم عقد الأمان الـذي أعطته الدولة لهذه البعثة الدبلوماسـية، وفي الواقع فـإن الأمة بأسرها بهذا المعنـى محصنة مالياً، حيث اعتبر من ألزم واجبات الحاكم على الأمة أن يوفر الأمن للنـاس في أرواحهم وأموالهـم، واعتبر المال أحد الضروريـات الخمس في الشريعة، واعتـبرت الملكيـة الخاصة من الحقـوق التي تحميها الشريعة، وفـق ما دلت عليه نصوص الكتاب والسنة:

﴿وَلا تَأْكُلُـوا أَمْوَالَكُـمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِـلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّـامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[١٤٢].

وفي الحديث الشريف: «لا يحل مال امرئ مسلم إلا عن طيب نفس منه»[١٤٣].

وبهذا المعنى فالأمة كلها تمتلك الحصانة المالية فيما كسبته من حلال أو أنفقته في حلال.

ولكن الحصانة المالية للدبلوماسيين تشتمل على امتيازات خاصة جرى التعارف عليها وإقرارها بأسـباب خاصة، وفي ظروف خاصة، وقد نصت اتفاقية فيينا لعام ١٩٦١ على جملة امتيازات تحقق الحصانة المالية للبعثات الدبلوماسية ومنها:

إعفـاء أعضاء السلك الدبلوماسي من جميع الرسـوم والضرائب، وكذلك درجت الدول على إعفاء دار البعثة الدبلوماسـية مـن هذه الضرائب، إذا كانت ملكاً للدولة الأجنبية، وذلك جرياً على أساس قاعدة المعاملة بالمثل.

وقد تنبه الفقهاء قديماً لهذا الجانب من الحصانة المالية، وورد عن الأئمة اجتهاد دقيق في هذه المسألة ننقل منه ما أورده الإمام يعقوب بن إبراهيم في كتابه الخراج: «لا يؤخذ من الرسول الذي بعث به ملك الروم ولا من الذي أعطى أماناً عشر»[١٤٤].

---

(١٤٢) سورة البقرة، الآية ١٨٨

(١٤٣) رواه الامام مالك في الموطأ، ج ٣، ص ٢٧٦

(١٤٤) الخراج، للقاضي أبي يوسف يعقوب بن إبراهيم، ص ١٨٨

وهــذا الأمر ينطبق تماماً اليوم عــلى البعثات الدبلوماســية، وفي تيسير أمورهم الماليــة خدمة عامة للمجتمع، لأن وجه الخراج منهــم ليس فيما يدفعونه على عقار البعثــة من ضرائب وخــراج وإنما فيمــا ينجزونه للأمــة من اتفاقيــات ومبادلات وتحالفــات، وهو المقصود الأعظم من وجودهــم، وليس الربح المتعجل الذي ينتظر من السياح والتجار.

ولأجل ذلك فقد نص الفقهاء عــلى التفريق بين حاجات الدبلوماسي (المستأمن) في خدمــة مصالح بلده بين حاجاته الخاصة في خدمة نفسه، فاعتبروا مال التجارة الخاصة ليس محل الامتياز، وألزموا المستأمن فيه بما ألزموا سائر الأمة من الخراج.

يقول ابن قدامة: «ولا يؤخذ منهم من غير مال التجارة»[١٤٥].

ويقول الإمام أبو يوســف: «وما لم يكن من مــال التجارة ومروا به على العاشر فليس يؤخذ منه شيء»[١٤٦].

والعاشر هو من يجبي العشر، وهو جابي الخراج كان يأخذ العشور من المزارع والأراضي التي تسقى بماء السماء ونصف ذلك من الأرض المروية بالناضح.

وقد قام الفقهاء بالنص على الحصانة المالية للسفراء والمستأمنين تسهيلاً للعمل الدبلومــاسي، والهدف تمييزه عن العمل التجاري منعاً لاســتغلال الحصانة المالية للدبلوماسي في الإثراء.

وبالقيــود نفسها التي أوردها الفقهاء في الحصانة الدبلوماســية نصت اتفاقية فيينــا لعام ١٩٦١ في المادة ٣٤ أيضاً عــلى أن الحصانة المالية إنما تكون في كل أمر طبيعتــه الخدمة العامــة ولا يشمل ذلك بالطبع المنافع الخاصــة والمصالح الذاتية لأفراد البعثات، وهي كما عددتها المادة ٣٤:

أ- الضرائب غير المباشرة على السلع والخدمات.

---

(١٤٥) المغني لابن قدامة المقدسي ص ٨، ص ٥٢٢

(١٤٦) الخراج، للقاضي أبي يوسف يعقوب بن إبراهيم، ص ١٣٣

ب- الضرائب على الأموال العقارية الخاصة التي توجد في أرض الدولة المضيفة، ما لم يكن المبعوث يحوزها لحساب الدولة المعتمدة لأغراض البعثة.

ج- الضرائب التي تفرضها الدولة المضيفة على التركات.

د- الضرائب والرسوم المفروضة على الدخل الخاص التي يكون مصدرها الدولة المضيفة.

هـ- الضرائب والرسوم التي تحصل مقابل خدمات خاصة.

و- رسوم التسجيل والتوثيق والرهن التي لا تتصل بمقر البعثة.

وقد ذهب فقهاء الحنفية إلى تأسيس الحصانة المالية للدبلوماسيين على مبدأ المعاملة بالمثل، ونقل السرخسي عن أبي حنيفة قوله: لا يأخذ منهم شيء إلا أن يكونوا يأخذون منا شيئاً فنأخذ منهم مثله[١٤٧]، وقد أسس القرآن الكريم لهذا المبدأ في آيات كثيرة: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾، ﴿مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ﴾، ﴿فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ﴾، ﴿وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ﴾، وهي أصول عامة في الشريعة تعزز مبدأ المعاملة بالمثل، وقد صرح به الخليفة الراشدي عمر بن الخطاب في نص واضح وفيه أن عاشراً كتب إليه: كم نأخذ من تجار أهل الحرب، فكتب إليه عمر كم يأخذون منا؟ قال: هم يأخذون منا العشر، فقال عمر: خذ منهم العشر[١٤٨]، وفي رواية أخرى عن عمر رضي الله عنه، أنه قال لعامله: «خذ منهم مثل ما يأخذون منا».

في حين ذهب الحنابلة والشافعية والمالكية إلى أخذ العشر من المستأمنين، استناداً لاجتهاد عمر بن الخطاب الذي قدمناه.

وقد عرض الدكتور محمد إبراهيم الجريبان لأدلة الفريقين ثم رجح مبدأ المعاملة بالمثل فقال:

---

(١٤٧) المبسوط، للسرخسي، ج ٢، ص ١٩٩

(١٤٨) سنن البيهقي، كتاب الجزية، باب ما يؤخذ من الذمي اذا اتجر في غير بلده، ج ٩، ص ٢١٠

القــول الراجــح هنا ما ذهب إليــه الحنفية، وهو المعاملة بالمثــل، لأن ذلك أدعى لتحقيق الأمان والثقة بين الدول، ولأن أســاس العلاقات الدولية الآن إنما يقوم على مبــدأ المعاملة بالمثل، وإلى هذا المبدأ ترجع كثير من المعاملات المالية والاقتصادية في فرض الرسوم والضرائب والجمارك.

أمــا دعوى الإجماع على العشر كما صرح بذلــك أصحاب المذهب الثاني، فيمكن تأويلهــا بأنها خاصة بمــا كان يأخذه أهــل الحرب من تجار المسلمــين، فغالباً ما يأخذون العشر[١٤٩].

ولا يخفى أن اجتهاد عمر إنما أطلقه بعد أن سأل العاشر عن قيمة ما يأخذونه منه، فهو حكم بناه على مبدأ المعاملة بالمثل.

وهكــذا فــإن ما اجتهد فيه الفقهاء من قبل هو ما أخــذت به الاتفاقيات الدولية اليوم التي عززت مبدأ المعاملة بالمثل في منح الحصانة المالية للسفراء.

٤- الحصانة السياسية:

والمقصــود بالحصانة السياســية هو حق الدبلومــاسي أن يعبر بوضوح لا لبس فيه عن مواقف بلاده وسياســاتها مهما كانت هذه المواقف متناقضة ومرفوضة في بلد الابتعاث، وأن موقفه يجب أن ينال الاحترام بغض النظر عن البرنامج السياسي الذي تمارسه حكومة البلد المضيف.

وفي الحقيقــة فــإن هذا الأمــر اليوم أصبح مــن حقوق الإنسان الأساســية التي تشتمــل عليها شرعة حقــوق الإنسان العالمية، وهو حق التعبــير والنشر، ومع ذلك فــإن النص على هذا الحق للدبلوماســيين يعتبر ضرورة حيوية، لاســيما في البلدان التي لا تزال متخلفة في سجل حقوق الإنسان.

(١٤٩) الأمــن الدبلوماسي في الإســلام، د. محمد إبراهيم جريبان، مجلــة جامعة دمشق، مجلد ٢٤، عام ٢٠٠٨

وفي القــرآن الكريم مبادئ عامة تشير إلى مسؤولية الإنسان فيما يقول، ووجوب منــع البشر من التدخل في مواقف الناس السياســية والاجتماعية والأخلاقية، ﴿كُلُّ نَفْــسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾، ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾، ﴿كَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

ولكن النص على الحصانة السياسية للبعثة الدبلوماسية ضروري، لأن كثيراً من هــذه الحقــوق التي تحدثنا عنها تمنع في ظروف الحــرب، وتفرض حالات طوارئ فهل يشمل ذلك البعثة الدبلوماسية؟

لقــد كان النبي الكريم يستقبل الوفود الدبلوماســية في مسجده الشريف، وكان يبالــغ في إكــرام بعضهــم تقديراً لسياســات الدول التي أرســلتهم كمــا كان حال تكريمه لوفد الحبشة الذين أرســلهم النجاشي، فقد قام يخدمهم بنفسه وحين قال لــه أصحابه: «نحن نكفيك الخدمة يا رســول الله» قال لهم: «إنهم كانوا لأصحابي مكرمين»(١٥٠).

ولكن الوفود الدبلوماســية لم تكــن كلها على هذا المستوى مــن الأدب والوفاق، فقد أشرنا في غير موضع إلى اســتقباله صلى الله عليه وســلم لوفد مسيلمة الكذاب وقــد كان هؤلاء يتحدثون بمــا يتناقض كلياً مع العقيدة الإســلامية، ويشككون في نبوة الرســول، بل إن نص الكتاب الذي جاؤوا به يتضمن بشكل صريح العمل على تقسيــم الدولة وضرب وحدتها وهو أمر بالــغ الخطورة ولكن النبي الكريم تعامل مع هذا الواقع بأدب دبلوماسي جم، ونهى أن يسيء أحد إلى الرسولّين على الرغم من موقفهما الاستفزازي المشين.

ولكن ما هو أشــد خطراً من ذلك كان موقف رســوليّ باذان عامل اليمن لكسرى فقــد جاءا بأمر اعتقال النبي الكريم وتسليمه لكسرى، وهو مطلب لا يمكن تبريره عــلى الإطلاق ومع ذلك فقد اســتضافهما رســول الله في المدينة خمســة عشر يوماً وأحسن ضيافتهما، ونهى أصحابه عن إيذاء أي منهما، وما عادا إلى اليمن إلا وهما مؤمنان.

---

(١٥٠) شعب الإيمان، للبيهقي، ج ١١، ص ٣٨١

وبعيداً عن الحصانة الدبلوماسية للسفراء والبعثات فقد عرف التاريخ الإسلامي منـح الحصانة السياسـية لعدد من الأفـراد بواقع وظائف خاصة لهـم أو مواقع متميـزة، بحيث رفع عنهم السلطة السياسـية التي كانـت للحاكم المحلي، ومنحهم حق الارتباط بالسلطة المركزية دون الرجوع إلى الحاكم المحلي.

وأول ما روي في تاريخ الخلفاء في هذا المعنى ما ورد في خبر عبادة بن الصامت فقد كان عبادة بن الصامت من أكثر أصحاب النبي الكريم وعياً ومسؤولية واتزاناً، وكان من أبرز قادة الفتح الذين وفدوا على الشام، ولعل ساحل بلاد الشام مما يلي لبنان قد فتح على يديه، وقد اسـتقر فيه بعـد الفتح، وأصبحت داره مقصد الناس ومحجهم ومقضى حوائجهم.

وكان عبادة وإخوانه معاذ وأبو الدرداء قد صحبوا النبي صلى الله عليه وسـلم عـلى المحجة البيضاء، وكانوا يعرفـون طهره وزهده وعبادته لربه، وهو ما لم يكن معاويـة يلتزمه، فقد ورث معاوية حكم الـروم وقصورهم وتقاليدهم، ولأجل ذلك فقد كان يظهر أبهة الملك وحواشـيه وبطانته، وكان ذلك محل اعتراض شـديد من عبـادة بن الصامت وإخوانه، ومـرارا تعاتب الرجلان وتمسك كل بموقفه، ثم صار عبـادة بعد ذلك إلى فلسطين وكـان معاوية خالفه في شيء أنكـره عبادة فأغلظ له معاوية في القول فقال عبادة لا أسـاكنك بأرض واحدة أبداً ورحل إلى المدينة، فقال عمـر ما أقدمك؟ فأخبره، فقال ارجع إلى مكانك فقبح الله أرضاً لست فيها أنت ولا أمثالك وكتب إلى معاوية لا إمرة لك عليه[١٥١].

كان هذا في الواقع أول حصانة سياسـية في الإسلام، حيث أعلن الخليفة عمر بن الخطاب أن عبادة بن الصامت وهو مقيم بأرض الشام لا يتبع لوالي بلاد الشام، ولا إمرة له عليه، وأن بوسعه أن يمارس مسؤولياته الكاملة بدون الرجوع الى معاوية في شيء، وكذلـك فإنه يملك حق انتقاد سـلوك الإدارة والحكم ولو كان ذلك خلاف رغبات السلطة التنفيذية على الرغم من الصلاحيات الكبيرة التي كانت بيد معاوية بوصفـه حاكم بـلاد الشام، وهكذا فقد قـرر عمر بموقفه هذا أمريـن اثنين: الأول

(١٥١) أسد الغابة، لابن الأثير، ج ٣، ص ١٥٩

أنه لا سـلطة للحاكم التنفيذي على السلطة القضائية، وتأكيد مبدأ فصل السلطات والثانـي أن مبدأ منح بعض الموظفين في السلـك القضائي أو الدبلوماسي امتيازات خاصة تسهيلاً لمهامهم له أصل في الفقه الإسلامي وتطبيق الصحابة الكرام.

إننـي هنـا لا أزعم أننـا نؤصل للأعـراف الدبلوماسـية وفق ما اسـتقرت عليه الاتفاقيـات الدوليـة الحديثـة، إننا هنا نلتمس محض إشـارات ملهمـة، وبإمكان الفقهـاء في كل عصر أن يجتهدوا اهتداء بذلك للوصول إلى تأمين حصانة مناسـبة للعاملين في السلك الدبلوماسي والقضائي بحيث تتيسر مهامهم دون أن يكون لهم حق تجاوز القانون أو رفض أحكامه.

وتجدر الإشارة إلى أن النبي الكريم والصحابة الكرام من بعده عمدوا إلى تكليف حاكم وقاض في كل أرض تم فتحها، ومن البداهة القول بأن القضاة كانوا مستقلين في أحكامهم، وأن تبعيتهم لم تكن أبداً للوالي المحلي، بل كانوا في أحكامهم يتصرفون بحرية وإطلاق دون قيود، وكانوا يقومون بالواجب المهني والأخلاقي.

٥) الملحقيات:

لم يرد استخدام مصطلح الملحقيات في الفقه الإسلامي، ولكن من حيث المضمون فإنه يمكننا أن نرصد في التاريخ الإسلامي عدداً من الملحقيات التي كانت تقوم بهذا الدور، وتحقق الهدف الدبلوماسي لابتعاث الملحقين.

وتنتشر اليوم في العلاقات الدبلوماسية بين الدول أشكال متعددة من الملحقيات سنتناول منها:

- الملحقية التجارية.
- الملحقية العسكرية.
- الملحقية الثقافية.
- سفارة الحج، وهي في الواقع مما اختصت به الدبلوماسية الإسلامية.

الملحقية التجارية:

اشــتهرت قافلة قريش قبل الإسلام في إرساء قواعد التبادل التجاري، وقد خص القرآن الكريم ســورة قريش للحديث عن رحلة الشتــاء والصيف التي كان العرب يتبادلــون فيهــا التجارات النافعة بين الشــام واليمن والحجاز: ﴿لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ، إِيلَافِهِــمْ رِحْلَةَ الشِّتَــاءِ وَالصَّيْفِ،فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ، الَّــذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ﴾[١٥٢].

ولم يرد لدى الفقهاء تفصيل خــاص فيما يتصل بالملحقيات التجارية، ويمكن متابعــة هــذا المعنى فيما حــرره الإمام أبو يوســف يعقوب بن إبراهيــم، في كتابه الخــراج وقد حررنا جانباً من رؤيته فيمــا يتصل بقيام المستأمنين بأعمال التجارة وما يفرض فيه من أموالهم وأرباحهم من العشور.

ومــن الواقعــي أن نقــول إن الملحقيــات التجارية هــي تطور جديــد في العمل الدبلوماسي وهو شيء لم يكن في عصر الرســالة ولا في عصر الخلفاء، والأمر يحتاج إلى اجتهــاد مستقل والقاعــدة العامة التي تحكم هذا اللون مــن النشاط هي قوله تعــالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾، ولا شــك أن التزام الدولة الإســلامية بتأمــين الظروف التجارية للمبتعثــين وتنفيذ الاتفاقات الدوليــة في هذا الشأن هو مسؤولية شرعية ووطنية لا يجوز التفريط فيها.

ويمكن تأســيس أحكام هذه الملحقيات أيضاً في باب المباح الذي يملك ولي الأمر التصرف فيه إيجاباً وســلباً بما تتحقق فيه مصلحــة الأمة، وحيثما كانت المصلحة فثم شرع الله.

وقد أرســل النبي الكريم عدداً من الصحابة بمهام تجارية بحتة، تتصل بتبادل الخبرات والبضائع مع الشام واليمن، ومن هؤلاء أبو عروة البارقي ومنهم عقيل بن أبي طالب الذي كان خبيراً بالتجارة والبيع والشراء، وقال: «ما قضي لوكيلي فلي وما قضي على وكيلي فعلي».

---

(١٥٢) سورة قريش

وكذلك كان دحية بن خليفة الكلبي يتولى تجارة الشام في زمن رسول الله وفيه نزلت الآية: ﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا﴾،فقد كان كثير من الصحابة قد استهموا في تجارة دحية وحين وصلت القافلة عند صلاة الجمعة خف الناس ليتسلموا بضائعهم وخلا المسجد من المصلين فنزلت الآية.

وقد برع معاوية بن أبي سفيان في تخير وفود دبلوماسية تتولى أمر التجارة وتبادل البضائع مع البلدان، وتؤسس التبادل التجاري مع البلدان بغض النظر عن سياسات تلك الدول والمواقف العسكرية فيما بينها.

الملحقية العسكرية:

لا تقوم الملحقية العسكرية إلا بين دول صديقة، حيث يكلف بعض الدبلوماسيين بالتعاون مع الدولة المضيفة في الشؤون العسكرية، بتقديم الاستشارات والخبرات وتبادل السلاح والاطلاع على كل جديد في الحقل العسكري وبالتالي تبادل شراء وبيع الأسلحة لصالح الجيش الوطني.

وهكذا فإنه لا يتصور قيام ملحقية عسكرية في عصر النبوة والخلافة الراشدة التالية، حيث لم تكن علاقات الصداقة الدبلوماسية واردة في تلك المرحلة، بعد أن أعلنت الدول الرئيسية آنذاك محاربة الرسالة الإسلامية، ومواجهتها بشتى أنواع الوسائل الحربية والعسكرية، ولذلك فإننا لم نتمكن من رصد ظاهرة الملحق العسكري في الدولة النبوية ودولة الخلافة الراشدة.

وبالطبع فإن ذلك لا يعني عدم وجود خبراء عسكريين يؤدون خدمات للدولة ويتحركون ضمن دول أخرى، ولكن ذلك كان يتم بدون أي غطاء دبلوماسي، ولا يمكن اعتبارها ملحقيات عسكرية بالمعنى الحديث.

وما قلناه في شأن الملحقية التجارية نقوله في شأن الملحقية العسكرية فهي تصرف في المباح أوكل الشرع أمره لولي الأمر، والأصل في الأشياء الإباحة إلا ما ورد فيه النص بالتحريم.

وهكذا فإن مشروعية قيام ملحقيات عسكرية تتأسس شرعاً على مدخلين اثنين:

الأول: استصحاب الإباحة الأصلية، وفق ما دلت عليه النصوص القرآنية في هذا الباب، ودعت المؤمنين إلى انتهاج كل سبيل فيه خير للأمة وتيسير لأمورها، ومنها قوله تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مِّنْهُ﴾(١٥٣)، وقد دعانا للعمل لما فيه خير الأمة عموماً، وهذا الأمر فيه خير عظيم للأمة، وقال تعالى:﴿ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾(١٥٤).

الثاني: الاستدلال بالعموم في الدعوة إلى التعاون على الخير والتعارف فيما هي مصلحة للأمة: ومنها قوله تعالى: ﴿أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا﴾(١٥٥)، وقوله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلاَ تَعَاوَنُواْ عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾(١٥٦).

الثالث: إن قيام هذه الملحقيات يكون عادة بالعقود المتبادلة بين الدول، وقد أمر الله عز وجل بالوفاء بالعقود، وقال تعالى: ﴿وَلاَ تَنقُضُواْ الأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلاً﴾(١٥٧).

وكذلك يمكن الاستدلال بموقف النبي الكريم حين أرسل من أصحابه عيوناً على أعدائه من المشركين والمنافقين وتتبع أخبارهم، وقد اعترض بعض المنافقين على هذا الدور فنزل في الرد على المعترضين: ﴿وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِاللّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ آمَنُواْ مِنكُمْ﴾(١٥٨). فأكدت الآية الكريمة أن الأمور بمقاصدها وأن الأمة يجب أن تبقى عيناً ساهرة على المصالح العامة وأن لا تتهاون في متابعة شؤون أعدائها.

---

(١٥٣) سورة الجاثية، الآية ١٣
(١٥٤) سورة المائدة، الآية ٤٨
(١٥٥)سورة الحجرات، الآية ١٣
(١٥٦) سورة المائدة، الآية ٤
(١٥٧) سورة النحل، الآية ٩١
(١٥٨) سورة التوبة، الآية ٦١

الملحقية الثقافية:

قامت الدبلوماسية الثقافية خلال التاريخ الإسلامية بدور كبير وإن لم تتحدد ضمن عنوان الملحقيات الثقافية، ولكن كل نشاط قام به المسلمون في حقل التفاعل مع الحضارات الأخرى كان محكوماً بقيم القرآن الكريم التي تدعو إلى احترام ثقافات الأمم، مما لا يتعارض مع قيم الإسلام الكبرى في التوحيد والفضيلة والعفاف والسلام، وفق ما قرره القرآن الكريم: ﴿نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّئَاتِهِمْ﴾.

وقد جاء القرآن الكريم صريحاً في احترام ما أنجزه الأنبياء من قبل، وتوضحت رسالة النبي صلى الله عليه وسلم بأنها رسالة تصديق لهدي الأنبياء وليست إلغاء وإبطالاً لهم، وتكرر في القرأن الكريم في أربعة عشر موضعاً: ﴿مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾.

وخلال التاريخ الإسلامي عرفت بعض الملحقيات الثقافية التي حظيت بغطاء دبلوماسي ومن أشهر هذه الملحقيات ما قام به الخليفة المأمون لدى تأسيس بيت الحكمة حيث أرسل سفراءه إلى الروم والهند والإفرنج لجمع المخطوطات العلمية الهامة وبالتالي لترجمتها إلى اللغة العربية، وقد كانت هذه الكتب تشتمل على كثير من المخالفات في العقيدة الإسلامية ولكنها مع ذلك حظيت بعناية علمية فريدة وتمت ترجمتها إلى العربية بإشراف مباشر من دار الخلافة.

وكذلك ما قام به الخليفة العباسي الواثق بالله (٨٤٢ –٨٤٧)؛ إذ أرسل وفداً إلى الإمبراطور البيزنطي مايكل الثالث لزيارة الكهف الوارد ذكرُه في القرآن الكريم[١٥٩].

---

(١٥٩) عباس حلمي في كتابه الدبلوماسية في التاريخ الإسلامي، وقد ذكر عباس أن الواثق أرسل رسوله إلى دقلديانوس وهو خطأ ظاهر إذ عاش دقلديانوس في المائة الثالثة للمسيح أي قبل الإسلام بنحو أربعمائة عام، وربما التبس عليه لأن دقلديانوس هو من عاش في زمانه أصحاب الكهف، وقد سبقت الإشارة لذلك في الفصل الخاص بتاريخ الدبلوماسية في الإسلام

الملحقيات الثقافية ورسالة الدعوة:

اشــتهرت البعثات الثقافية في الإسلام باســم الدعاة إلى الله، وهم الفريق الثقافي الذي كان يتحرك في إطار الدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة، وقد كان هؤلاء يرافقون عادة جيش الفتح ثم يستقرون في البلدان المفتوحة.

وكان هؤلاء يقومون بدورهم في الدعوة والإرشاد ونشر العلم دون أن يكون لهم قرار أو دور سياسي محدد، ومن أشهر هؤلاء:

مصعب بن عمير: أرســله النبي صلى الله عليه وســلم إلى المدينة المنورة ليرشد أهلهــا إلى الإســلام ويعلمهم أحكام الدين، وقد أرســل مصعب بنــاء على اتفاق بين الرســول الكريــم وزعماء الأوس والخزرج الذين التقاهم رســول الله عند شــجرة العقبة في منى بعد أداء مناسك الحج.

وقد قام مصعب بمهته خير قيام، ولم تتناول سفارته أي جانب سياسي، واختار النبــي الكريــم أن يكون التفاوض السيــاسي بينه وبين أهل المدينــة عبر رجال من الأوس والخزرج وبشكل خاص سعد بن معاذ وسعد بن عبادة.

أبو موسى الأشــعري: ابتعثه الرســول الكريم إلى اليمن، ظهيراً وعوناً لعلي بن أبــي طالب وحدد له الرســول الكريم مهمته بتعليم الناس أحكام الإســلام وتلاوة القرآن وحوارهم فيما يتصل بالدين الجديد.

وهذا الجدول يضم أهم البعثات الثقافية (الدعوية) التي أرسلها النبي صلى الله عليه وســلم إلى القبائل والبلاد التي قبلت الدعوة، وقد عرفوا في كتب السيرة باســم المصدقين، وأغلبهم أرسل في المحرم سنة ٩هـ[١٦٠]:

١ـ عيينة بن حصين	إلى بني تميم
٢ـ يزيد بن الحصين	إلى أسلم وغفار
٣ـ عباد بن بشير الأشهلي	إلى سليم ومزينة

(١٦٠) سيرة رسول الله، د.محمد حبش، طبع دار أفنان، دمشق، ١٩٩٤

٤ـ رافع بن مكيث	إلى جهينة
٥ـ عمرو بن العاص	إلى بني فزارة
٦ـ الضحاك بن سفيان	إلى بني كلاب
٧ـ بشير بن سفيان	إلى بني كعب
٨ـ ابن اللتبية الأزدي	إلى بني ذبيان
٩ـ المهاجر بن أبي أمية	إلى صنعاء (وخرج عليه الأسود العنسي وهو بها)
١٠ـ زياد بن لبيد	إلى حضرموت
١١ـ عدي بن حاتم	إلى طيء وبني أسد
١٢ـ مالك بن نويرة	إلى بني حنظلة
١٣ـ الزبرقان بن بدر	إلى بني سعد (إلى قسم منهم)
١٤ـ قيس بن عاصم	إلى بني سعد (إلى قسم آخر منهم)
١٥ـ العلاء بن الحضرمي	إلى البحرين
١٦ـ علي بن أبي طالب	إلى نجران (لجمع الصدقة والجزية)

وقد كان لهؤلاء المبتعثين أبلغ الأثر في انتشار الإسلام في جزيرة العرب وما حولها، وكذلك بنشر ثقافة الحوار والإخاء، والحجة والبرهان بدلاً من ثقافة الحرب والعنف التي كانت تفرض سطوتها في الحياة العربية.

وقد تكرر هذا النموذج في العصر الراشدي حيث كان جيش الفتح يتقدم قوافل الدعاة الذين كانوا يقومون بواجبات هامة غير سياسية في البلاد المفتوحة، وكان من عادة الخلفاء أن يرسلوا إلى الأمصار المفتوحة عدداً من العلماء المشهود لهم بالحجة والبرهان فيكونون في كنف الدولة الجديدة يتولون مهام ثقافية وعلمية غير سياسية.

وخلال التاريخ الإسلامي فقد كانت قوافل الدعاة إلى الله تقوم بواجب كبير في شرح هدايات الإسلام وتبادل الثقافات في البلدان التي ينتقل فيها المسلمون، وفي الواقع فإن وجود هذه الخلايا من الدعاة هي التي تفسر التحولات الكبرى إلى الإسلام عبر التاريخ.

ونشـير هنا بشكل خاص إلى تحول أندنوسـيا وأرخبيـل الملايو وقسم كبير من القارة الهندية إلى الإسلام وهي بلاد يزيد فيها عدد المسلمين عن نصف مليار إنسان تحولوا إلى الإسلام بدون حروب ولا دماء.

وفي هـذا السيـاق فإننـي أختار مثلاً واحداً لمـا يمكن أن تقوم بـه هذه القوافل الإرشـادية (الملحقيات الثقافية) وهو ما دونه الشاعر الإسلامي الكبير محمد إقبال في رائعته الشهيرة شـكوى وجواب شـكوى، ففيها يذكر إقبال غزو المغول والتتار الذيـن اكتسحـوا العالم الإسـلامي في القـرن السابع الهجري وحطمـوا حضارات الإسلام بشكل مريع من خوارزم إلى الري فنيسابور وأصفهان وشيراز حتى وصلوا بغداد وحطموا الخلافة الإسـلامية فيها، فقد كـان المشهد مريعاً عام ٦٥٦هـ حين سقطت بغداد بيد المغول وعاثوا فيها فساداً وإجراماً، وقام هولاكو بوضع الخليفة المستعصم في كيس وأمر الخيل أن تمر فوقه حتى تمت تسويته بالأرض، وتحطمت الجيوش الإسلامية أمام المد المغولي الكاسح.

ولكن هذه الصورة المدمرة سرعان ما تغيرت خلال سنوات قليلة، حيث بدأ المغول يتحولون تدريجياً إلى الإسـلام الذي حاربوه بـكل ضراوة، وأخذ ملوكهم يعتنقون الإسـلام الواحد بعـد الآخر،وبدأ العالم يتحدث عن دول إسـلامية مغولية، كالدولة السبكتكينية المغولية والدولـة القبجاقية المغولية والدولة الهمايونية المغولية وهي دول حكمها المغول ولكن في ظلال الإسلام.

لا يملـك المؤرخـون تفسيراً لهـذه الظاهرة العجيبة التي غيرت شـكل العالم في القـرن السابـع الهجري، حيث لا يوجد نصر عسكري ماحـق تحول به المغول إلى الإسـلام، ولكنها نشاطات الدعاة الذيـن كانوا يعملون كملحقيـات ثقافية بغطاء دبلومـاسي حيناً وبدون غطـاء حيناً آخر، حتى تمكن هؤلاء من إقناع عدد من قادة المغـول بالقيم الإسـلامية العظيمة، وقـد رأينا تحولات هامـة في الزعماء المغول إلى الإسـلام، واليوم فإن أعظم المساجد والمدارس والمشافي والحدائق في شـمال الصين والهند وآسـيا الوسـطى هي التي بناها المغول المسلمون بيد كريمة طافحة بالفن والثراء الثقافي والروحي.

وفي هذا المعنى يقول إقبال:

بغت أمم التتـــار فأدركـتها من الإيمـــان عاقبة الأمـاني
وأصبح عابدو الأصـنام قدمـا حمـاة البيت والركن اليمـاني

وكذلـك فإن هذا النشـاط الثقافي تحرك أيضاً داخل المجتمع الإسـلامي، وأنجز المسلمون خلال التاريخ تواصلاً ثقافياً عجيباً، ربط أمصار الإسلام بعيدها وقريبها بأوثـق ربـاط على الرغم من عـدم توفر وسـائل الاتصال والمواصـلات بين الغرب والشرق في تلك القرون.

ومـن الشواهد على هذا المعنى أن الإمام ابن عساكـر صنف كتابه الكبير تاريخ دمشـق، وأرخ فيـه لكل مـن كتب عن دمشـق أو تعلـم أو علم فيهـا، أو أقام بها زمنـاً، ولـدى متابعة رجال العلم خلال التاريخ الذيـن تفاعلوا في بلد كدمشق مثلاً فستقف على مئات الرازيـين والبصريين والبغداديين والنيسابوريين والأصفهانيين والأرضروميين والأنطاكيين والشيرازيين والبخاريين والجرجانيين الذين وفدوا من عواصـم مختلفة في العالم الإسـلامي ونزلـوا بالشام وعلموا فيهـا، وتركوا أثراً من العلم والمعرفة فيها.

والأمر نفسه في شـأن مـن ترجم لبغـداد ونيسابور والري وشـيراز وأصفهان والبصرة والكوفة والقاهرة ومكة والمدينة وغيرها من حواضر الإسـلام الكبرى التي سعدت بنور الإسلام.

إننـي لا أزعم أن ذلك تم في إطار ملحقيـات ثقافية بالمعنى الدبلوماسي الحديث ولكن التقاليد والآداب التي كانت تغلب في العالم الإسلامي في قيام الولاة والسلاطين باسـتقبال العلماء وتكريمهم وبيان منازلهم وتقديمهـم للناس ونشر علمهم، هي التي أسـهمت بـأن تتم تلك التحـولات الكبرى في إطار مجتمعـات عظيمة اعتنقت الإسـلام، فلـم يكن مسموحاً عـلى الإطلاق للفاتحـين أن يتدخلـوا في عقائد الناس وكانت تحكمهم الآية الكريمة: ﴿لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾، ولكن هذا الدور البناء نهضت فيـه الملحقيـات الثقافية المتطوعة أحياناً والمكلفة من الدولـة أحياناً أخرى، بغطاء

دبلوماسي أو بدون غطاء، حيث كان وصول العالم إلى عاصمة إسـلامياً حدثاً كبيرا ينشغل بـه الرأي العام وتقام في إطاره ندوات ومحاضرات ولقاءات وإجازات. كل ذلـك كـان يحقق تماماً أهداف الملحقيـات الثقافية في العالـم الحديث من دون أن تكون هذه النشاطات تحت اسم الملحقيات الثقافية.

سفارة الحج:

اشـتهرت سـفارة الحج تاريخياً، وقد اهتم بها الخلفاء خـلال التاريخ اهتماماً بالغـاً، وكان لكل دولة إسـلامية سـفيرها ووفدهـا إلى الحج، وكانت مهام سـفير الحج سياسـية ودبلوماسية في المقام الأول، حيث يتولى التنسيق مع الوفود الأخرى والقيادات المحلية في الحج، ويعتبر ممثلاً للخليفة أو للسلطان أو الأمير الذي ابتعثه، ومن مهامه الاعتناء بالحجاج وتوفير الأمن لهم عبر إجراء التحالفات الدبلوماسـية مع الدول والقوى التي كانت تحكم طريق الحج، ومع زعماء مكة المحليين.

ولا نقصد بسفير الحج هنا فقيه المناسك، فقد كان في وفد الحج دوما مرشدون وفقهـاء ووعـاظ، وكذلك أطباء ورجـال أمن، ولكن مهامهم كانـت لا تمس الشأن الدبلوماسي الذي كان يتولاه عادة أمير الحج المكلف دون سواه.

وقـد اهتمت الدول الإسـلامية المتعاقبة بمحمل الحج، وطقوسـه وتقاليده، ففي دمشق مثلاً كان الخليفة الأموي يتولى بنفسه الإشراف على هدايا الحرم الشريف، حيث كانت كسوة الكعبة يتم إعدادها في بلدة الكسوة في أطراف دمشق، وكان زيت الحرمين والمسجد الأقصى يتم اصطفاؤه من نقي الزيت وطاهره، وتخصص له مراكب خاصة، وكان محمـل الحج يتحرك في موكب مهيب في أجواء احتفالية حيث يصل المحتفلون إلى ثنيات الوداع الشامية، عند الكسوة حيث يعقد الخليفة نفسه أمير الحج، ويتفقد مراكب الزيت والكسوة، ويودع المحمل في غاية من الأبهة والفخامة والطقوسية.

وقـد حافظ حكـام بلاد الشـام والعراق ومصر على هـذه التقاليـد وطوروها، وإنـك تجـد في أدبيات هذه الدول بالـغ الاهتمام بمحمل الحج ودلالاته السياسـية والاجتماعيـة والدينية، ولربما الأخبار نفسها فيما يخص إرسـال الكسوة والهدايا والزيت للبيت الحرام ومسجد المدينة والقدس.

وكان أمــير الحج مكلفاً بإجراء صفقات سياســية ودبلوماســية كبيرة، ومراراً كانت ســفارة الحج تتولى عقــد تحالفات جديدة مع الحكــام المحليين أو مع أمراء الحج القادمين من بلدانهم بصلاحيات واســعة، وكان يتم توقيع اتفاقات كهذه في جوار الكعبة المشرفة للإفادة من ظلالها الروحية وتأثيراتها الرمزية.

ومــع أن مهمة أمير الحج مرتبطة تماماً بالمناســك التي جــاء بها النبي الكريم، فإن علينا القول أن هذه السفارة كانت موجودة قبل الإسلام، وكانت أسواق عكاظ والمجاز ومجنة مناســبة موسمية ســنوية لعقد التحالفات السياسية والدبلوماسية وكان العرب يعتبرون أن حلف البيت الحرام أوثق وأحكم وأحزم.

وقد قام النبي الكريم بإقرار هذه الحقيقة وترويجها والاستفادة منها تماما، فقد كان ينتظر المواسم ليلتقي أمراء الحج الوافدين في قوافل أقوامهم، وقد اشتهر نشاطه في الموســم، ولقاءاته بأمراء الحج الوافدين، من تميــم وهذيل وكندة واليمن والشام والعراق، واشــتهر بشكل خاص حواره مع وفد الحج القادم من الحيرة وفيه زعماء المنــاذرة المفروق بن عمــرو وهانئ بن قبيصة والمثنى بن حارثــة، وكذلك وفد كندة ووفد الطائف، وأخيراً وفد يثرب من الأوس والخزرج الذي عقد اتفاقية بالغة الأهمية مع الرسول الكريم في العقبة بمنى، وهي اتفاقية قدر لها أن تغير وجه التاريخ.

وكان أول أمير للحج في زمن النبوة عتاب بن أسيد الذي ولي هذه المهمة في السنة الثامنة بعد أن تم الفتح، ثم أرســل النبي الكريــم في السنة التالية أبا بكر الصديق أمــيراً على الحج في ســفارة هامة وتاريخية، ثم أتبعه بعلي بــن أبي طالب في مهمة خاصة لتلاوة ســورة براءة، وإنهــاء البلاغات السابقة فيما يخــص التحالفات مع القبائل العربية وبناء عقود جديدة مع العرب الذين رفضوا الدخول في الإسلام.

كما أن سفارة الحج تعاظمت أهميتها في عهد الدولة الأيوبية والنورية والمماليك، وأضيفــت إلى مهام أمير الحج مسؤوليات متعددة منهــا الإشراف على أوقاف البلد الحرام، وتطويرها، وقد كان من دأب الملوك والأمراء أن يقوموا بتطوير هذه المناسك والمرافق وترك بصمة ترتبط تاريخياً بالخليفة المذكور.

أما الدولة العثمانية فقد اهتمت اهتماماً بالغاً بسفارة الحج، وكان منصب أمير الحــج لا يناله إلا كبــار رجال الدولة بعد خدمات جليلة مشهورة، وكان على الأغلب قائداً عسكرياً شــهيراً، لأن الحملة مسؤولة عن أمن الطريق إلى الحج، كما كان من مهمته إقامة الخانات والنزل على الطرق وتأمين حمايتها وخدماتها، كما كان يحمل عادة إلى أهل الحجاز مراســيم ســلطانية بالإعفاء من الضرائب والرسوم لكل أهل الحجــاز، ويقوم بتوزيع الصرة الهمايونيــة على أهل المدينة من الأشراف والمقدمين وهي هدايا ســلطانية متميــزة تخصص للأشراف وأهل البيــت وزعماء الحجاز في مكة والمدينة.

كما كــان موكب الحج يودع في احتفالات مهيبة على أطــراف المدن التي يتحرك منها الحجاج عند ثنيات الوداع منها، وكان فيها المحمل وهو مجسم للكعبة المشرفة على مخمل أســود يوضع على ظهر بعير يتقدم القافلة، والسنجق وهو علم رســول اللــه يوضع على ناقة خاصة، وكان الموكــب يشتمل عادة على الزيت والشموع التي تهدى للحرم الشريف.

كما رسم العثمانيون بتعيين سردار الحج وهو نقيب الحجاج ومقدمهم، ومفتي الحــج وفقيه المحمل، واختصــوا الحج الشامي بمنصب أمير الركب الذي كان عادة أحد الباشوات الكبار، وكان الحج يبدأ من إسطانبول من الأستانة برعاية السلطان العثمانــي نفسه ويضم حجاج إســطانبول وبلاد القوقاز والبلقــان وينضم إليهم على الطريق حجــاج الأناضول والأنطاكية وحلب وحمــاه وحمص ولبنان ويكتمل اجتمــاع الموكب في الشام الشريف عند مزاراتها، ثــم يتم وداعهم إلى مدينة الكسوة جنــوب دمشق على ثنيات الوداع في الشام حيث يتــم تحميل كسوة الكعبة المشرفة منها، وكان كل والي عثماني مكلفاً بتأمين أمن الطريق للقافلة إلى حدود الوالي الذي يليــه، وكان لكل محمل مــن محامل الحج منازله ومراتعــه في الحرمين وفي أماكن المناســك، وكان أمراء الحج يعاملون كدبلوماســيين رفيعي المستوى لدى كل البلاد التي يمرون بها، وبشكل خاص لدى أمير مكة.

كما تم استحداث «صُرَّه آلايي»، وهي القوات التي كانت تقوم بالإعداد للاحتفال

لخـروج الـصرة والمحمل وموكب الحج مـن أمام القصر السلطانـي، ثم يناط بها الحفاظ على الصرة والمحمل وقافلة الحج، حتى تصل وتعود في أمن وسلام.

وكـان أمين الصرة الهمايونية يُختار في معظم الأحيان من بين كبار العسكريين المشهـود لهم بالتميـز العسكري والتدين وحسـن السير والسلـوك والتقى الورع وطهـارة اليـد والعدل، حتى يشرف بنفسه عـلى القوات المرافقـة للمحمل، وقافلة الحـج. كما يقـوم بتسليم الفرمان الخـاص بتوزيع أموال الـصرة الهمايونية على الحرمين الشريفين وأوجه التصرف والصرف منها إلى شريف مكة ومشايخ الحرمين الشريفـين، بحضور رجالات الدولة العلماء وقـادة القوات الموجودة في كل من مكة والمدينة وجـدة والطائف، وأمراء قوافل الحج. وكان يشرف بنفسه باعتباره ممثلا للسلطان العثماني على أداء المناسـك وحفظ الأمن والأمان خلال موسـم الحج كله، إلى أن تغـادر القوافل كلها المدينتين المباركتين عائدة إلى بلادها، فيعود أمين الصرة بعد أن يكون قد أشرف أيضا على توزيع الأوقاف والمخصصات على أهالي الحرمين، فيقدم تقريرا مفصلا إلى الصدر الأعظم وشـيخ الإِسـلام في الآسِتانة، وبعدها يمثل بـين يدي السلطان ليقدم تقريره عما أنجزه في موسـم الحج ومرئياته ومقترحاته للموسم القادم[١٦١].

وكمـا هو ظاهر فإن أمير الحج كانت له صفة دبلوماسـية متميزة، وكان يمثل السلطان العثماني في كل ما يتصل بشؤون الحرمين ومنطقة الحجاز وطريق الحج.

ومن الناحية الدبلوماسية تعتبر سفارة الحج نوعاً ممتازاً من التمثيل الدبلوماسي فـوق العادة، كما أن المناصب المرافقة لإمارة الحج كأمين الصرة وأمين المحمل هي أيضاً مناصب دبلوماسـية، وربما تتمكن الدول الإسلامية ومراكز أبحاث الحج من توصيف شـكل دبلوماسي مناسـب لهذه المناصب يحقق المصالـح المشتركة للدول الإسلامية في أكثر من جانب.

---

(١٦١) مقـال للدكتور الصفصافي أحمد القطوري، جامعة عين شـمس، مجلة حـراء، العدد، ٢ ، يناير ٢٠٠٦

الفصل الثاني

القيم الدبلوماسية في الإسلام

- آداب السفراء
- مبدأ المعاملة بالمثل
- مسؤولية السفير بين وطنه ودار إقامته
- الدبلوماسية واختلاف العقائد

آداب السفراء:

أشار القرآن الكريم إلى جملة من الوصايا لمن ينوب عن الأمة في خدمة مصالحها، وكذلك جاءت السنة المشرفة بعدد من هذه الوصايا الحكيمة، وهي آداب لا تختلف كثيراً عما اعتمده المجتمع الدولي في إطار العلاقات الدبلوماسية والإنسانية بين الأمم والشعوب.

ومع أنه لم يتم تحرير هذا الباب مستقلاً في الفقه الإسلامي من قبل ولكننا سنحاول الاقتراب من هذه الغاية، وفق هَدي الكتاب ونور السنة المشرفة.

ومن أقدم النصوص في أدب السفراء ماجاء في كتاب (أخلاق الملوك) للجاحظ المتوفى عام ٢٥٥ هجرية تحت عنوان «آداب السفير» مانصه:

«ومن الحقِّ على الملك أن يكون رسولُه صحيح الفِطرة والمزاج، ذا بيانٍ وعبارة، بصيرًا بمخارج الكلام وأجوبتِه، مؤدِّياً لألفاظ المِلك ومعانيها، صادق اللَّهجة، لا يميل إلى طمَعٍ أو طبْع، حافظًا لِما حمِّل، وعلى الملك أن يمتحنَ رسولَه محنةً طويلة قبل أن يجعلَه رسولاً[١٦٢].

وقد امتلأت كتب الأدب بالوصايا الكثيرة التي كان يزود بها السفراء لدى

---

(١٦٢) أخلاق الملوك، للجاحظ، ص ١ - ٢٥

ابتعاثهـم في مصالح الأمـة، وفيما يلي طائفة من الآداب التـي ينبغي أن يتحلى بها السفير وفق ما أرشد إليه فقهاء الإسلام ودلت عليه مبادئ الشريعة.

الأمانة والدقة فيما يوكل إليه من مهام:

إن الصفـة التمثيلية للسفـير تحتم عليه الدقة فيما يتخذ من موقف وفيما يقدم مـن رأي، فأنت هنا لا تمثل نفسك وإنما تمثل من أوفدوك، وحق الأمة هنا مؤكد في محاسبته في كل ما يقول ويفعل.

وهذه النزاهة الدبلوماسـية حـق وواجب، وعلى الدولة أن توفـر ظرف النزاهة للرسـول المبتعث منها وللرسـول الوافد عليها، وإن أي ضغـط على السفير لتقديم خلاف ما كلف به يعتبر خيانة للنزاهة الدبلوماسية التي ينبغي أن تتوفر في سلوك السفير.

وقـد دل على ذلك عمـوم المعنى في النص القرآنـي: ﴿إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُكُـمْ أَن تُؤدُّواْ الأَمَانَـاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُواْ بِالْعَدْلِ﴾، والسفارة وكل ما خولتك الأمة من واجب فيها أمانة يتعين أداؤها للأمة على وجه صحيح من الأداء.

وفي القـرآن الكريـم كثير من الوصايا التـي تأمر الإنسان بمراقبـة الله في قوله وفعله، فإن الله بصير رقيب، وما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد.

ومن المواقف الدقيقة في هذا الجانب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم استقبل أبا رافع رسولاً من قريش، فاستمع إليه، ولكن هذا الرسول سرعان ما تأثر بالنبي الكريم صلى الله عليه وسـلم، ورغب في الإسـلام، ولكن رسـول الله صلى الله عليه وسـلم لم يقبل منه الإسـلام وهو في مهمته الدبلوماسـية احتراماً وتثديراً لصفته التمثيليـة، ووفاء بالعهد الـذي التزمه من قبل، وما يترتب عليـه من نقل الحقيقة للقوم، وفق الأصول الدبلوماسية.

وفي عبارة بالغة الوعي بالآداب الدبلوماسية الرفيعة، قال له رسول الله: «إني لا

أخيس بالعهد، ولا أحبس البرد، ولكن ارجع إليهم، فإن كان في قلبِك الذي فيه الآن، فارجعْ إلينا»[١٦٣].

وفي هـذا الموقف النبوي الحكيـم دلالة عظيمة من وجهين، فهـي احترام لأمانة الرسـالة التي كلف بها رسول قريش من جانب، وهي من جانب آخر دعوة للتأمل والدراسـة والاستبصار في اختيار العقيدة، فقد يكون الرجل قد تأثر بالجو المحيط به، فأراد رسول الله له أن يدخل الإسلام عن قناعة ويقين.

وبالفعـل فقد عاد أبو رافع إلى قريش وأدى رسـالته تمامـاً كما كلفوه، ثم أقام أياماً ولحق بالنبي صلى الله عليه وسلم في المدينة.

وقـد تكرر هذا الأمر في كثير من المفاوضين ومنهم أبو العاص بن الربيع وعروة بـن مسعود الثقفي وبديل بن ورقاء الخزاعـي والحليس بن علقمة وآخرون كانت تنشرح صدورهم للإيمان ولكن رسول الله لا يقبل منهم نقض عهدهم لمن أرسلهم بل يأمرهم أن يراجعوا أنفسهم بعد أداء مهمتهم الدبلوماسية والتفاوضية.

التزام مبادئ القدوة في السلوك الشخصي:

السفير ليس حراً في اختيار سلوكه، بل إن واجبه المهني يفرض عليه التخلي عن كثير من رغائبه، ويتوجب عليه اجتناب كثير من الشبهات حتى لا يقع في المحظور.

وفي القرآن الكريم وصايا واضحة في هذا المعنى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾، وفيه قوله تعالى:﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ﴾.

وفي هذا السياق فإن من حق الدولة وضع آلية مراقبة لسلوك السفراء، والتزامهم بمعايير الاسـتقامة والعفـاف في كل أحوالهم، مع التأكيد أنه ليس ثمة من سـبيل يمكن أن تحقق الرقابة التامة على سلوك الإنسان إلا ضميره وخوفه من الله.

---

(١٦٣) والمعنـى لا أحبـس البرد أي لا أحبس البريد، بل يجب أن أيـسره ليصل إلى غايته، رواه الترمذي والنسائي وأحمد في مسنده، ج ٦، ص ٨

وقــد ذكرنــا طرفاً من هذه المسؤوليــة في باب تعيين السفــراء، وفي هذه النقطة بالــذات تختلف النظرة الإســلامية عن النظرة المادية، ففي حين يؤكد الإســلام على التزام القدوة الصالحة لمن يلي شيئاً من أمر الأمة فإن النظرة التقليدية في الغرب لا تعير أهمية لمبدأ القدوة الصالحة، وتعتبر ذلك من شأن الحريات الشخصية، وتلتزم الثقافة الغربية عموماً مبدأ حرية الإنسان الشخصية، وتعتبر ســلوكه خارج أوقات الدوام الرســمي شأناً شــخصياً لا صلة لأحد به في حين أن الإسلام يأمر بالاستقامة في كل حال.

حــق على من يصعــد المنــبر أن يــترك الفحــشاء والمنكــر
ويحســن القــول الذي قالــه ويحســن الســر الذي أضمــر

ويجــب القــول إن ما ذكرناه عــن الإفراط في منــح الموظف الحكومــي الحرية الشخصيــة خارج وقت دوامه ليست شــأناً مطــرداً في الغرب،بــل إن الوعي العام ومؤســسات النزاهة والعدالة والأسرة لا تزال تناضل من أجل حق الناس في مراقبة سلوك المسؤول الحكومي ومحاسبته في سائر شؤونه.

الاعتناء بالمظهر وإظهار الهيبة في غير مخيلة ولا إسراف:

السفير يمثل الدولة والشعب، وعليه أن يحافظ على هذه الصورة في عيون الناس، وليــس التواضع محموداً في كل حال، بل المطلوب هنا تمثيل البلاد بما يليق بكرامة أهلها وحسن شمائلهم.

وقــد يكون من طبع السفير البساطة والتواضــع، ولكن ما ينبغي أن يظهره في منزله ومكتبه ودعواته إنما هو سمعة بلاده ومكانتها وليس شمائله الشخصية.

وكان من شــمائل النبي صلى الله عليه وســلم أن يلبس أحسن اللباس ليستقبل الوفــد، وكــان له دلــو ماء يكــور عمامته عليه ليطــل على الناس بما يتناســب من إناقــة وحسن مظهر، وعــن عُروة: «أن ثوب رســول الله الذي كــان يَخرج فيه إلى الوفــد رداء حضرمــي وإزاره من نسج عُمان كان يلبسهما يــوم الجمعة والعيدين

ثـم يُطويـان»[١٦٤]، وعن جابر: «كان رسـول اللـه يَلبس بُرْدَه الأحمـر في العيدين والجمعة».

ولا يوجـد كتاب في الفقه الإسـلامي إلا وفيه باب اللبـاس، وبيان ما يحسن وما يقبـح مـن اللباس، وهو ما بينه القـرآن الكريم بقول الله تعالى: ﴿يَـا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًـا يُوَارِي سَـوْءَاتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْـوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾[١٦٥]. وقد أوصت الشريعة بنظافة البدن والثوب والمكان، وعند رسول الله من خصال الفطرة تقليم الأظافر والأخذ من الشارب والطيب.

وكـان رسـول الله صلى الله عليه وسـلم يقـول: «حبب إلي مـن دنياكم الطيب والنسـاء وجعلت قرة عيني في الصلاة»، وكـان لا يخرج إلى الناس إلا مطيباً، وكان يعجبـه المسك والزعفران، وقد رويـت هذه الشمائل كلها في أبـواب السنن النبوية فكانت دليلاً واضحاً على وجوب العناية بالمظهر الحسن في الإسلام[١٦٦].

وعن ابن مسعود أن رسـول الله صلى الله عليه وسـلم قال: «لا يدخل الجنة من كـان في قلبـه مثقال ذرة من كـبر»، قال رجل: «إن الرجل يحـب أن أن يكون ثوبه حسنـا ونعله حسنـة، فهل ذلك من الكـبر؟» فقال صلى الله عليه وسـلم: «أن الله جميل يحب الجمال، الكبر بطر الحق وغمط الناس[١٦٧].

ومع أن رسول الله كان أعظم الناس تواضعاً وأشدهم بساطة، ولكنه كان أيضاً كما وصفه الله: «أعزة على الكافرين أذلة على المؤمنين، رحماء بينهم»، ولا تناقض بين البساطة الشخصية وبين إظهار منزلة الدولة في الهيبة والمقدرات والكفاية والوفرة.

---

(١٦٤) المختصر الكبير في سيرة الرسول، عز الدين بن جماعة الكتاني، ج ١، ص ٨٢

(١٦٥) سورة الأعراف، الآية ٢٦

(١٦٦) قال العراقي في ألفيته في شمائل النبي الكريم:

الطِّـيبُ والنسَـاءُ حُبِّبَـا لَـهُ ... ويَكـرَهُ الريحَ الكَريهَ كُلَّهُ

وطِـيبُهُ غَالِيَـةٌ ومِسْـكُ ... والمِسكُ وحدَهُ كذاكَ السُّكُّ

بَخُورُهُ الكافورُ والعُودُ النَّدي ... وعَـينُهُ يَكْحُلُهَـا بالإثمِـدِ

ألفية العراقي، ص ٢٠

(١٦٧) صحيح مسلم، ج ١، ص ٦٦

ولعل مما يشكل هنا الموقف المشهور لعمر بن الخطاب الذي شرحه حافظ إبراهيم بقوله:

وراع صاحب كسرى أن رأى عُمراً ... بين الرعية عطلا وهو راعيها
وعهده بملوك الفرس أن لها ... سوراً من الجند والأحراس يحميها
رآه مستغرقا في نومه فرأى ... فيه الجلالة في أسمى معانيها
فوق الثرى تحت ظل الدوح مشتملاً ... ببردة كاد طول العهد يبليها
فهان في عينه ما كان يكبره ... من الأكاسر والدنيا بأيديها
وقال قولة حق أصبحت مثلا ... وأصبح الجيل بعد الجيل يرويها
أمنت لما أقمت العدل بينهم ... فنمت فيهم قرير العين هانيها
وفر شيطانها لما رأى عمراً ... إن الشياطين تخشى بأس مخزيها

والواقع أن هذا الموقف لأمير المؤمنين عمر يعكس البساطة التي كان يعيشها الناس في المدينة، والأمن الذي حققه الإسلام، ولا أشك أيضاً أنها كانت رسالة دبلوماسية مباشرة أراد عمر بن الخطاب أن يرسلها إلى كسرى المشهور بالأبهة والبذخ والترف، أن المسلمين ليسوا بأصحاب مطامع دنيوية، إنما لهم رسالة هدى ونور، وأن قصور الدنيا ليست في أعينهم ولا مطامعهم، وإنما مرادهم أن يكسروا سلطان المستبدين عن الناس، ويمنحوهم الحرية التي قال عنها عمر في خطابه: «يا عمرو.. متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً».

ومع محافظة عمر على هذا اللون من البساطة، ولكنه أقر معاوية في الشام حينما أظهر أبهة الملك، وحين اعترض أبو ذر على اتخاذه قصر الخضراء وما وضع فيه من مظاهر الملك والأبهة والنفائس، وقد كتب عمر لمعاوية في ذلك فقال: «يا أمير المؤمنين إن أهل الشام أهل ملك، فأخاف إن صرفت عنهم ذلك أن نهون في أعينهم، وإنه لا يصلح لهم إلا هذا...» فرضي عمر منه ذلك، وأقر مبدأ اختلاف الأحوال باختلاف البلدان.

احترام التقاليد الدبلوماسية ما لم تتعارض مع قيم الإسلام:

إن قيـام السفراء بالتزام معايـير التقاليد الدبلوماسـية في الإتيكيت والتواصل والمجاملـة هي أمور محمودة، تنفيذاً للعقـود التي تعاقد عليها هؤلاء السفراء، قال تعالى: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾[١٦٨].

ولكن ذلك يجب أن لا يتناقض مع قيم الإسلام الكبرى، ويجب القول إن الإسلام لم يفصل كل حلال وإنما اكتفى بتفصيل الحرام، وقد قال الله تعالى: ﴿وَقَدْ فَصَّلَ لَكُـمْ مَا حَـرَّمَ عَلَيْكُمْ﴾[١٦٩]، ولـم يقل وقد فصل لكم ما أحل لكـم، فالحلال أصل والحرام طارئ، وفي باب الطعام والشراب فإن الحرام الذي لا لبس فيه هو ما جاءت به الآية الكريمة: ﴿قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهَا إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَـةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنْزِيرٍفَإِنَّهُ رِجْـسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ﴾[١٧٠]، ثـم نـزل تحريم الخمر في آية صريحة: ﴿يَا أَيُّهَـا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَـا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ».[١٧١]

ويستطيـع السفراء أن يتجنبوا هذه المحرمات الخمسـة، ويكون كل ما وراءها على الأصل الذي أحله الله، ولا يحرم إلا ما ثبت ضرره بدليل صحي بين، وهذا قدر يشترك فيه كل العقلاء.

إن مجـاراة العرف الدبلومـاسي في أكل لحم الخنزير وشرب الخمر يتناقض مع القيم الإسلامية التي جاءت صارمة في تحريم هذين اللونين من المطاعم.

ويجب القول إن الدبلوماسية العالمية ناضجة وواعية ومرنة، ويدرك الدبلوماسيون الخبراء من كل الأمم خصائص هذه الشريعة، ويحترمونها، وهذا اللون من الاحترام هو أبسط قواعد الدبلوماسية، والتزامه يعكس وعياً دبلوماسياً لدى الفريقين.

والأمـر نفسـه يتعين في السفـير الذي يخدم في بـلاد يلتزم أهلها طعامـاً نباتياً

(١٦٨) سورة النحل، الآية ٩١
(١٦٩) سورة الأنعام، الآية ١١٩
(١٧٠) سورة الأنعام، الآية ١٤٥
(١٧١) سورة المائدة، الآية ٩٠

اتباعـاً لأديانهم فلا يصح أن يقدم لهم أطباق مما يعتقدون حرمته، وكذلك ينبغي الانتبـاه إلى الموائد التي تقدم للمسيحيين خلال الصوم الكبير قبل الفصح في الدول التـي تتبنى التقاليـد المسيحية فلا ينبغي أن يقدم لهم اللحم خلالها، وإنما شـأن الدبلوماسية أن تجامل ضيوفها تقديراً لمذاهب الناس وقناعاتهم.

ومـن التقاليد التي لا تجـوز المجاملة فيها السجود للحاكـم أو الملك، فهذه قيم تتناقض مع روح الإسـلام ولا يؤذن للسفير بأن يجامل فيها، وقد سبق إلى إنكارها طلائع السفراء الذين أرسلهم النبي الكريم في الآفاق ورفضوا السجود لغير الله.

﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾(١٧٢).

وقال: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾(١٧٣).

معرفة ثقافة البلد التي يرحل إليها:

إن معرفـة السفير بثقافة البلد التي يعمل فيهـا ضروري لتحقيق نجاحه، وقد رأينـا في سـفراء النبوة حسن الاختيار الذي قام به النبـي الكريم حيث كان يختار الرجل المناسب في المكان المناسب.

وقـد وردت الإشـارة مراراً في وصايا النبي الكريم للسفـراء بالإطلاع على ثقافة البلد التي يعملون فيها، وفي وصيته لمعاذ بن جبل قال له:

«إنك تقدم على قوم أهل كتاب، فليكن أول ما تدعوهم إليه عبادة الله، فإذا عرفوا اللـه فأخبرهم أن الله فرض عليهـم خمس صلوات في يومهـم وليلتهم، فإذا فعلوا فأخبرهـم أن الله قد فرض عليهم زكاة تؤخذ من أغنيائهم فترد على فقرائهم، فإذا أطاعوا بها فخذ منهم وتوقَّ كرائم أموالهم»(١٧٤).

---

(١٧٢) سورة الأنبياء، الآية ١٠٨

(١٧٣) سورة فصلت، الآية ٣٧

(١٧٤) رواه الترمذي في سننه، ج ٣، ص ٥، كما رواه ابو داود والنسائي وابن ماجة وأحمد

وفي هذه الوصية النبويــة الكريمة توجيه دقيق بوجوب الإطلاع على ثقافة البلد التي يعمل فيها السفير، وأولها تذكيره بما لدى القوم من علم بالكتاب القديم، وأن عليه أن يكون على دراية ومعرفة بثقافة القوم.

وتجدر الإشــارة هنا إلى أن اليمن كانت تاريخياً تتبع مكة في أمر حجها ونسكها وعبادتها، وبعد انتشار أمر الإســلام دخلت قبائل اليمن في الإســلام وجاءت الوفود إلى النبي صلى الله عليه وســلم من اليمن، وقد أرســل رسول الله إلى اليمن عدداً من الصحابة الكرام في مهام دبلوماســية وقضائيــة مختلفة، منهم معاذ بن جبل وأبو موسى الأشعري وعلي بن أبي طالب.

وكان موقع دبلوماسي النبوة في اليمن أشــبه ما يسمى اليوم بالمفوض السامي، وهي رتبة دبلوماسية تتجاوز رتبة الوزير المفوض كما تتجاوز رتبة السفير، وهي ســفارة خاصة بالدولة الكبرى التــي تقود روابط سياســية تاريخية كالكومنولث البريطاني الذي يمنح ســفراء بريطانيا صفــة المفوض السامي في دول الكومنولث التــي لا تزال تحت العلم البريطاني، وفي هــذه الحالة فالسفير هنا لا يتقدم بأوراق اعتمــاده للدولة المضيفة ولديه اســتثناءات كثيرة وهي عادة محــل ترحيب الدولة العضو في هذه الرابطة لأن المنفعة متبادلة بين الفريقين.

وكما هو واضح من خطاب الرسول الكريم فقد كلفه بالتزامات مباشرة في جمع الزكــاة وجباية الخراج، ولكــن كما هو واضح فقد اعتبر ذلــك موقوفاً على موافقة القيــادات المحلية في اليمن، قال: «فــإن هم أطاعوك فأخبرهم»، وفي الوصية النبوية أن الزكــاة تؤخذ من أغنيائهم وتدفع إلى فقرائهم، وهذا إقرار بلون من الاســتقلال الاقتصادي لشعب اليمن، ولكن ذلك كله كان مقيداً بطاعتهم ودخولهم في الإســلام هو الذي منحه صفة السفير السامي، ولولا ذلك فإنه ليس له عليهم سلطان.

احترام القوانين المحلية والالتزام بعادات الناس وتقاليدهم:

من شـأن السفـير أن يلتزم بمـا تعارفه النـاس في البلد التي يعمـل فيها، وفي الوصيـة السالفة التي قرأناها نلاحظ أن النبي الكريـم أمر معاذاً أن يتوقى كرائم أمـوال القـوم، وفي ذلك إشـارة واضحة إلى احـترام عاداتهم وتقاليدهـم، واعتبار خصوصياتهم في الادخار والتنمية.

وكما هو واضح فإن الأوامر التي تلقاها معاذ كانت بصفته سفيراً وليس بصفته حاكمـاً، وكان عمله في القضاء مختصاً بمن يقبلون الاحتكام إلى الشريعة، ولم يكن على سبيل الحتم والإجبار، ولم تكن لديه أي قوة عسكرية تلزم طاعته.

ولعـل من أنجح السفارات في تاريخ النبوة سـفارة الصحابي الجليل جعفر بن أبي طالب التي وفد فيها على النجاشي، وقد بلغ من تقدير النجاشي ومحبته لجعفر أنه حين رزق النجاشي بمولود وكان جعفر قد رزق بمولود أيضاً، فسأله النجاشي: ما سـميت ابنك يا جعفر فقال عبد الله، فاختار النجاشي هذا الاسـم لولده، وسماه عبـد الله بن النجاشي مع أن هذا الاسـم غير موجـود في الثقافة الحبشية ولا معنى لـه في لغتهـم، ولكنه أثر واضح لنجاح جعفر في التأثـير على النجاشي، وكسب وده واحترامـه وتقديره، وكانت أسـماء بنـت عميس زوجة جعفر وثيقـة الصلة أيضاً ببلاط النجاشي وقد أرضعت ابنه عبد الله مع ابنها عبد الله[١٧٥].

وفي هذا السياق نشير هنا إلى أدب عظيم علمه رسـول الله صلى الله عليه وسـلم للناس، حين وفد على المدينة،فأقر كثيراً من عاداتها وتقاليدها، إلا ما صادم العقيدة، وفي الحديث أن أبا بكر الصديق دخل على النبي صلى الله عليه وسلم وعنده جارتان تغنيـان بغناء بعاث، فنهرهمـا، وفي رواية غضب فقال: «أمزمارة الشيطان في بيت رسول الله؟».

لقد كان ما فعله أبو بكر استنكاراً لهذا السلوك الذي لا يتناسب مع ما عرفه من أمر النبي الكريم من اهتمام بالأمور العظيمة والإعراض عن السفاسـف، والرسول

(١٧٥) إزالـة الغـواشي في أخبار النجاشي ، للشيخ ابراهيم المختار، مفتي ارتيريا، نشرته مجلة الوحدة، ٨ مايو ١٩٦٥، وقد نقلناه من موقعه الرسمي

الأكرم معلم ومرشد وإمام لا يجد وقتاً لهذه الفنون، وقد كان انصرافه عنها بواقع انشغاله المستمر في الدعوة والهداية، وكذلك فإنه نهى عن المجون والتبرج.

ولكنه مع ذلك لم يشأ أن يفرض على أهل المدينة ترك عاداتهم وطباعهم وشكل حياتهم، وقال لأبي بكر: «دعهما يا أبا بكر ... فإن لكل قوم عيداً وهذا عيد الأنصار»[١٧٦].

وفي رواية أخرى أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لعائشة يوم زفاف بريرة: «هل أخذتم معكم لهواً؟» قالت: «لا»، قال: «فإن الأنصار يعجبهم اللهو، فهلا بعثتم معها بجارية تضرب بالدف وتغني: أتيناكم أتيناكم فحيونا نحييكم ولولا الذهب الأحمر لما حلت بواديكم ولولا الحبة السوداء ما سرت عذاريكم»[١٧٧].

وهذا إقرار منه صلى الله عليه وسلم على احترام عادات الناس مما لا يخالف الشرع الحنيف، واحترام الاختلاف، ولا شك أن هذا التوجيه النبوي أصل في تأسيس العرف الدبلوماسي في احترام العادات المحلية والتقاليد التي تتبعها الشعوب وفق ما أرشد إليه القرآن الكريم: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجاً﴾[١٧٨].

عدم التدخل في الشؤون الداخلية للدول:

تبدو هذه القاعدة غير مقبولة في الدبلوماسية الإسلامية التي جاءت لتخدم حقيقة مؤداها أن الله أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره الكافرون، وأن هداية الناس وحملهم على الإسلام في صلب مقاصد الرسالة والرسول، وقد مارس الرسول الكريم هدم أصنام الكفار وتمزيق شعائرهم الجاهلية من الأنصاب والأزلام وغير ذلك.

---

(١٧٦)رواه البخاري، ج١، ص٣٢٣، كما رواه مسلم والموطأ والنسائي وأحمد

(١٧٧) رواه الطبراني من طريق شريك بن عبد الله عن عروة عن عائشة، وفي سنده مقال، ولكن يقويه ما أوردناه قبله في الصحيح بهذا المعنى، انظر الطبراني في الأوسط، ج ١، ص ١٦٧، وانظر الهيتمي في مجمع الزوائد، ج ٤، ص ٢٨٩

(١٧٨) سورة المائدة ٤٨

ولكـن هـذه الصورة التي نقرؤها مـن جانب واحد تختلف عمـا نحن بصدده، فهنـاك فارق كبير بين مسؤوليات الدولة الإسـلامية عـلى أرضها وفي رعاياها وبين مسؤولية الأمة الإسلامية في أراضي الغير، وفي بلدانهم.

فقد ثبت بالفعل أن رسـول الله صلى الله عيه وسلم حطم أصنام المشركين ولم يأذن ببقاء صنم منهـا، وطمس بيده الكريمة عدداً من هذه التصاوير وحذر منها في أحاديـث كثيرة، ولكن ذلك كله إنما بعد أن صار له على العرب سـلطان في إطار حكمه ودولته الكريمة.

أمـا في دولة الآخرين فقد أقـام النبي صلى الله عيه وسـلم ثلاثة عشر عاماً بين ظهرانـي المشركين ولم يكن له عليهم سـلطان، وكان يقـدم الموعظة والنصيحة ما وجـد لذلك قبولاً، بل إن القرآن الكريم أرشـده إلى ما هـو أبلغ من ذلك فقال: ﴿وَلاَ تَسُبُّواْ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللّهِ فَيَسُبُّواْ اللّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾.

وخـلال تلـك الفترة لـم يقم رسـول الله بكسر أي مـن أصنامهم رغـم موقفه الصريح في رفض الوثنية، ورغم قدرته الأكيدة على تحطيم هذه الأصنام أو بعضها بمساعـدة الصحابة الكرام، كما أنه لم يقم بذلك بعـد الهجرة رغم وجود عدد من الصحابة الكرام في مكة وقدرتهم على فعل ما يغيظ المشركين.

ويحسـن هنا أن نقارن بين موقف اثنين من الأنبيـاء كلاهما من أولي العزم من الرسـل، إبراهيم خليل الرحمن والمصطفى صلى الله عليه وسـلم، فقد قام إبراهيم بكـسر الأصنام جميعـاً من اليوم الأول، ولـم يكن له على قومه سـلطان، ولم يكن يحكم بلاد أور، وكانت النتيجة أن قومه أوقدوا له ناراً عظيمة وألقوه فيها، وعادوا لصناعة الأصنام من جديد وعبادتها دون أن يتغير في سلوكهم شيء، وعلى الرغم من المعجزة الساطعة التي أكرم الله بها خليل الرحمن، يا نار كوني برداً وسـلاماً على إبراهيم، فإن قومه عدوا ذلك لوناً من السحر، واشـتروا أصناما جديدة، واسـتمروا في عبادة الأصنام.

أما موقف النبي صلى الله عليه وسلم فقد كان يتجلى في هدم الوثنية قبل الوثن،

فقد هدم الوثنية في قلوب المشركين وأسعدهم بالإسلام، وعندما مكن عقيدة التوحيد في قلوبهم أرسلهم ليهدموا بأنفسهم ما كانوا يعبدونه من ضلال مبين، وحين هدمت هذه الأصنام بيد عابديها السابقين لم تقم لها بعد ذلك قائمة، وقال صلى الله عليه وسلم: «إن الشيطان قد يئس أن يعبد في جزيرة العرب».

ولكنه بدأ بتحطيم الأصنام عندما أصبح من الناحية القانونية والواقعية حاكما فعلياً لمكة المكرمة وللدولة الإسلامية الناشئة وبعد أن ألغيت دولة المشركين بكل تفاصيلها.

ومع ذلك فمن المدهش أن النبي الكريم لم يرسل لهدم الأصنام أصحابه الباسلين من السابقين الأولين والمهاجرين الأبرار كأبي بكر وعمر وطلحة والزبير، بل اختار لهذه السرايا التي كلفت بهدم الأصنام قادة من المشركين الذين أسلمو حديثاً، وذلك تجنباً لاستفزاز السكان المحليين ممن عاشوا وآباؤهم يعبدون هذه الأصنام ويقولون ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى، وهذه قائمة بقادة السرايا التي هدمت الأصنام ونلاحظ أن ليس فيهم عمر بن الخطاب ولا علي بن أبي طالب ولا الزبير بن العوام وغيرهم من الفرسان الأبرار الذين سبقوا إلى الإسلام، ويمكن قراءة هذه القائمة:

- صنم اللات التي كانت تعبدها ثقيف هدمتها سرية كان يرأسها أبو سفيان والمغيرة بن شعبة.
- صنم العزى التي كانت تعبده قريش بأرض نخلة هدمته سرية كان يرأسها خالد بن الوليد.
- صنم سواع وهو صنم هذيل في أرض رهاط قرب من مكة، هدمته كتيبة عمرو بن العاص.
- صنم مناة هدمته سرية سعيد بن زيد الأشهلي.

فهؤلاء القادة الذين قاموا بهدم هذه الأصنام كانوا في الواقع إلى عهد قريب يعبدون هذه الأصنام، وحين هدم النبي الكريم الوثنية في قلوبهم انقلبوا صقوراً

حازمــة تهدم بفأس الحق أوهام الجاهليــة الوثنية الأولى، فهدمت الأصنام ولم تقم لها بعد ذلك قائمة.

وفي توضيح بالغ الأهميــة تستأنف الآية الكريمة: ﴿كذلك زيَّـنّا لكل أُمّةٍ عملهمْ ثُمَّ إلى ربهم مَرْجِعُهُمْ فينبِّـئُـهُـم بما كانوا يعملون﴾[١٧٩].

والمعنى نفسه أكدته آية الأنعام: ﴿مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ﴾[١٨٠].

وفي المعنى نفسه قــال الله تعالى:﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لاَ يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ إِلَى اللّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[١٨١].

والموقف نفســه التزمه الصحابة الكرام الذين هاجروا إلى الحبشة التزاماً بهدي النبــي الكريم فقد أقامــوا في الحبشــة في ظهراني قوم لهم بطارقتهــم وصلبانهم وعقائدهم ولا نعلم أن أحداً من الصحابة الذين كانوا يشكلون ســفراء الإســلام قد أســاء لأي مــن معتقدات القوم أو نال منهــا، فقد التزموا موقفــاً مسؤولاً من عدم التدخــل في الشؤون الداخلية للدولة المضيفة، وبنــوا أوثق الصلات مع القوم الذين هاجروا إليهم مع محافظتهم على عقائدهم ودينهم وتوحيدهم.

بناء جسور من المحبة والاحترام مع الدول المضيفة:

إن السفارة الناجحة هي تلك التي تترك أثراً باقياً بعد رحيل أفرادها، وتؤســس لعلاقــات واعية ونافعة لصالح البلدين، والسفــير الناجح هو ذلك الذي يبني أوثق الصلات مع الشخصيات الاجتماعية والوطنية والدينية في البلد المضيف.

وينطلق المؤمن في بناء جسور الاحترام من حقائق دينية راسخة، ذلك أن الحكمة ضالة المؤمن أينما وجدها فهو أولى بها كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقد ســجل رسول الله صلى الله عليه وسلم احترامه للمعرفة من أي مصدر جاءت، وفي

(١٧٩) سزرة المائدة، الآية ٤٨
(١٨٠) سورة الأنعام، الآية ٥٢
(١٨١) سورة المائدة، الآية ١٠٥

يوم بدر فك الأسارى بتعليمهم عشرة أطفال من المسلمين القراءة والكتابة فاعتبر هذا اللون من التبادل المعرفي مشروعاً مع عدو محارب فكيف بسفير معاهد[١٨٢].

وخلال التاريخ الإسلامي عرف باب الرحلة في طلب العلم الذي كان يسابق إليه مشاهير العلماء في العصر الذهبي للإسلام، وكانوا يقولون اطلب العلم ولو في الصين، وكان هؤلاء كلما حلوا بأرض نفع الله بهم علماءها وعامتها، وكان هؤلاء العلماء يقدمون وفاء للبلاد التي ينزلون فيها على شكل بحوث ودراسات وكتب تصنف في التعريف بهذه البلاد التي نزل بها العلماء، ومن هذه الكتب: كتاب تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة لأبي الريحان البيروني، وقد صحب البيروني السلطان محمود الغزنوي ثلاث عشرة مرة إلى الهند وكان يدون قراءاته ومشاهداته ثم أصدرها في كتاب واحد وصفه بروكلمان بأنه أهم ما أنتجه علماء الإسلام في معرفة عقائد الأمم.

ومن السفراء الناجحين الذين دونوا مشاهداتهم وانتفع بها الناس أيضاً الشريف الإدريسي عالم الجغرافيا الشهير الذي قام بسفارات ناجحة لروجر الصقلي، وهي نوع فريد من السفارات فقد كان روجر ملكاً مسيحياً من النورمان، وقد حكم صقلية بعد خروج الأغالبة منها، وكان حسن السيرة مع المسلمين، وقد قرب عدداً منهم أشهرهم الإدريسي، الذي أقام لديه نحو عشرين عاماً، وأوفده في سفارة خاصة إلى بلاد الشام، وقد كتب في أعقاب سفارته كتابه الشهير: نزهة المشتاق في اختراق الآفاق.

والمتأمل في كتاب الإدريسي الذي أعده عام ١١٥٤م يلاحظ لدى الإدريسي براعة دبلوماسية فريدة، فقد كتب بتفصيل عن الحريات الدينية في القدس، وتحدث عن كنيسة القيامة والحياة الآمنة للمسيحيين في بلاد الشام، ولا أشك أن هذا الكتاب كان له أكبر الأثر في موقف صقلية تجاه الحروب الصليبية على الرغم من الضغط الكبير عليها من قبل البابا للإنخراط في الحروب الصليبية، ولكن سفارة الإدريسي الناجحة حالت دون ذلك.

---

(١٨٢) السيرة النبوية، لابي شهبة، ج ٢، ص ١٦٤

ومن السفراء الناجحين كذلك ابن جبير الأندلسي المتوفى عام ١٢٢٠م، الذي كتب كتابه تذكرة بالأخبار عن اتفاقات الأسفار، وشرح فيه بالتفصيل مشاهداته خلال سفاراته في بلاد الشام، ويمكن في هذا السبيل أيضاً أن نشير إلى الرحالة ابن بطوطة المتوفى ١٣٤٨م، وكتابه الشهير تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، مع الإشارة إلى أن ابن بطوطة لا يعتبر سفيراً بالمعنى التقليدي للكلمة، ولكنه على ذلك كان أفضل سفير ربط بين المشرق والمغرب، وقد تم التعامل معه في البلدان الإسلامية، ولاسيما بلاد الشرق باحترام كبير، وقد عمل في جزر المالديف قاضياً للقضاة لعام ونصف وتزوج من تلك البلاد.

وأسمح لنفسي هنا بالاستطراد قليلاً للإشارة إلى أن رحلة ابن بطوطة التي امتدت من طنجة بالمغرب العربي فشملت كل الشمال الأفريقي الجزائر وتونس وليبيا ومصر والنوبة ثم اليمن والحجاز والشام والعراق ثم بلاد العجم والهند وانتهى مطافه فيها في جزر المالديف، كان ينتقل فيها بدون جواز سفر!! ولم يكن يستخدم إلا لغة واحدة!! هي لغة العالم آنذاك وهي اللغة العربية، وكانت كل هذه الشعوب تحتكم إلى شريعة واحدة هي الإسلام، ولأجل ذلك فقد عمل قاضياً فيها لأنه خبير بقانونها الذي لا يختلف عن قانون المغرب في شيء وهو نفسه كان قانون البلاد التي تمتد من الأندلس إلى جزر المالديف، وهو الشريعة الإسلامية.

الالتزام بالتواصل مع الدولة والعمل في سياق مؤسساتها:

إن البعثة الدبلوماسية هي امتداد للأمة في بلاد المغترب، ومن واجب البعثةالدبلوماسية أن تكون عيناً للأمة وأن تعتمد عليها الأمة في معرفة دقيقة بمصالحها وحاجاتها المستمرة.

ولا شك أن قيام السفراء بهذه المهمات لا يقلل من شأنهم ولا يحولهم إلى مخبرين فالصلة هنا بالأمة وليست بالنظام، والدبلوماسيون يخدمون قضايا أوطانهم وشعوبهم، ولا ينبغي أن ينصرفوا إلى القضايا العائلية التي تخص أسر الحاكمين.

وعـلى الحاكـم أيضاً أن يتجنب إقحام الدبلومـاسي في قضايا خاصة، وأن يفرق بوضـوح بين حاجـة الوطن والمصالـح الشخصية للحاكمين، فهناك اسـتحقاقات معروفـة تنـص عليهـا القوانين فيمـا يتعين عـلى الدبلوماسي فعلـه لتيسير أمور المسؤولين السياسيين على اختلاف درجاتهم، ولكن ترك هذه المسائل بدون قانون، أو تجـاوز ما نص عليه القانون لاعتبارات شـخصية وفردية سـيجعل من البعثة الدبلوماسية مجرد مندوبين لمصالح الحاكمين والمتنفذين وهذا خطأ كبير.

وفي هـذا السياق نسترشـد بما قاله أويـس القرني، خير التابعين، فقد اشـتهر هذا الصحابي اشـتهاراً كبيراً لأنه الوحيد الذي وصفه رسول الله بالاسم والوصف دون أن يكون له شرف الصحبة أو زيارة رسـول الله، وقد قال رسـول الله لعمر بن الخطاب: «إذا لقيت أويس القرني فاسـأله الدعاء»، فكان عمر يترقب الوفد من اليمـن رجاء أن يلقاه ويسأله الدعـاء، وعندما حج أويس فرح به عمر بن الخطاب وأكرمـه إكرامـاً عاليـاً، وحين أنهى نسكـه أراد الذهاب إلى البـصرة، فقال له عمر بـن الخطـاب: «ألا أكتب لعاملها؟ ليقـوم بشأن أويس ويكرمـه، ولكن أويساً قال بوضوح: «لا يا أمير المؤمنين... أن أكون في غبراء الناس أحب إلي»[١٨٣].

وفي هـذا السيـاق اشـتهرت سياسـة عمر بـن الخطاب الـذي كـان يستدعي الدبلوماسـيين والحكام من أعمالهم بعد فترة يمضونهـا، ولم يقرَّ عاملاً على عمل يطـول فقد غـير تقريباً معظم الولاة في عصره، وكان يقـول: «والله ما عزلتهم عن ريبـة، ولكن أردت أن يعلـم الناس أن الأمر لا يكون لمكان فلان أو فلان، ولكنه أمر الله يمضه بمن شاء من عباده».[١٨٤]

(١٨٣) صحيح مسلم، ج ٤، ص ١٨٩
(١٨٤) البداية والنهاية لابن كثير، ج ٧، ص ٦٢

وجوب التواصل مع الوطن وعدم جواز الانقطاع عنه لفترات تطول:

كتب ابن الوزير في كتابه السياسة:

وعليــه إِحْسان مجاورة جِيرانه فِي الممالك التِي تــلِي مملكته، فحاله معهم كحال الْواحِد من السوقة مع جِيرانه لما أســست عليْهِ الدنْيا من الْحاجة إِلى التعاضد، وأن يُبالــغ فِي بر الواردين عليْهِ من رســلهم وأن يتصنع لهُم بتفخيــم مجْلِسه وإِظْهار جماله وزينته ومظاهرة بره لهُم وتكرمته.

والله الله أن يُطِيل حبسهم عِنْده فَفِي ذلِك من الْفساد ما يطول شرحه[١٨٥].

وتعكــس هــذه الوثيقــة المتقدمة مــن القرن الرابــع الوعي الــذي حققه فقهاء الدبلوماســية في الإسلام، فقد أشــارت إلى وجوب تحسين السفارات وتجميلها لأنها صــورة المجتمع، والسفارات لم تبن لاســتجداء عطف الأمــم، وإنما لنيل احترامها، والعالم قد يحسن إلى الفقير والضعيف، ولكنه لا يحترم إلا القوي القادر.

كمــا أكدت الرســالة على وجــوب انتهاء المهمــات الدبلوماســية في آجالها وعدم السماح بتطويل هذه المدد والتحذير من التهاون في استكمالها وإنجازها.

ومــن جانب آخر فقد جرى العرف الدبلوماسي على أن السفير يجب أن لا يطول مكثه في البلد المبتعث إليه، واســتقر العرف على وجوب استقراره في وطنه الأم عدة ســنوات ومن ثم ابتعاثه لبلد آخر، وذلك حتى يدوم ولاؤه لوطنه، وحتى لا تنشأ له في البلاد التي يخدم فيها علاقة انتماء ومنة على حساب انتمائه لبلده ووطنه.

وفي هــذا السياق ورد نهي عمر بــن الخطاب عن خروج الناس للجهاد أكثر من أربعة أشــهر، وألزمهم بالعودة إلى منازلهم ورعاية أسرهم خلال أربعة أشهر، وفي الوقت نفسه فإنه أراد أن لا يطول بهم العهد فتتصرم حبالهم مع دولتهم وقيادتهم.

---

(١٨٥) كتــاب السياســة، للحسين بن عــلي الوزير، المتوفى عام ٤١٨، طبع مؤسســة شــباب الجامعة، الاسكندرية

الشفافية والمكاشفة مع مرجعيته الوطنية:

يتعين على الدولة أن تضع للمبتعثين الدبلوماسيين نظماً وقواعد لضبط الإثراء المشروع والإثراء غير المشروع، فكثير من كسب الدبلوماسيين هو حق للوطن وليس لشخص السفير، ومن هنا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «هدايا العمال غلول»[١٨٦]، وقد زاد رسول الله الأمر توضيحاً في خطابه لابن اللتبية الأذري لما استعمله رسول الله في أمر الأمة فعاد موقراً بالهدايا والأحمال، وقال هذا لكم وهذا أهدي إلي، فصعد رسول الله المنبر وقال: «ما بال العامل نَبعثه فيأتي، فيقول: «هذا لك وهذا أهدي إلي»، فهلاَّ جلَس في بيت أبيه وأُمِّه، فيَنظر أيُهْدى له أم لا؟ والذي نفسي بيده، لا يأتي بشيء إلاَّ جاء به يوم القيامة يحمله على رقبته، إن كان بعيرًا له رُغاء، أو بقرة لها خُوار، أو شاة تَيْعَر»[١٨٧].

ولا شك أن اللوائح الداخلية لوزارات الخارجية تنظم هذا اللون من الكسب، وتحدد ما هو حق للسفير وللبعثة الدبلوماسية من الأوسمة والهدايا، وما هو حق للسفارة، وما هو حق للدولة، وليس للفقه الإسلامي تفصيل في هذه المسائل خلال النصوص العامة، ومدار الحكم في هذه الأشياء على القاعدة العامة: المسلمون عند شروطهم، وكذلك قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾، وقوله: ﴿وَأَوْفُواْ بِعَهْدِ اللهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ﴾، وعليه فيكون كل تفصيل في هذه المسائل مما أقره ولي الأمر من المعروف الذي تجب الطاعة فيه ويحرم عصيانه.

ثقافة الخدمة:

إن السفارة منصب يسعى إليه المرء لخدمة الوطن وخدمة الناس، فلا ينبغي أن ينصب بينه وبين الناس حواجز تحول دون اتصالهم به وتواصلهم معه، ولاسيما أبناء الوطن في الغربة الذين تكثر حوائجهم إلى البلد، ومطالبهم تتكرر كل يوم، وحاجتهم عند السفير، وأعضاء البعثة فلا يجوز أن يكون منهم التأفف والضجر،

(١٨٦) رواه الامام احمد في مسنده، ج ٥، ص ٤٢٤
(١٨٧) صحيح البخاري، ج ٩، ص ٢٨

والتفريـط بحوائج الناس، فإن صاحب الحاجة أرعن، وقد لا يقدر المسائل قدرها، ولكن الدبلوماسي يجب أن يكون رحب الصدر واسـع الأفق، يحسن المعاذير لذوي الحوائـج، وقد قال صلى الله عليه وسـلم: «أبلغوني حاجة مـن لا يستطيع إبلاغها فإنه من أبلغ ذا سلطان حاجة من لا يستطيع إبلاغها ثبت الله قدميه على الصراط يوم تزل الأقدام»[١٨٨].

وفد دعبل الخزاعي على غسان بن عباد فاحتجب عنه فهجاه في قصيدة طويلة:

إذا مـا أتينـــاه في حاجـــة رفعـنا الرقـاع له بالقصـــب
له حاجـــب دونـه حاجـــب وحاجـب حاجـبه محتجـب

فلا يعرف الناس اليوم من هو غسان بن عباد إلا هذا الهجاء.

وكـان من أدب السلف أن يقـوم المسؤول بخدمة النـاس ولا يضجر ولا يتبرم، وكان زين العابدين إذا دفع صدقته إلى سـائل يقبل يده ويقول: «أهلاً بمن يحمل زادي إلى الآخـرة»، وكان يقول: «من أمكنني أن أجعل معروفي عنده كانت يده علي أمن من يدي عليه».

ومـن روائع الأدب الدبلوماسي ما روي عن علي رضي الله عنه أنه قال لواليه على مكة قثم بن العباس: «ولا يكن لك إلى الناس سفير إلا لسانك، ولا حاجب إلا وجهك، ولا تحجبن ذا حاجة عن لقائك بها».

وكان علي بن أبي طالب يقول: «إذا سـألتمونا حوائجكم فاكتبوها لنا في الرقاع فإننا نريد أن نصون وجوهكم عن المسألة».

وهذه ليست محض مواعظ دينية، إنها اليوم جزء من أدب العمل في المجتمعات المتقدمة، وعلى سبيل المثال لا زالت من التقاليد اليابانية إلى اليوم، أن كبار الموظفين يقومون في مواسـم معينة بغسل أرجـل الموظفين الجدد احتفاء بهم وتشجيعاً لهم على الخدمة بإخلاص وتفاني.

---

(١٨٨) مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، للهيتمي، ج ١١، ص ٤٢٩

وبالجملة فعلى الدبلوماسي أن يوائم بين مكانته الاجتماعية والسياسية المطلوبة، من الهيبة والوقار، وبين خدمة شـعبه وذوي الحاجات منهم بالتواضع والمسؤولية والحس الوطني، وما ذلك بعزيز، وإنه ليسير على من يسره الله عليه.

ترقية أحوال الجالية والاعتناء بها:

ومـن المهام الرئيسيـة للمبتعثين أن يتواصلوا مع الجاليـة في بلد الاغتراب، وأن يدنـوا أهل النجاح والتوفيق والكفاءة منهم، ويشدوا رباطهم بأوطانهم ويبعثوا في نفوسهم محبة ترابهم والوفاء له وصلة الرحم التي أمر الله أن توصل.

وعليه أن يتفقد كافة المواطنين في مناسبات معينة، وأن يهتم بأدناهم وأقصاهم، وأن يدنـي البارزين والناجحين والوجهـاء منهم، وأن يوفر لهم رباطهم ووصالهم ببلدهـم الأم، وان لا تعـدو عيناه عنهم في عناية ورعايـة ومحبة ووداد، فلا يند عن رعايته وعنايته قاصد ولا يبتغي عن أربه ووصاله راغب.

وفي هـذا السبيل أوصى علي كرم الله وجهه واليه على مصر فقال: «ألصق بذوي المـروءات والأحسـاب وأهل البيوتـات الصالحة والسوابق الحسنة ثـم أهل النجدة والشجاعـة والسخـاء والسماحة، فإنهم جماع من الكرم وشـعب مـن العرف، ثم اعرف لكل امرئ منهم ما أبلى، ولا تضمَّن بلاء أمرئ إلى غيره، ولا تقصرن به دون غاية بلائه، ولا يدعونك شرف امرء إلى أن تعظم من بلائه ما كان صغيراً، ولا ضعة أمرء إلى أن تستصغر من بلائه ما كان عظيماً».

تمثيل الدولة وليس تمثيل الأحزاب:

إن السفـير يمثل الدولة التي أوفدته، والدولة في التعريف الحقوقي هي حصيلة ثلاثـة أشـياء: الشعـب والأرض والحكومة، وبهـذا المعنى فإن واجبه الدسـتوري يقتضي أن يتم التعامل مع سـائر القضايا من زاوية وطنية شاملة وليس من رؤية السلك الحكومي وحده.

وقــد دأبت الأحــزاب السياســية على فــرض محاصصــات سياســية في السلك الدبلومــاسي، ولا زال الــولاء للحــزب الذي أنجز هذه المحاصصــة يتغلب على الولاء للمهمة الوطنية التي أرســل إليها السفير، مما يعــود بأثر سيء على مهمة الابتعاث وغاياته.

إن ثقافــة المؤســسات لا زالــت تحتاج في الوعــي العربي إلى تفصيــل دقيق، ولا زال الموظــف العربي يفتقر إلى ثقافة العمل للمؤســسة واحترام قوانينها، ولا زالت هناك حاجة لتجريد العمل العام من الشخصانية والقبلية والعائلية، باتجاه العمل الوطني، واحترام القوانين، وبناء المؤسسات.

ومــع كثــرة ما كتــب في إحياء ثقافة المؤســسات والعمــل في إطارهــا بعيداً عن الشخصانية والفردية فإن أروع ما كتب في هذا السبيل هو ما قاله الخليفة الراشدي أبو بكر الصديق رضي الله عنه يوم رحيل النبي الكريم صلى الله عليه وسلم:

«أيهــا النــاس ... من كان يعبد محمداً فإن محمداً قــد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت».

لقد كان وعياً كبيراً بثقافة المؤســسات ودوامها، وعدم ارتهانها لأشــخاص على الرغــم من أهميتهم وقدراتهم ودورهم القيادي التاريخي، وبذلك فقد قرر أبو بكر أن استمرار رسالة الإسلام إنما هو استمرار المؤسسات العظيمة التي أطلقها رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى رأسها دولة الخلافة.

مبدأ المعاملة بالمثل:

اســتقر مبدأ المعاملة بالمثل في الحياة السياســية عامة والأدب الدبلوماسي بوجه خاص، وذلك انطلاقاً من طبيعة العلاقات الدولية.

والإســلام رســالة واقعية فهو لم ينظر إلى العالم على أنه جمعية خيرية، ولا على أنه غاب ذئاب، إنه العالم بكل ما فيه من خير وشر وجمال وقبح، وقد رفض منطق

التسامح الساذج الذي تضيع فيه الحقوق، ويمنح فيه الغفران ممن لا يملك لمن لا يستحق، بل إنه عالج العلاقات الدولية في إطار متوازن من المعاملة بالمثل.

ووفق هذه المقاصد جاءت نصوص كثيرة في الشريعة تعزز هذه الحقائق، فقال تعالى: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾، وفي آية أخرى قال عز وجل: ﴿فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ﴾.

والمعاملة بالمثل هي جوهر الجهاد نفسه، قال تعالى: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾[١٨٩].

وفي الحقل الدبلوماسي فإننا نلاحظ مبدأ المعاملة بالمثل في سائر أيامه الكريمة صلى الله عليه وسلم في التفاوض الدبلوماسي وتبادل الوفود والمندوبين، وهو ما تقره اليوم الدبلوماسية الدولية في مبدأ المعاملة بالمثل.

على أن ما يجب أن نشير إليه أن مبدأ المعاملة بالمثل ليس ناتج جمع رياضي أصم بقدر ما هو حصيلة معطيات متقابلة يتأسس عليها موقف المماثلة على أساس العدل وليس بالضرورة على أساس المساواة.

ومن الصور الواضحة في العلاقات الدبلوماسية ما شرحته الآية الكريمة في قوله تعالى: ﴿الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ، فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ﴾[١٩٠].

فقد كان من شأن العرب أن تسبغ صفة القداسة والاحترام على الأشهر الحرم، فلا يحل فيها قتال ولا جهاد، ولكن هذه الحرمة إنما تكون حين يحفظها الفريقان، ولا معنى لها حين تبقى حرمة من جانب واحد، فقد عمد المشركون إلى الاستخفاف بحرمة الأشهر الحرم، وقاموا بالاعتداء على الصحابة الآمنين فيها، وحين أرسل النبي الكريم رجاله للدفاع عن الصحابة أنكرت عليهم قريش قتالهم في الشهر الحرام، ولكن الآية الكريمة بينت أن المعاملة بالمثل مبدأ طافح بالعدالة، وحين

---

(١٨٩) سورة البقرة، الآية ١٩٠

(١٩٠) سورة البقرة، الآية ١٩٤

يحــترم المشركون حرمة الأشــهر الحرم فإن المسلمين ســيكونون أكثــر حرمة لها، ولكــن إذا هتك المشركون حرمة الشهر الحرام ومارســوا الاعتداء فيه على المسلمين فيجــب أن لا ينتظروا من المسلمين أن يتوقفوا عند حرمــة الشهر الحرام ويسكتوا عن حقوقهم المضاعة.

والآيــات في هــذا المعنى كثــيرة: ﴿وَلَكُــمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَــاةٌ يَــا أُولِيْ الأَلْبَابِ﴾، ﴿وَأَخْرِجُوهُم مِنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُم﴾، ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ﴾.

واســتناداً إلى هــذه القواعــد الشرعية العامــة والنصوص الظاهــرة من الكتاب والسنة فإن من شأن الدولة أن تحتكم إلى مبدأ المعاملة بالمثل في الحقل الدبلوماسي، وأن تتعامل مع الدول الأخرى بهذا المنطق في التمثيل الدبلوماسي والتبادل التجاري والتأشيرات القنصلية والتبادل الثقافي.

وفي هــذا الجانب لا يملــك السلطان المسلم التنازل عن هــذا المبدأ لأنه حق للأمة وهــو عنهــا وكيل، ويجب أن ينهض بتحصيل حق الأمــة والدفاع عن كرامتها أمام نظائرهــا من الأمم، إلا أن يكون له في ذلك تأويــل ظاهر يعود بالفائدة والنفع على الأمة، ويقره أهل الحل والعقد من مجالس شورى الأمة.

ويستدل على ذلك بموقف النبي الكريم حين عفا عن المشركين يوم الفتح الأعظم، وقال للمشركين: «اذهبوا فأنتــم الطلقاء»، خلافاً لقاعدة القصاص والمعاملة بالمثل في الحقوق.

ومع أن الصحابة رضوا من نبيهم ما اختار تسليماً وطاعة ومحبة، ولكن المتأمل في دقائــق السيرة يــدرك أن موقف النبي الكريم في التخلي عن مبــدأ المعاملة بالمثل في هــذه الحالــة كان يتضمن جوانب ثلاثة: جانب أخلاقي وجانب ســياسي وجانب حقوقي، فهو في الجانب الأول أخلاق محمدية مطهرة زاكية، ولكنه في الجانب الآخر دهاء ســياسي ضروري، فقد علم رســول الله أن إراقة دمائهم ســتثير غضب كثير مــن رجالهــم وتدخل مكة في موارد الثأر التي لا تنتهــي، وهي من جانب آخر وعي حقوقي، فقــد قاتل هؤلاء على أصنامهم وآلهتهم وكان كثير منهم يعتقد ما يصنع،

وليس من العدالة أن تأخذهم بذنب لم يكونوا يقرون بجرمه حال ارتكابهم له، وشأن العقوبات أن لا يكون لها أثر رجعي، والاحتمال في القانون يفسر لمصلحة المتهم، وهي قواعد حقوقية ضرورية يتفق عليها العقلاء، وبموقفه العظيم صلى الله عليه وسلم دفع عن العرب فتنة كانت كافية أن تعيد الحرب جذعة مضمخة بالدماء.

ولا يخفى أن هذا المبدأ العادل في العلاقات الدولية لا ينطبق ضرورة على العلاقات الإنسانية، وما يكون بين الدولة وأعدائها لا يقاس عليه ما يكون بين الدولة ورعاياها، وما يكون بين المؤمنين والكافرين لا ينطبق على ما يكون بين المؤمنين أنفسهم من الإخاء والمودة، وما ينبغي أن يحكم به القضاء ليس بالضرورة ما ينبغي أن يفتي به المرشد والواعظ، وفي هذا السياق يرد ما أمر به القرآن الكريم من العفو والغفران والتسامح، ﴿وَأَن تَعْفُواْ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾، ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾، ﴿قُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ﴾، وغير ذلك من الآيات الكثيرة.

وفي السياق الإنساني جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم وقال: «يا رسول الله إن لي قرابة أصلهم ويقطعونني وأعطيهم ويحرمونني وأحسن إليهم ويسيئون إلي، أفأكافئهم؟» فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: «فمه؟»(أي ما الفرق إذن بينك وبينهم)، ولكن أعط من حرمك وصل من قطعك وأحسن إلى من أساء إليك ولا يزال لك من الله عليهم ظهير»[١٩١].

مسؤولية السفير بين وطنه ودار إقامته:

ومن الجوانب البالغة الأهمية في الشأن الدبلوماسي أن يكون السفير على وعي برباط مواطنيه بالبلاد التي يقيمون فيها، فهناك كثير من أبناء الوطن يستقرون في بلدان أخرى وينالون جنسيتها، وهم مطالبون بالوفاء إلى تلك الأوطان مقيمين أو

(١٩١) صحيح مسلم، ج٨، ص٨، ورواه كذلك الامام احمد

مواطنين، فلا ينبغي في الحديث عن أوطانهم أن يبخس شأن الأوطان التي يقيمون فيهـا، أو أن يقـصروا في الوفاء للأرض التي احتضنتهـم وآوتهم، وعليه أن يتحدث بوعي وبصيرة موازناً بين حقوق البلدين وواجباتهما تجاه كل منهما.

وتختصر هذه الحقيقة بعبارة: الوفاء لأرض الوطن والإخلاص لدار الإقامة.

وربمـا كان أوضح مثال لعلاقـة المسلم ببلد إقامته ودار مهاجـره ما رأيناه في سلوك الرعيل الأول من أصحاب النبي الكريم الذين هاجروا إلى الحبشة، فقد ظلوا أوفياء لأوطانهم ونبيهـم ودينهم، ولكنهم أظهروا أيضاً حباً ووفاء كبيرين للأرض التـي احتضنتهم ولا يعرف أنهم اتهموا بالإسـاءة إلى شيء في أرض الهجرة، وحين عرض للنجاشي بعض خصومه وحاولوا أن ينتزعوا منه ملكه فقد اصطف الصحابة إلى جـوار النجاشي وقاتلوا معـه، وكان الزبير بن العوام يسبح في الليل بالنيل حتى يبيت مع القوم ويدرك ما يبيتون ويعدو في الصباح بأخبارهم، وكان للصحابة أثر ظاهر في تأمين استقرار الحبشة بعد هذه الفتنة المريرة.

وقـد اظهر هؤلاء المهاجرون في الحبشة فقهاً عميقاً بأصول التعامل الدبلوماسي حيث اختاروا ممثلهم جعفر بن أبي طالب فكان يفاوض باسمهم ويرفع مطالبهم، وقد حظي بمنزلة كبيرة لدى النجاشي فكان يشاوره في خاصة شأنه، كما أنه تمكن من عقد صلات بالغة القوة والموثوقية مع النبي الكريم وأهله، حتى إن النبي الكريم حين رغب بزواج رملة بنت أبي سـفيان وهـي إحدى المهاجرات في الحبشة خطبها من النجاشي الذي قام بدوره بإعداد زفافها إلى الرسـول صلى الله عليه وسـلم على مراكب الملوك في إشارة جداً واضحة لتوثق مستوى العلاقات بينهما إلى أعلى المنازل.

ولا أدل عـلى ذلك مـن أن الصحابة الكرام اسـتمروا في الوفـاء لأرض هجرتهم والإحسان إليها، ومع أن دواعي الهجرة قد بدخول الرسول الكريم إلى المدينة ولكن عدداً من الصحابة وبأمر من رسـول الله صلى الله عليه وسـلم استمروا في الحبشة لرعاية هذا الجانب الكريم الذي أسسوا له من علاقات متوازنة مسؤولة.

الدبلوماسية واختلاف العقائد:

تقوم العلاقات الدبلوماسية بين الأمم لتحقيق مصالح هذه الشعوب والعمل على تطويرها وانطلاقها بما ينفع الأمة ويحقق الخير للجميع.

وقد مضى كثير من الكاتبين إلى الخلط بين مبادئ الدعوة إلى الله ومسائل الحكم والعلاقات الدولية، وكذلك إلى الخلط بين حساب الله وحساب الناس، وبذلك فقد حمل كثيراً من الشباب المتحمس على فتح منصات الحساب قبل يوم الحساب، وتفويض الناس بالحكم على الناس مع أن الله يحكم بين عباده فيما كانوا فيه يختلفون.

وقد نشأت على هامش هذه الحقائق أحكام شرعية دونت في بعض كتب الفقه الإسلامي شديدة القسوة والوطأة، فاعتبر الجهاد واجباً لإدخال الناس في الدين الحق، وفق ظاهر الآية ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىَ لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدّينُ كُلّهُ لله﴾، ولم يؤذن بوقف الحرب إلا مع أهل الكتاب إذا دفعوا الجزية، ثم اختلف القول في شأن العربي من أهل الكتاب فنص كثير منهم أنه لا يحل له دفع الجزية ويخير بين الإسلام والسيف(١٩٢).

ثم مضى هؤلاء إلى الحكم بوجوب قتال أهل الأديان الباطلة من بوذيين وهندوس وأرواحيين ووثنيين، وهؤلاء يبلغ عددهم اليوم ثلاثة مليارات وهم نصف أهل الأرض، ولا شك أن تطبيق هذه الفتاوى على واقع اليوم سيؤدي إلى كوارث مرعبة، وسيؤدي ذلك بشكل طبيعي إلى قتال البشرية كلها وهذا عكس مقاصد الإسلام العظيمة من نشر الحب والخير والرحمة.

والواقع الذي يدل له هدي النبي صلى الله عليه وسلم أن الدبلوماسية الإسلامية تنشأ بين عقائد مختلفة، ولا يشترط التوافق بين الدولتين أو بين الحكومتين حتى تقوم علاقات صحيحة، وقد أقام النبي صلى الله عليه وسلم علاقات مع عدد من الملوك وهم على أديانهم.

ومن أدق المواقف في هذا السبيل ما روي في شأن النجاشي، فقد كان الرجل على

(١٩٢) انظر مثلًا كتاب كفاية الأخيار في الفقه الشافعي، باب الجهاد، ج ٢، ص ٢١٨

ملة النصارى، وكان له قساوسته وبطارقته ورهبانه وقداديسه وكهنته، ومع ذلك فقد عاش الصحابة في كنفه سنين طويلة، ولم يرد عنهم أنهم حقروا شيئاً مما كان يعبده أو تعرضوا لبطارقته أو رهبانه أو قساوسته.

بل إن القرآن الكريم جاء واضحاً جلياً في أمر الثناء على النجاشي وعلى أصحابه وفي القرآن الكريم:

﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ آمَنُواْ الَّذِينَ قَالُواْ إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ﴾، ﴿وَإِذَا سَمِعُواْ مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾.(١٩٣)

والثناء على القساوسة والرهبان بتواضعهم وزهدهم جاء واضحاً في الآيات الكريمة، وهي صريحة بأنهم يستحقون الثناء وهم لا زالوا بطارقة ورهباناً وقساوسة.

وقد تعززت علاقة النبي بالنجاشي وأصحابه وحين جاؤوا إلى المدينة المنورة قام رسول الله يخدمهم بنفسه، فقال له أصحابه: «يا رسول الله نكفيك الخدمة»، قال: «كلا إنهم كانوا لأصحابي مكرمين»(١٩٤).

وقد تكرر من رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا التكريم للنجاشي وهو على ملة قومه، وحين مات النجاشي قال رسول الله: «مات الليلة أخوكم أصحمة بن أبحر النجاشي قوموا بنا نصلي عليه»، فقال بعض الصحابة: «نصلي على علج من علوج الروم لم يسجد لله سجدة!؟» فأنزل الله تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَن يُؤْمِنُ بِاللّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلّهِ لاَ يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللّهِ ثَمَناً قَلِيلاً أُوْلَـئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾(١٩٥).

وعندما عاد بعض الصحابة للاعتراض وقالوا: «يا رسول الله كيف نصلي عليه

(١٩٣) سورة المائدة، الآية ٨٢
(١٩٤) دلائل النبوة، للبيهقي، ج ٢، ص ٨٣
(١٩٥) سورة آل عمران، الآية ١٩٩

ولـم يكن يصلي إلى قبلتنا؟ لقـد كانت صلاته لبيت المقدس»، فأنزل الله قرآناً يتلى: ﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾[١٩٦].

وبالجملة فقد كان النبي الكريم يؤسس علاقاته الدبلوماسية مع الملوك وزعماء القبائل على أسـاس من المصلحـة المتبادلة، وفائدة الأمتين ولم يكن يؤسـس لهذه العلاقات على أسـاس الموقف الديني، بحيث يـؤدي للمؤمنين ولا يؤدي للمشركين، ويفي بعهود المسلمين ولا يفي بعهود المشركين.

ومـن الملاحظ إقراره صلى الله عليه وسـلم للصفة التي منحتها الأمم والشعوب لقادتها ومخاطبتهم بها دون تحقير أو ازدراء، احتراماً لمكانة شعوبهم، فقد خاطب هرقل بقوله: «من محمد رسول الله إلى هرقل عظيم الروم»، وخاطب كسرى بقوله: «من محمد بن عبد الله إلى كسرى عظيم الفرس»، وإلى النجاشي بقوله: «من محمد رسول الله إلى النجاشي ملك الحبشة»، وإلى المقوقس بقوله: «من محمد بن عبد الله إلى المقوقس عظيم القبط».

وفي الأثـر أن رجلاً مـن الوثنيين طلب من النبي الكريـم صدقة فسأله أن يسلم فأبى، فلم يعطه شـيئاً فأنزل الله تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَـكِنَّ اللّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ فَلأنفُسِكُمْ وَمَا تُنفِقُونَ إِلاَّ ابْتِغَاء وَجْهِ اللّهِ وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لاَ تُظْلَمُونَ﴾[١٩٧].

وفي القرآن الكريم بيان واضح لطبيعة العلاقات بين الأمة الإسلامية وجيرانها من الأمم، دل عليه عموم النص القرآني: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لاَ يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ إِلَى اللّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[١٩٨].

وكذلك قوله تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِـرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾[١٩٩].

---

(١٩٦) أحكام القرآن، لابن العربي، ج١، ص ٦٠
(١٩٧) سورة البقرة، الآية ٢٧٢
(١٩٨) سورة المائدة، الآية ١٠٥
(١٩٩) سورة الزمر، الآية ٤٦

وبنـاء عليه فلا شـأن للفريـق الدبلوماسي بعـادات الأمم وأديانهـا وتقاليدها ولا ضـير في اختلاف أديانهم وتقاليدهم عن قيم الإسـلام، فالهـدى هدى الله، قال عز وجل: ﴿وَلَوْ شَـاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْت تكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾[٢٠٠].

بل إن المؤمن مأمور بأن يحترم عقائد الناس ولا يسيء إليها، لاسيما إذا ترتب على هذه الإساءة مضرة بمصالح الأمة، وفي هذا المعنى ورد قول الله تعالى: ﴿وَلاَ تَسُبُّواْ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّواْ ٱللَّهَ عَدْواً بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾[٢٠١].

ومـن الوارد تماماً أن يقـوم الفريق الدبلوماسي بالمطالبـة بالمعاملة بالمثل فيما يتصـل باحـترام المقـدس الديني، والرمـوز الدينية، وهـذا مبدأ عـام في العلاقات الدبلوماسية.

العلاقات الدبلوماسية مع الدول الإسلامية:

وأجد من الضروري هنا أن نشير في فصل خاص إلى العلاقات الدبلوماسـية مع الدول الإسـلامية وخصوصية هذه العلاقات والتجارب الدبلوماسية التي قامت بين هـذه الـدول، حيث يتعين على الدبلومـاسي أن يدرك طبيعـة الروابط الخاصة بين بلاده وبين البلدان الإسلامية من روابط تاريخية ودينية وسياسية.

ولا بـد أن نـدرك أن مبدأ تشكل العالـم في كتل دولية وأحـلاف إقليمية حقيقة تاريخيـة وواقعية وقد حكمت هذه التحالفات التاريخ الإنساني لقرون طويلة، وفي العـصر الحديث قامت سـلسلة من الأحلاف أهمها حلف الأطلسي وحلف وارسـو، ومؤتمر عدم الانحياز، ومع أن حلف الأطلسي قام لمواجهة حلف وارسـو، ولكنه لم يرحل عند رحيله، وحينما انهار حلف وارسـو تساءلت الحكومات الغربية الكبرى: لمـاذا يجـب أن يبقى حلف الأطلسي وقد انهار حلف وارسـو، وكـان الجواب ولماذا

(٢٠٠) سورة يونس، الآية ٩٩
(٢٠١) سورة الأنعام، الآية ١٠٨

يجب أن ينهار؟وبالفعل فمع مرور أكثر من عشرين سـنة على انهيار حلف وارسو فإن حلف الأطلسي لا زال يقوم بدور رئيسي في السياسـة الدولية ويحكم جزءاً غير قليل من مصائر العالم.

وكذلـك فإن قمـة عدم الانحياز اسـتمرت على الرغم من انتهـاء عصر القطبين المتنافسـين، وقد أدركت دول عـدم الانحياز حاجتها لهذا التعـاون الدولي لمحاولة رسم سياسة مشتركة محددة في مواجهة الظروف العالمية الجديدة.

كما تقوم في العالم كتل الكومنولث والفرانكوفونية وآسيان وغيرها من الأحلاف الدولية التي تتناوب في خدمة شعوبها وحلفائها.

وقـد أدرك المسلمـون في العالـم الحاجة إلى هـذا اللون من التعـاون منذ نادى الكواكبي والأفغاني بالجامعة الإسلامية وعاصمتها أم القرى، وتأكدت هذه الحاجة بعد انهيار الخلافة ودخول عصر الدولة الحديثة.

ومـع أن هذه الصيحـات لم تستطع تأمين حلف إسـلامي دولي حقيقي ولكنها نجحت في تأمين شكل واضح من التعاون بين الدول الإسلامية وقد بدأ ذلك على يد الملك عبد العزيز حين أطلق مؤتمر العالم الإسلامي في مكة المكرمة، عام ١٩٢٦ وتولى الملك عبد العزيز نفسه رئاسة المنظمة، ثم تعاقب عليها زعماء العالم الإسلامي[٢٠٢].

وفي عام ١٩٦٩ وعقب حريق الأقصى تنادى زعماء العالم الإسـلامي إلى اجتماع قمة في المغرب - الرباط، انبثقت عنه منظمة المؤتمر الإسلامي، التي تحولت فيما بعد إلى منظمة التعاون الإسـلامي والتي أصبحت تضم اليوم ٥٧ دولة إسـلامية بصفة

(٢٠٢) وقد تعاقب على رئاسة منطمة المؤتمر الإسلامي كل من:
- عبد العزيز بن عبد الرحمن بن فيصل آل سعود - مؤسس المملكة العربية السعودية.
- فيصل بن عبد العزيز آل سعود - الملك السعودي الثالث.
- إدريس السنوسي - ملك المملكـة الليبيـة سابقاً.
- محمد علي جناح - مؤسس دولة باكستان.
- شكري القوتلي - الرئيس السوري الأسبـق.
- عدن عبد الله عصمان دار - رئيس جمهورية الصومال الأسبق.
- أمين الحسيني- المفتي الأكبر لدولة فلسطين سابقاً.
- معروف الدواليبي- رئيس وزراء سوريا الأسبق.
- عبد الله بن عمر نصيف- نائب رئيس مجلس الشورى السعودي سابقاً.

عضو كامل وخمس دول تضم جاليات إسلامية كبيرة بصفة دولة مراقب ومن أهم هـذه الدول روسـيا وتايلاند كما رفض طلب الهند والفلبـين في الانضمام للمنظمة بصفة عضو كامل.

إن منظمة التعاون الإسـلامي تعتبر الغطاء الدبلوماسي الأهم للدول الإسـلامية، ومع مرور نحو ٤٥ عاماً على تأسـيسها فهي تعكس حاجة حقيقية لهذا اللون من التعاون والتواصل بين أبناء الأمة الإسلامية.

لقد قامـت بعض الـدول العربية والإسـلامية ذات التوجه القومـي والعلماني بالتململ من قيام هـذه المنظمة ورأى هـؤلاء أن تكريس التحالـف السياسي على أساس ديني ليس واقعياً، وأن الاتجاه العام في الدبلوماسية الدولية هو فصل الدين عن السياسة.

ولكـن الواقع أثبت خلاف ذلك، وخلال هذه الفـترة ثبت أن الرابط الديني قادر عـلى أن يقدم شـكلاً أقوى للعلاقات بـين الدول، وأن يحقق مصالـح عملية متينة للدول المتعاونة على أساس ديني.

وعلى كل حال فليس من شأن هذه الدراسة مناقشة المنطلقات النظرية لعلاقات الديـن والسياسـة، ولكننـا معنيون بالتأكيد عـلى أن الفريق الدبلومـاسي في الدول الإسـلامية يجب أن تكون لديه القدرة على التعاون بشكل أكبر في العلاقات البينية، وبالتالي فإن قضايا مشتركة كثيرة تصدر عنها مواقف متشابهة بشكل طبيعي وذلك انعكاساً لما تشعر به شعوب هذه البلدان من الحقائق المشتركة تاريخياً وواقعياً.

ومـن أوضح الأمثلة عـلى ذلك رفض التطبيـع مع الكيـان الصهيوني ووجوب التعاون في نصرة الشعب الفلسطينـي والشعب السوري، والمصلحة المشتركة التي يمكن أن يحققها هذا التعاون.

وترتب هذه الحقائق على الدبلوماسيين مسؤولية خاصة، فهناك أنواع كثيرة من العلاقات الدبلوماسـية تحتاج لمهارات خاصة في التعامل معها، وتقتضي الانتباه في العلاقات الدبلوماسية المختلفة.

ومما تجدر الإشـارة إليه أن الكتلة الإسـلامية وإن كانت الثانية عددياً من حيث الترتيـب فإنها أكبر كتلة دولية فاعلة في الهيئـة العامة للأمم المتحدة، ومع أن دول عـدم الانحياز تشـكل كتلة أكبر ولكنها غـير متحدة في القضايا السياسـية إلا على مسألة رفض الهيمنة، ومن الصعب أن يتوحد أعضاء هذه الكتلة على خيار سياسي، في حين أن الكتلة الإسلامية متوحدة عادة في القضايا السياسية الكبرى، وهي تحتاج لبعض التنسيق لتظهر متحدة في المحفل الدولي.

وقد تطور الأداء الدبلوماسي بين الدول الأعضاء وقامت اتحادات وهيئات دولية إسلامية انبثقت عن جسم المنظمة وحققت أشكالاً طيبة من التعاون والتكامل، نعد منها[٢٠٣]:

لجان دائمة

- لجنة القدس، ويرأسها ملك المملكة المغربية. مقرها الرباط، المملكة المغربية.
- اللجنـة الدائمـة للإعـلام والشـؤون الثقافية (كومياك)، ويرأسـها رئيس جمهورية السنغال، ومقرها في داكار، السنغال.
- اللجنة الدائمة للتعاون الاقتصادي والتجاري (كومسيك)، ويرأسـها رئيس الجمهورية التركية، ومقرها أنقرة، تركيا.
- اللجنـة الدائمـة للتعاون العلمـي والتقنـي (كومستيك)، ويرأسـها رئيس جمهورية باكستان الإسلامية، ومقرها إسلام أباد.

كما أن هناك عدداً من الأجهزة المتفرعة عن المنظمة، منها:

- مركـز البحـوث الإحصائيـة والاقتصاديـة والاجتماعية والتدريـب للدول الإسلامية، أنقرة، تركيا.
- مركز البحوث للتاريخ والفنون والثقافة الإسلامية، إسطنبول، تركيا.
- الجامعة الإسلامية للتقنية، دكا، بنغلاديش.

(٢٠٣) الموقع الرسمي لمنظمة التعاون الإسلامي على شبكة الانترنت http://www.oic-oci.org

- المركز الإسلامي لتنمية التجارة، الدار البيضاء، المملكة المغربية.
- مجمع الفقه الإسلامي الدولي، جدة، المملكة العربية السعودية.
- صندوق التضامن الإسلامي ووقفه، جدة، المملكة العربية السعودية.
- الجامعة الإسلامية في النيجر، ساي، النيجر.
- الجامعة الإسلامية في أوغندا، مبالي، أوغندا.

مؤسسات وأجهزة متخصصة

هـي المؤسـسات والأجهزة المنشأة في إطـار منظمة التعاون الإسـلامي بموجب قـرار من مؤتمر القمة أو التعاون الإسـلامي لـوزراء الخارجية، وتكون عضويتها مفتوحة بصورة اختيارية أمام الدول الأعضاء في منظمة التعاون الإسلامي، وتتميز بأن ميزانياتها مستقلة عن ميزانيـة الأمانة العامة أو ميزانيات الأجهزة الفرعيـة، وتعتمد ميزانيات هذه الأجهزة النصوص والتشريعات في أنظمتها الأساسية.

- البنك الإسلامي للتنمية، جدة، المملكة العربية السعودية.
- المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة، الرباط، المملكة المغربية.
- وكالة الأنباء الإسلامية الدولية (إينا)، جدة، المملكة العربية السعودية.
- منظمة إذاعات الدول الإسلامية (إسبو)، جدة، المملكة العربية السعودية.

مؤسسات المنظمة

يحق للمؤسسات والأجهزة التابعة للدول الأعضاء في منظمة التعاون الإسلامي أن تنضم بصفة اختيارية إلى عضوية هذه المؤسسات. وموازنات مستقلة عن موازنات الأمانة العامة والأجهزة المتفرعة والمتخصصة. ولقد أنشئت برعاية مؤتمرات القمة الإسـلامية والمؤتمر الإسـلامي لوزراء الخارجية. ويجوز منح المؤسـسات المنتمية

صفــة مراقب بموجب قرار يصدره المؤتمر الإســلامي لوزراء الخارجية، كما يجوز لهــا تلقي مساعدات طوعية مــن الأجهزة المتفرعة والمتخصصــة وكذلك من الدول الأعضاء.

- الغرفة الإسلامية للتجارة والصناعة، كراتشي، باكستان.
- منظمة العواصم والمدن الإسلامية، مكة المكرمة، السعودية.
- الاتحــاد الريــاضي لألعاب التضامــن الإســلامي، الرياض، المملكــة العربية السعودية.
- اللجنة الإسلامية للهلال الدولي، بنغازي، ليبيا.
- الاتحاد الإسلامي لمالكي البواخر، جدة، المملكة العربية السعودية.
- الاتحاد العالمى للمدارس العربية الإسلامية الدولية، القاهرة، مصر.
- منتدى شباب التعاون الإسلامي للحوار والتعاون، إسطنبول، تركيا.
- الاتحاد الدولي للكشاف المسلم.
- الأكاديمية الإسلامية العالمية للعلوم.
- اتحاد المستشارين في البلدان الإسلامية.
- المجلس العام للمصارف الإسلامية والمؤسسات المالية.
- اتحاد المقاولين في البلدان الإسلامية.

ولا شك أن هذا المستوى من التعاون بين البلدان الإسلامية وإن كان كبيراً في الطموح ولكنــه لا زال متواضعــاً في الواقع، ولكن من المؤكد أن تعزيز هذا اللون من العلاقات يعود بالفائدة على الشعوب الإسلامية، وهو التطور الطبيعي لحركة التاريخ.

ويجب القول إن العلاقات في إطار منظمة التعاون الإسلامي ليس الإطار الوحيد للعلاقات الدبلوماســية، ولكنــه أحد أبرز مظاهرهــا، وعلى الدبلوماســية الوطنية الانتباه لكافة عوامل التقارب والتواصل مع البلدان الإســلامية وكذلك مع الجاليات الإســلامية في بلــدان العالم التي تشكل بشــكل أو بآخر رصيــداً إيجابياً للعلاقات الدولية بين الدولة الإسلامية وبلدان العالم.

ومـن الجوانب التي تختص بها الدبلوماسـية في الدول الإسـلامية، ويتعين على الفريق الدبلوماسي إظهار قدر أكبر من التفاعل معها:

- سفارات الحج والتزاماته.
- ثقافة رمضان وتقاليده.
- ارتباط نسك الصلاة بكثير من النشاطات الدبلوماسية.
- تقديم اهتمام أكبر بالوفود الدينية من علماء وفقهاء ومفتين.
- تنظيم زيارات للمرجعيات الدينية في البلد التي يبتعث إليها.
- تنظيم زيارات للمؤسسات الإسلامية العاملة في بلد الإيفاد.
- الاهتمام بالقيم الإسلامية في المظهر والعادات واستقبال الضيوف.
- فهـم طبيعة العلاقات الإسـلامية التاريخية بين البلديـن وإحياء تراث هذه العلاقات ورموزها.
- دراسة المذاهب الإسلامية السائدة في هذا البلد، والتركيز على المسائل المتباينة وفهم أسباب ذلك.

وهـذه الاهتمامات محض أمثلة، ويمكن إضافـة جوانب أخرى كثيرة، وخلاصة الأمر أن تطوير العلاقات الدبلوماسـية والشعبية بين الدول الإسـلامية أمر حيوي، ويحقق مصالح الوطن، وبشكل خاص القضية الفلسطينية التي تتبنى فيها الدول الإسـلامية مواقف متقاربة، ترفض الاحتلال الإسرائيلي وتطالب بالحقوق المشروعة للشعـب الفلسطينـي، وحماية الأقـصى الشريف، بل إن حمايـة الأقصى كانت هي السبب المباشر في قيام هذه المنظمة الدولية الكبرى كما أسلفنا.

إن إيلاء اهتمام أكبر للعلاقات الإسـلامية هو في الواقع وعي دبلوماسي صحيح، وإدراك لحقائق التاريخ والجغرافيا التي طبعت سـلوك هـذه الشعوب وحاجاتها خلال التاريخ.

الفصل الثالث

الدبلوماسية في الكتاب والسنة

وفي إضافة أدبية لما قررناه في هذه الدراسة من دور الدبلوماسية الناجحة في خدمة الوطن والمواطن، وخدمة قضايا الأمة فإننا نطوف في هذا الفصل رحاب القرآن الكريم والسنة المشرفة، رجاء التماس ما تحمله النصوص الكريمة من هدى ونور تغني القيم الدبلوماسية وتعزز رسالتها الإيجابية ودورها البناء.

ويلزم أن نشير في صدر هذا الفصل أن ما نلتمسه هنا ليس بالضرورة حكماً فقهياً مؤصلاً ومدللاً بالأدلة، ولا هو موقف قطعي الدلالة في التفسير، وإنما هو إشارات وبشارات، ولطائف وتنبيهات، وهي حقائق نستأنس بها ولا نحتكم إليها، وهي تحمل دلالات عميقة، وتضيء للدبلوماسي دربه ومعرفته من خلال حقائق القرآن الحكيم والسنة الكريمة.

السفارات في القرآن الكريم:

يذكر القرآن الكريم أنبياء الله على أنهم سفراء بين العباد وبين الله، وسفارتهم هذه هي التي كانت تشكل الجانب الأعظم من رسالتهم ومواقفهم الكبيرة البناءة.

وقد قدم النبي صلى الله عليه وسلم نفسه رسولاً بين العباد وبين الله تعالى، ونص القرآن على سفارته تلك في مواطن كثيرة:

- ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى، عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى﴾[٢٠٤].

(٢٠٤) سورة النجم، الآية ٤

- ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ﴾[٢٠٥].
- ﴿قَالَ الَّذِينَ لاَ يَرْجُونَ لِقَاءنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَاء نَفْسِي،إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَى إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾[٢٠٦].

ومنذ بداية الرسالة أعلن نفسه سفيراً بين الله وبين الناس فقال: «إن الرائد لا يكذب أهله....».

وقال ابن تيمية في كتابه درء تعارض العقل والنقل: «عرفوه بوحدانيته وأقروا له بمعرفة ربوبيته وإنما جحدوا معرفة التوحيد الذي تعبدهم به على ألسنة السفراء وهو قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً﴾[٢٠٧].

وهكذا فقد اشتهر لدى السلف وصف الأنبياء بأنهم السفراء بين الله وعباده.

ومع أن المقاربة بعيدة بين سفارة الأنبياء بين الله وعباده وسفارة الإنسان للإنسان، ولكن يمكن القول بأن إشارات في غاية الأهمية وردت في آداب هذه السفارات، ونشير هنا إلى طائفة من هذه الإشارات الحكيمة.

ولا بد من التذكير أن ما نورده هنا إنما هو محض استئناس، وهو ليس على وفق قواعد الاستدلال والاستنباط في الشريعة، وإنما نتخذه إرشاداً واهتداء بما أودع الله في كتابه العزيز من عجائب المعارف.

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾[٢٠٨]:

ففي هذه الآية إشارة أن يكون السفير مطلعا على لغة القوم الذين أرسل إليهم، ويعزز هذا التوجيه ضرورة وجود دورات تأهيل خاصة للسفراء وأعضاء السلك الدبلوماسي في لغة البلد التي يكلفون فيها بالسفارة، ويفرض ذلك على جهاز

---

(٢٠٥) سورة الكهف، الآية ١٠٩
(٢٠٦) سورة يونس، الآية ١٥
(٢٠٧) درء تعارض العقل والنقل، لابن تيمية، ج ٥، ص ٢٠٣
(٢٠٨) سورة إبراهيم، الآية ١٤

الاختيار في المؤسسة الدبلوماسية أن يكون واعيا لهذا الجانب، وأن يقوم بإعداد المبتعثين ثقافياً ولغوياً بما يضمن منهم أحسن الأداء.

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾[٢٠٩]:

وفي الآية تنبيه أن السفير لن يستطيع أن يبلغ رسالته إلا إذا حظي بمصداقية وقبول توفر له طاعة الناس واحترام ما يؤديه فيهم من سفارة، فقد أيد الله أنبيائه بالمعجزات، التي تضمن احترام الناس لرسالاتهم، والأمر نفسه يتعين في من يوفد بسفارة الأمة في الناس فلا يصح أن يتوجه بدون وثائق مصدقة، وأوراق اعتماد صحيحة حتى يتحقق تأثيره في الناس، ويتمكن من أداء رسالته.

﴿وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾[٢١٠]:

وفي الآية بيان أن السفارات يجب أن تبلغ الأمم جميعاً، وأن لا تقتصر على البلدان ذات المصلحة القريبة والمتعجلة، فالسفارة تأسيس لعلاقات دولية دائمة، والعالم ماض إلى مزيد من التواصل والتكامل، والدولة الناجحة تصل بثقافتها ورسالتها إلى أطراف الأرض.

وليس المطلوب بالطبع بناء سفارات في كل بلد فهذا مما لا تدعو الحاجة إليه وقد يقوم السفير الواحد بحاجات بلدان متعددة متجاورة وهو معروف في العرف الدبلوماسي، ولكن المطلوب أن ترسم سياسة استيعابية مناسبة بحيث تتوفر مصالح البلاد في كل صقع في العالم.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً﴾[٢١١]:

وفي الآية إشارة دقيقة لوجوب أن يكون الرسول قريباً من الناس، يلتزم عاداتهم وأعرافهم وطبائعهم، ولا ينفرد في طبعه أو يعتزل في خصائصه.

---

(٢٠٩) سورة النساء، الآية ٦٤
(٢١٠) سورة فاطر، الآية ٢٤
(٢١١) سورة الرعد، الآية ٣٨

فالسفير ينبغي أن يكون قريباً من القلوب، ومن شرطه أن يكون ناجحاً في بناء أسرة صحيحة، وأن يسعى ليكون له زوجة وذرية، فإن الغربة مظنة افتتان، وغياب الأسرة لا بد أن ينعكس ضعفاً في أداء السفير، والخلاصة المطلوب من السفير أن يكون طبيعياً في علاقاته وحياته الاجتماعية.

ولتعزيز هذا المعنى جاءت الآية في سورة الأنبياء: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ، وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ، وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا﴾[٢١٢].

﴿قُل لَّوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَّسُولًا﴾[٢١٣]:

وردت آيات كثيرة في القرآن الكريم تؤكد على بشرية الرسول، قل إنما أنا بشر مثلكم، وتولى القرآن غير مرة بيان الجانب البشري في حياة الرسول الكريم، ودعا بوضوح إلى عدم الغلو في وصفه ومدحه، وأكد كذلك على أنه محل قدوة وأنه بشر كالبشر، ولو كان ملكاً لكان تكليف الناس باتباعه أمراً في غاية البعد.

وفي الآية تأكيد على المعنى السابق وهو أن يكون السفير قريباً من الناس، وأن تتعزز صلاته بسائر الأطراف المعنية برسالته، في إطار الحكومتين المرسلة والمستقبلة، وفي إطار الشعبين، وأن لا يتصنع ما يميزه من الناس، فإنه إن ابتعد عنهم سيفقد تأثيره فيهم، وربما يسيء إلى سفارته.

﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا﴾[٢١٤]:

أكدت هذه الآية ونظيراتها وهي كثيرة في القرآن الكريم على أن سلطة الرسول لا تتعدى البلاغ، وأن الحساب على الله تعالى، وأن من شرط السفارة الناجحة أن تنصرف إلى ما عقدت لأجله، وهو البلاغ المبين.

---

(٢١٢) سورة الفرقان، الآية ٢٠
(٢١٣) سورة الإسراء، الآية ٩٥
(٢١٤) سورة الإسراء، الآية ٥٤

ومثل هذه الآية العظيمة قوله تعالى: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ، لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ﴾[٢١٥].

ويستأنس من ذلك للاستدلال بأن السفارة الصحيحة لا تحتاج لسلطان من السلاح والجند والحرس، وإنما هي مهمة بلاغ، وآلتها البرهان والبيان، وليس السفير وكيلاً على الناس بمعنى السلطة التنفيذية أو القضائية، بل إن سلطته لا تتعدى إبلاغ الرسالة التي أوفد فيها، وقد تعززت هذه الحقيقة في آيات كثيرة منها:﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا، إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ﴾[٢١٦].

﴿وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾:

وتؤكد هذه الآية ما سبق بيانه، وهو أن مهمة المرسلين هي البلاغ، وهذا البلاغ شرطه أن يكون مبيناً، فلا معنى للبلاغ بدون بيان، والبلاغ المبين هو البلاغ المؤيد بالحجة والبرهان.

والآية تلهم القيادات السياسية والاجتماعية أن ينهضوا بإعداد سفراء الأمة بحيث يكون بلاغهم مبيناً، وهذا يتطلب شروطاً خاصة في السلك الدبلوماسي من المهارة الخطابية والمعرفة البرهانية والحجج المنطقية والثقافة الواسعة.

وتجدر الإشارة في هذه الملاحظة وسابقتها أنها كانت وصايا قرآنية للرسول بوصفه مبلغاً عن الله عز وجل، ولكن بعد أن قامت الدولة وأصبح له فيها سلطان وأمر الناس بالاحتكام إليه فقد أصبحت هذه الآيات العظيمة من باب تقييد المطلق وتخصيص العام، وصار من مسؤوليته صلى الله عليه وسلم الحكم والقضاء والفصل بين الناس، وهو أمر يختص بالحاكم ولا يختص بالسفير.

﴿أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ﴾[٢١٧]:

وفي الآية بيان أن الجهة التي توفد السفراء مكلفة بتقدير حاجات الدول

(٢١٥) سورة الغاشية، الآية ٢٢
(٢١٦) سورة الشورى، الآية ٤٨
(٢١٧) سورة يس، الآية ١٤

والمجتمعات التي يرسل إليها المرسلون وأن تتصف بالمرونة والواقعية في تأمين الوفادات المناسبة وفي الأوقات المناسبة فلا ينفع التأخير كما أنه لا يفيد التبكير، بل يتعين أن يؤتى الشيء في وقته وزمنه.

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾[٢١٨]:

وفي الآية بيان واضح أن السفير مكلف بالعمل على وفق نظام من البينات والأصول، وأنه ينبغي أن يزود بالبينات والكتاب والميزان، وهذا توجيه لمن يلي أمر سفارة المسلمين أن يزود باللوائح والوثائق والإمكانيات التي توجهه لما يلزم اتباعه في كل شأن، وأن تقدم له خبرات السابقين بحيث يفيد منها ويلتزم سبيلها.

ومع الفراق في التمثيل والتشبيه ولكن التأكيد في القرآن الكريم على البينات يرسم معلماً هادياً لوجوب تدوين هذه الأصول والبينات والتزامها بدقة لأن الدبلوماسي مؤتمن والمرء يغتفر له في وطنه ما لا يغتفر له في سفارته.

﴿مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾:

إن سفارة النبي صلى الله عليه وسلم جاءت مصدقة لما بين يديه من التوراة والإنجيل وهي الكتب التي كانت متبوعة قبل المبعث.

لقد تكرر هذا النص القرآني الكريم أربع عشرة مرة، وهو يحمل دلالة بالغة الأهمية أن الرسل كلهم يأتون من مرسل واحد، وأن المطلوب هو استمرار ما أنجزه السابقون والبناء عليه وليس هدمه ونقضه، فلم يقل هادماً لما بين يديه أو مبطلاً لما بين يديه أو ملغياً لما بين يديه، وإنما قال مصدقاً لما بين يديه، وفي تعبير آخر شرح النبي صلى الله عليم وسلم رسالته لقوله: «إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق».

وهذه الإشارة ملهمة وهادية بأن السفير ينبغي أن يكون محيطاً بما توافق عليه أسلافه من الأعراف والتقاليد الإيجابية، وأن المستقر في العرف الدبلوماسي هو حصيلة تجارب كثيرة يتعين احترامها، وأن ما استقر من الأعراف له قوة القانون

(٢١٨)سورة الحديد، الآية ٢٥

ما لـم ينص القانون عـلى خلافه، وأن شـأن السفارة الناجحـة أن تحترم تجارب الأولين وتثريها وتغنيها وتفيد منها.

لقد أوردت هذه الأمثلة لمحض الاستئناس والاسترشاد، وليس للفصل في مقاطع الأحكـام، وهناك أمثلة كثيرة أخرى، ويجـب التأكيد مرة أخرى أن القياس هنا غير مطلوب لأنه قياس مع الفارق، ولله المثل الأعلى، وإن في ذلك لآيات لأولي الألباب.

سفارة موسى لدى فرعون:

وبعيداً عن سـفارات الأنبيـاء فيما بين العباد وبين اللـه، ودلالتها الرمزية ولله المثل الأعلى، فقد ذكر القرآن الكريم عدداً من السفارات البشرية الناجحة التي لا بد من الإشارة إليها، ولعل أبرزها سفارة موسى لقومه لدى فرعون.

وقد أورد القرآن الكريم ذكر اسم موسى وسفارته لبني إسرائيل في مواجهة فرعون في أكثر من ١٢٩ موضعاً، وقد وردت في الآيات الكريمة إشـارات بالغة الأهمية لأدب السفراء، ووصايا نحسبها ضرورية جداً للعاملين في السلك الدبلوماسي، نختار منها:

﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾[٢١٩]:

فقـد حمل هذا النص الكريم إشـارة هامة لوجوب اعتماد اللباقة الدبلوماسـية في الخطاب، ومع أن فرعون كان يعكس غاية الاسـتكبار والاسـتعلاء والاسـتبداد التاريخي ولكن موسى كسفير لبني إسرائيل أمر بأن يخاطبه الخطاب اللين الحكيم.

ويعتـبر أدب الخطـاب أهـم خصائص السفـير الناجح، ويعتبر تخـير الألفاظ والعبـارات من مقومات السفـارة الناجحة، وفي الخبر أن رجـلاً دخل على المأمون فوعظه وقسا عليه، فقال له المأمون: «هون عليك يا هذا، فإن الله قد أرسـل من هو خير منك إلى من هو شر مني فقال له: فقولا له قولا لينا لعله يتذكر أو يخشى».

أبنـي إن البـر شـيء هـين وجـه طليـق ولسـان لـين

(٢١٩) سورة طه، الآية ٤٤

﴿وَاجْعَلْ لِي وَزِيراً مِنْ أَهْلِي، هَارُونَ أَخِي﴾[٢٢٠]:

وفي الآيــة بيان أن الحوار والتفاوض الدبلومــاسي عمل جماعي، يجب أن يتمتع بروح الفريق، وحين يضرب القرآن الكريم هذه الحقيقة في شخص كليم الله موسى بــن عمران فهو يعطــي أوضح صورة لما ينبغــي أن تكون عليه علاقــات السفراء والمبعوثين من العمل الجماعي، فمع أن موسى نبي كريم من أولي العزم من الرســل ولكنــه لم يشــأ أن يقوم بالمهمة وحيــداً وإنما أدرك أهمية العمــل الجماعي بروح الفريق.

﴿وَأَخِــي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِــلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ﴾[٢٢١]:

وفي الآيــة بيان أن العمل الدبلومــاسي التفاوضي يحتاج إلى مهارات خاصة، فمع أن موسى هو الرســول المكلف بالبلاغ وهــو كليم الله وصاحب التوراة ولكن الآيات الكريمــة جاءت واضحة في البحث عن الأكثر كفــاءة في فصل الخطاب، وهذا يؤكد أن التأهيــل المعرفي واللغوي والبلاغي ضروري للعاملين في السلك الدبلوماسي، وقد تدفع الأيام زعيماً ما للقيادة ولكنه يحتاج باستمرار إلى اختيار الكفاءات المناسبة في مواضعهــا، وأهم هذه الكفاءات الفريق الدبلوماسي المفاوض والمحاور الذي ينبغي أن يتحــلى بالفصاحة وقوة البيان وحسن المظهر، وهو ما وجده موسى في شــخص هارون عليهما السلام.

﴿وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ﴾[٢٢٢]:

وفي الآية اعتذار موسى من الله تعالى عن السفارة لفرعون لسبب إجرائي واضح، وهو أن هناك أحكاماً قضائية صدرت بحق موسى من قبل في مملكة الفرعون، وهي الجهة المبتعث إليها، ومع أنه قضاء بغير حق، ولكنه سيحد من قدرته على التأثير في فرعون وقومه، وسيحول دون وصول رسالته إلى المقصودين بها.

---

(٢٢٠) سورة طه، الآية ٢٩
(٢٢١) سورة القصص، الآية ٣٤
(٢٢٢) سورة القصص، الآية ٣٣

وكـان موسى قد تسبب عن غـير قصد بقتل المصري الذي كان يستنصر به، وقد رفـع يديـه إلى الله تعـالى مستغفراً وقـال رب إني قتلت نفساً فاغفـر لي فغفر له، ولكن السجل العدلي لمـوسى في دولة الفرعون كان مثار اتهام، وقد أصدر الفرعون قراره الاتهامي ضد موسى قبل ذلك بسنين بتهمة قتل المصري، ولأجل ذلك فقد لجأ موسى لمدين حيث عمل عشر سنوات أمينا لأعمال شعيب الرجل الصالح فيها، وكان يستعيذ بالله من فرعون وزبانيته، ولذلك لما أمره الله أن يكون سـفيراً إلى فرعون قـال بوضوح: ﴿رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُـمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ﴾، ومقتضى ذلك أن هناك سـجلاً جنائيـاً في القضاء المصري وهذا أمر لا يمكنه مـن السفارة الناجحة، وبالطبـع نحـن لا نناقش هنا عدالـة القضاء المصري أيام فرعـون، ولكننا نناقش ضرورة أن يكون السفير سليم السجل العدلي، ولاسيما في البلد التي يبتعث إليها.

﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدْتَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾[٢٢٣]:

حـين لقي موسى فرعـون قال له فرعون مستكـبراً: ﴿قَالَ أَلَمْ نُرَبِّـكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِـنِينَ﴾، وقصد فرعون بذلك الإشـارة إلى فضله عليه حيث كـان التقطـه من اليـم واتخذته امرأة فرعـون قرة عين لها وكـان فرعون يطعمه ويرعاه عندما كان صغيراً وأنه نشأ في حجر فرعون، وكان يحاول أن يظهر فضله عليـه، فاعترض موسى على ذلك وقال مستهجنـاً: ﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدْتَ بَنِـي إِسْرَائِيـلَ﴾، مستنكراً منه موقفه في ذكر إطعامه لموسى وتناسـيه إذلاله لبني إسرائيـل وقتل أبنائهم واسـتحياء نسائهـم، وغير ذلك من المظالـم التي ذاقها بنو إسرائيل من فرعون.

وفي هذه الإشارة تمنحنا الآية فرصة التأمل في معنى العلاقة الندية بين الرسول والمرسـل إليـه، فمع أن موسى كان مجـرد مواطن في مملكة فرعـون، ولكن مهتمه الدبلوماسـية وسـفارته لصالـح قومه ألزمتـه أن يخاطب فرعـون بخطاب ندي، عـلى مبـدأ التعامل بالمثـل، ولذلك فإنه لم يقبل مـن فرعون أن يمـنَّ عليه بتربيته صغـيرا وإطعامه وإرضاعه، إن مثل هذه المسائل قد تغتفر في العلاقات الشخصية

(٢٢٣) سورة الشعراء، الآية ٢٢

والتجاريــة، ولكنها لا يمكن أن تغتفر في العلاقات الدبلوماســية، فقوة السفير من قوة من يمثله، والسفير يمثل الدولة التي أرسلته ولا يقبل منه خطاب استعطاف أو توسل أو تزلف، بل يجب أن يتحلى بالندية في الحوار والقوة في البرهان.

إنها بعض إشــارات هادية وفي القرآن منها كثير، ولكننا أوردنا هنا ما يتسع له المقام، والمراد أن ندرك أي أثر حكيم كان لهذه التوجيهات التي خصت بها ســفارة مــوسى لدى فرعون، وأن نقارن النتائج الإيجابية التي ظهرت في ســياق توجيهات القرآن الكريم لمن أرسل في سفارة تتحقق فيها مصالح الأمة.

سفراء الرسول في حال السلم:

مــع أن عــصر النبوة كان فــترة صراع وعناء، غلبــت عليه طبيعــة المواجهة مع الجاهلية، وفرضت على الجماعة المسلمة أكثر من ٥٩ مواجهة مع فصائل الجاهلية، وقع في عدد منها اشتباك حربي، ولكن النبي الكريم استطاع أن يقدم تجربة فريدة في الشأن الدبلوماسي يمكن أن ندرك منها جوانب بالغة الأهمية.

ونشير ان ســائر ما نقتبسه في هذا الفصل من أخبار النبي صلى الله عليه وسلم فهــو مقتبس من ســيرة ابن هشــام، وكذلك من ابن كثير في كتابــه السيرة النبوية، ويمكن التماس تفاصيلها من موقع الحدث في السيرة الكريمة.

وبالطبــع فــإن متابعة حياة الرســول الكريم في الشأن الدبلومــاسي والتأمل في طبيعة السفارات التي أوفدها الرسول الكريم، ستكشف عن أسرار النجاحات التي تحققت لهذه السفارات الفريدة.

إن مهمتــه في المقام الأول هي الرســالة والنبوة، وهي ســفارة إلهية على الارض يقوم فيها الرسول الكريم بنقل رسائل السماء إلى الأرض، ويقدم عبر السنة النبوية الشريفة تفسيرات ضافية ووافية لهذا الخطاب الإلهي الكبير.

والسفارة الإلهية على الأرض كانت نبوة خاتمة، ومعنى ذلك أنها جاءت لتؤسس

نهايــة لعصر الخــوارق وبداية لعصر السنــن، ونهاية لعصر الغيــب وبدءاً لعصر الشهــود، ونهاية عــصر المعجزات وبداية عــصر الإنسان، وكانــت مهمته في المقام الأول – وفق مالك بن نبي- الخروج بالإنسانية من ضباب الخوارق إلى ضياء السنن.

وهذه قائمة بأهم السفراء في عهد النبوة:

م	اسم الرسول	الجهة التي أرسل إليها	نتائج السفارة
١	شجاع بن وهب الأسدي	شمر بن الحارث الغساني	قام الحارث بقتل السفير
٢	حاطب بن أبي بلتعة	المقوقس ملك مصر	نجحت السفارة وتم تبادل الهدايا والرسائل
٣	عمرو بن العاص	جيفر وعباد الأسديين في عمان	نجحت السفارة وتم الحصول على وعد بالسماح للمؤمنين بالهجرة
٤	دحية الكلبي	هرقل ملك الروم	نجحت السفارة وبلغت الرسالة ولكن هرقل تردد ثم اختلف مع فريقه الحاكم
٥	عمرو بن أمية الضمري	النجاشي ملك الحبشة	نجحت السفارة نجاحاً باهراً، وأصبح النجاشي أكبر حليف للإسلام.
٦	العلاء بن الحضرمي	المنذر بن ساوى ملك البحرين	نجحت السفارة وأسلم المنذر بن ساوى وأقره رسول الله على ملكه.
٧	المهاجر بن أبي أمية المخزومي	الحارث بن عبد كلال – اليمن	تأخر المهاجر ووقعت فتنة الأسود العنسي، ودخلها بعد موت الأسود
٨	عبد الله بن حذافة السهمي	كسرى ملك الفرس	رفض كسرى الرسالة وغضب وأرسل إلى عامله في اليمن باذان يأمره أن يعتقل النبي ويحضره إليه
٩	أبو عبيدة بن الجراح	نجران	نجحت السفارة واستقرت نجران على أرضها وبلدها إلى آخر عهد عمر
١٠	أبو موسى الأشعري	مأرب	نجحت السفارة ودخل أهل مأرب في الإسلام
١١	معاذ بن جبل	اليمن	قاضياً عاماً في اليمن
١٢	علي بن أبي طالب	اليمن	رسولاً عاماً في اليمن
١٣	عمرو بن حزم	نجران	خلف أبا عبيدة ونجحت سفارته، ويعتبر كتاب تكليفه من أهم وثائق الدبلوماسية النبوية
١٤	خالد بن سعيد بن العاص	زبيد باليمن	كان سفيراً بصنعاء ومات رسول الله وهو فيها

م	اسم الرسول	الجهة التي أرسل إليها	نتائج السفارة
١٥	عامر بن شهر الهمداني	همدان باليمن	كان سفيراً ناجحاً وبنى صداقات متينة مع النجاشي بالحبشة
١٦	شهر بن باذان	صنعاء	ابن باذان والي فارس على اليمن، قتله الأسود العنسي
١٧	الطاهر بن أبي هالة	عك باليمن	كان ربيب النبي من خديجة، عمل ضمن فريق خماسي لإدارة اليمن
١٨	يعلى بن أمية	الجند باليمن	اشتهر ببرامجه الزراعية في اليمن
١٩	عكاشة بن ثور	السكاسك باليمن	اشتهر بجماله وحكمته
٢٠	جرير بن عبد الله البجلي	يهود اليمن	كان أجمل العرب وقال عنه عمر: إنه يوسف هذه الأمة
٢١	سليط بن عمرو	هوذة بن علي وثمامة بن أثال – نصارى اليمامة	فشلت السفارة ورفض أهل اليمامة الرسول وحاربوا المسلمين

وسنقتصر في هذا الفصل على دراسة عدد من السفارات النبوية الحكيمة التي حققت نجاحاً ظاهراً في أداء رسالتها الدبلوماسية.

ويمكن تقسيم تجارب الدبلوماسية النبوية إلى نوعين: دبلوماسية السلم ودبلوماسية الحرب.

١- دبلوماسية السلم:

جعفر بن أبي طالب:

كان أول سفراء النبي الكريم، تخيره رئيسا لكوكبة المهاجرين الأولى التي توجهت إلى الحبشة، ويجب أن نلاحظ هنا أن اختيار جعفر كان إرادة حكيمة من النبي الكريم، وكان من هدف هذا الاختيار بناء أوثق صلة مع الملك العادل النجاشي الذي لا يظلم عنده أحد، وأنه أعلن وقوفه إلى جانب المستضعفين ونادى بالمساواة

والعدالة فيجب منطقياً أن يكون أقرب صديق للدولة الإسلامية الناشئة، حيث بنى الإسلام رسالته على الأخوة الإنسانية، والتعاون على البر والتقوى، واجتماع الشرفاء في الأرض عــلى اختلاف أديانهم ومللهم وقومياتهم على نصرة المستضعفين وحماية المظلومين، وبناء العدالة في الأرض.

ونلاحــظ أن جعفر بن أبي طالب لم يكن من الضعفاء في مكة، فأبوه أبو طالب وهــو الحامــي الرئيسي للنبوة، وكانــت حمايته لابن أخيه محمــد علنية وصريحة، وبالبداهة فهو على حماية ابنه أقدر منه على حماية ابن أخيه، لاســيما أن ابن أخيه كان صاحب الرسالة فيما كان ابنه جعفر أحد الأتباع، واعتقد أن هذا الاختيار كان حكيماً تماماً، وبذلك تحول المفاوض في الحبشة من مستضعف يتسول الرحمة إلى مفاوض دبلوماسي يلتمــس التحالف والتناصر وبناء علاقات متكافئة بين الحبشة والدولة الإسلامية الناشئة.

بالتأكيــد لو كــان رئيس القوم من الموالي المعذبين على يــد قريش لكان مستوى العلاقة يقتصر عند حدود العطف وتقديم الطعام والشراب للنازحين، وربما بعض المجامــلات العابرة، ولكن دور جعفر الهاشــمي القرشي المطلبي ابن شــيخ قريش وزعيمهــا الروحــي أبي طالب كان في بنــاء علاقة ندية قائمة عــلى الثقة والاحترام والتأسيس على المشترك بين الديانتين السماويتين.

وعــلى الرغم من وجود عثمان بن عفان صهر النبــي الكريم وزوجته رقية بنت رســول الله بين المهاجرين ولكن الرسول اختار جعفراً ليتحدث باسم القوم، وذلك لمــا عــرف عنه من فصاحــة وحجة وبيان وهو مــا لم يشتهر به عثمــان رضي الله عنهما، إضافة إلى رغبة النبي الكريم في أن يرســم صورة الدولة الناشــئة على أنها دولة مؤسسات وكفاءات وليست مجرد عائلة متمردة على تقاليد القبيلة.

وهناك في رأيي ســبب آخر وهو دور أســماء بنت عميس زوجــة جعفر بن أبي طالــب فقد كانت هذه السيــدة الحكيمة أكثر نساء قريش ذكــاء وحضوراً ووعياً، ويكفي للإشارة إلى مكانتها ومنزلتها أنها عاشت في كنف جعفر وبعد موته خطبها أبو بكــر وتزوجها، وبعد وفاته خطبها علي بن طالب وتزوجها، ثم خطبها معاوية

ولم تقبل به زوجاً، وكانت أمها هند بنت عوف تعرف في العرب بأنها أكرم الأمهات أصهـاراً وأظـآراً، فقد زوجـت بناتها للرسـول الكريم ولحمـزة وجعفر والعباس والوليد بن المغيرة، فكانت أخت أسماء سلمى زوجة حمزة بن عبد المطلب وأخواتها لأمهـا زينب بنت خزيمـة زوجة للرسـول الكريم، وبعد وفاتها تزوج رسـول الله أختهـا لأمها ميمونة بنت الحارث، وكانت أختهـا أم الفضل زوجة العباس بن عبد المطلـب وأختها لبابة الصغرى أم خالد بن الوليد، وباختصار كانت أسـماء مطلب الملوك، وكانت أخواتها أهم النساء في بلاط قريش، وكذلك في عصر الرسالة، وكانت تحمل كل صفات السيدة الأولى، واسـتطاعت ببراعة أن تبني شبكة علاقات نسائية داخل بلاط النجاشي، حتى إنها أرضعت عبد الله بن النجاشي، وأسهمت في بناء ثقة متينة بين الدولة الإسلامية الناشئة وبين النجاشي.

ولا يحتـاج القارئ الكريـم أن نذكره هنا ببراعة هذا السفـير في إقناع النجاشي بعدالة القضية الإسلامية ومواجهة داهية العرب وصديق النجاشي عمرو بن العاص الذي أرسـلته قريش لاسـترداد المهاجرين من الحبشة، وكيف تمكن السفير جعفر بن أبي طالب مـن شرح عدالة قضية المهاجرين، ووضع النجاشي أمام مسؤولياته في نصرة العدالة وحماية المستضعفين.

خطـاب جعفر الذي وعاه التاريـخ أمام النجاشي لم يكن يتحدث فيه عن أركان الإسـلام من صلاة وصيام وزكاة وحج، ولم يشر فيه إلى تمايز عقيدة التوحيد عن عقيـدة التثليث، ووجوب الدعوة الى الوحدانيـة، وتفاصيل توحيد الألوهية وتوحيد الربوبيـة، وإنما كان بياناً واضحاً في مظلومية شـعب تائـق إلى الحرية في مواجهة إرادة بطش ظالمة ديكتاتورية عنصرية متغطرسة، وهذا بالضبط ما اقنع النجاشي بعدالـة هـذه القضية ونبل الموقف الذي اتخذه في حمايـة هؤلاء المهاجرين ورفض دعـوى داهيـة العرب بأنهم مارقون عـلى السلطان راغبـون بالفوضى، ضالون في العقيدة.

ومن نص خطاب جعفر الذي روته أم سلمة:

«أيها الملك..... كنا قوما أهل جاهلية نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش،

ونقطع الأرحام، ونسيء الجوار، يأكل القوي منا الضعيف، فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسـولاً منا، نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه، فدعانا إلى الله لنوحده ونعبـده، .... وأمرنا بصدق الحديث، وأداء الأمانـة، وصلة الرحم، وحسن الجوار، والكـف عن المحـارم والدماء، ونهانا عن الفواحش، وقول الـزور، وأكل مال اليتيم وقذف المحصنة.....

فصدقنـاه، وآمنـا به واتبعناه عـلى ما جاء بـه .... فعدا علينا قومنـا، فعذبونا وفتنونـا عن ديننا، ليردونا إلى عبادة الأوثان من عبـادة الله عز وجل، وأن نستحل ما كنا نستحل من الخبائث، فلما قهرونا وظلمونا وشـقوا علينا، وحالوا بيننا وبين ديننـا خرجنا إلى بلدك، واخترناك على من سـواك، ورغبنا في جوارك، ورجونا أن لا نظلم عندك أيها الملك»[٢٢٤].

كـان لهـذا الموقف الواعي أكبر الأثـر في نفس النجاشي وسر وجهه واسـتنار لما سمع من جعفر، وأمر بإكرامه وأصحابه وحسن رعايتهم.

وفي اليـوم التـالي عمد عمرو بن العـاص إلى اللعب بالورقـة الدينية، وقال أمام الملـك: إن هؤلاء تركـوا دين قومهم ولم يدخلوا في دينـك ولا في دين أحد من الملوك، ووقع هذا الكلام موقعاً صادماً لدى النجاشي واستدعاهم من جديد ليفهم موقفهم من المسيح وأمه.

وهنـا تبدو براعة جعفر بن أبي طالب ووعيـه الدبلوماسي، ويمكن افتراض أن لو كان مفاوض آخر أقل حكمة فمن الوارد هنا أن يتزلف إلى النجاشي على حساب العقيـدة وفق قاعـدة إلا من أكره وقلبه مطمـئن بالإيمان، وكـان بالإمكان هنا أن يرضي هذا الزعيم المسيحي ببضع كلمات في العقيدة حتى يضمن سلامة المهاجرين وعدم تسليمهم لقريش، ولكن جعفر أظهر شـجاعة وثقة وحكمة، واكتفى بتلاوة نصوص القرآن الكريم في بيان منزلة السيد المسيح وعبوديته لله تعالى، واسـتطاع أن يقدم صورة واضحة لرسالة الإسلام في احترامه للسيد المسيح دون أن يذهب إلى التزلف للنجاشي وما يعتقده في أمر المسيح.

---

(٢٢٤) سيرة ابن هشام، ج ١، ص ١٦٥

وكانت المفاجأة أن النجاشي بدا مختلفاً حتى عن حاشيته وبطارقته الذين كانوا يدينــون بالأقنوم الإلهي للمسيح، وقال النجاشي بوضــوح: «إن هذا والذي جاء به عيــسى بن مريم ليخرج من مشكــاة واحدة!!»فتناخرت بطارقته حوله حين قال ما قــال، فقال: «وإن نخرتــم، وإن نخرتم والله»، ثم قال لجعفــر وأصحابه: «اذهبوا فأنتم ســيوم بأرضي - والسيوم: الآمنون - من سبكم غرم من سبكم غرم، ما أحب أن لي جبلاً من ذهب وأني آذيت رجلاً منكم!!».

ولكن نجاح السفير جعفر كانت له جوانب أخرى بالغة الأهمية لا بد من تسليط الضــوء عليها، فقــد كانت الهجــرة إلى الحبشة قبــل الهجرة بسبع ســنوات، ومن المعروف أن الدولة الإســلامية قامت بالفعل في المدينة عند الهجرة، بقيادة الرسول الكريم، وبالطبع فقد عاد معظم المهاجرين إلى الحبشة والتحقوا بالدولة الإسلامية في المدينــة، ولكن جعفــر ظل في الحبشة وكلف بمهام دبلوماســية أخرى، ولم يعد دوره إذن في توفــير ملجــأ للهاربين من ظلم قريش، بل كــان المطلوب منه مواصلة الدور الدبلوماسي الناجح الذي قام به هو وزوجته أسماء في بلاط النجاشي، وبالفعل فقــد روى لنا جعفر بن أبــي طالب كثيراً من المواقف التي كــان يمارس فيها دور ســفارة الإســلام في الحبشة، ولو كان يتسع لبيان ذلك لأطلنا فيه القول وقد أشرنا مــن قبــل أن النجاشي حين رزق بولد يكون ولياً لعهده في الحبشة اختار اســم عبد الله، اتباعاً لما فعله جعفر حين سمى ابنه المولود في الحبشة عبد الله! وهو اسم غير شائع في الحبشة، وهي دلالة قوة الرباط العائلي الذي كان يجمع بين أسرتي جعفر وأسرة النجاشي.

أقــام جعفر في الحبشة ســبع ســنوات أخرى بعــد عودة المهاجريــن إلى المدينة المنــورة، وتمكن من تنظيم عدة وفود من قــادة الحبشة وبطارقتها قامت بزيارات متعاقبة لمكة المكرمة ونصرة المسلمين إبان الحصار في شعب أبي طالب، وكذلك إلى المدينة المنورة ولقاء النبي صلى الله عليه وسلم.

وعــاد جعفر إلى المدينة إبان فتح خيبر في السنة السابعة، ويومها قال الرســول الكريم: والله ما أدري بأيهما أسر، بفتح خيبر أم بعودة جعفر.

حاطب بن أبي بلتعة:

اختار النبي الكريم سفيره إلى مصر حاطب بن أبي بلتعة، وهو رجل لم يكن في السابقين الأولين ولا في العشرة المبشرين، ولم يكن كثير صلاة ولا صوم، ولكنه كان الرجل المناسب تماماً للحوار في مصر، فمصر بلد حضاري له تاريخ طويل، وهناك شراكة بين الكنيسة والعرش، وقد أسس القبط كنيسة وطنية، وفي هذه الحالة لا بد للسفير من معرفة وافية بعقيدة القوم وتفكيرهم الديني، وقد كان حاطب هو الرجل المناسب لسفارة كهذه.

في خطابه مع المقوقس أظهر حاطب معرفة فريدة بالعقيدة المسيحية، واعتمد النص القرآني مدخلاً للخطاب الدبلوماسي مع حاكم لا يستطيع أن ينزع عنه عباءة الكنيسة وسطوتها، وفي حواره معه قال له المقوقس: «هل كان صاحبكم نبياً مؤيداً من عند الله»، أجاب حاطب بالطبع بالإيجاب، قال المقوقس: «فما منعه إذ كذبه قومه ألا يكون قد دعا الله عليهم فأهلكهم».

قال حاطب: «أيها الملك.. فما منع عيسى ابن مريم إذ كذبه قومه ألا يكون قد دعا الله عليهم فيهلكهم وينجو من ظلامتهم».

قال له المقوقس: «أنت حكيم .. جئت من عند حكيم».[٢٢٥]

ومع أن اللقاء لم يسفرعن تحول في دين المقوقس، ولكن حاطب استطاع أن ينصب جسور مودة ووئام بين مصر وبين الدولة الإسلامية الناشئة وعاد من مصر محملاً بالهدايا من المقوقس وفيها طبيب وجارية وغلام، وصارت الجارية فيما بعد زوجة كريمة للرسول الكريم صلى الله عليه وسلم.

وكما كان بارعاً في نصب حبال المودة من الجانب المصري فقد طار إلى مصر مرة أخرى بكلمة الرسول الكريم: «استوصوا بالقبط خيراً فإن لهم فيكم ذمة وصهراً».

وهكذا تعتبر سفارة حاطب من أنجح السفارات في الإسلام وقد أثمرت بناء علاقات حسن جوار، وتجنيب مصر من ممارسة دور مقاوم للفتح الإسلامي في

(٢٢٥) معرفة الصحابة، لأبي نعيم، ج ٢، ص ٢٦

سـوريا وفلسطين، كما كان لهذه الروح الودية التي أشـاعتها سـفارة حاطب أن يـسرت السبيـل فيما بعد أمام عمرو بن العاص لدخول مصر عبر فتح سريع جنب الفاتحين والشعب المصري أهوال حرب طاحنة.

دحية بن خليفة الكلبي:

كان دحية بن خليفة الكلبي أميراً عربياً من بني كلب وقد اشتهر بجماله وحسن طلعته، حتى قيل إنه كان إذا مر بالمدينة لم تبق معصر إلا خرجت تنظر إليه لفرط جماله، وأخبر النبي صلى الله عليه وسـلم أن جبريل كـان يأتيه على صورة دحية، في إشـارة لجماله وحسن طلعته حتى سـمي نظير الملائكـة، وبالفعل فقد اختاره الرسول الكريم سفيرا له إلى الشام.

وكان دحية واسـع الثراء، وكان أعظم الخـزرج تجارة مع الشام، وهو صاحب القافلـة العظيمة التـي وصلت المدينة عند صلاة الجمعة تـضرب الطبول وتعزف البـوق حتى انصرف الناس إليها عن صلاة الجمعة وفيهـا نزلت الآية: ﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا﴾.

وبدون شـك فقد كان هذا الاختيار حكمة بصيرة من الرسـول الكريم، فقد كان دحية واسـع الصـلات والروابط بتجار الشـام وبلاط قيصر فيهـا، وكانت قوافله المستمرة رسـالة واضحة لقادة الشام أنهم بالفتح الإسـلامي يكسبون سوقا كبيرة في جزيرة العرب، وكانت سفارة رجل الأعمال الناجح دحية أوضح دليل على ذلك.

ومـن جانب آخر، فـإن الشام بلد حضارات وتاريخ، وكـان الرومان بشعورهم الشقراء وعيونهم الزرقاء يوحون إلى أهل الشام الأصلين، ولاسـيما أهل الساحل في سـوريا ولبنـان وفلسطين بأنهم أقرب إليهم من عرب الصحـراء الذين تغلب عليم الدكنـة والسمرة، وأن سـوريا أشـبه بأوروبا منها بجزيرة العـرب!! وهكذا كانت سـفارة دحية رسـالة واضحة للسوريين بأن رباطهم بالجزيرة العربية هو رباط بالجـذور، وأن رجـال الإسـلام من عرب المدينة هـم من يملأ أسـواق الشام بخير

الصحـــراء، وهم مـــن يصنعون رحلة الشتاء والصيف التـــي يعيش عليها الاقتصاد السوري، وأن الإسلام هو دين الكافة وهو الرحمة للعالمين.

عمرو بن أمية الضمري:

وهنـــا نصـــل إلى ســـفير فريد وغامـــض في تاريخ الرســـالة، فقد كانـــت الحبشة أكثرالبلاد قرباً من مكة، وكان ملكها أكثر الملوك قرباً للنبي الكريم، وأكثرهم وداداً للإســـلام، وفي هذه الحالة فالمفروض أن يكون سفير الاسلام إلى الحبشة واحداً من العـــشرة الكبار، كأبي بكر أو عمر، فللرجل ســـابقة ومـــودة تستحق غاية الاحترام والتقديـــر، وجرت العادة أن يكون التمثيل الدبلومـــاسي متسقاً مع الموقف الوطني للبلاد التي نتبادل التمثيل الدبلوماسي معها، ولكن رسول الله اختار لهذه السفارة رجلاً مغموراً لا يعرف بسابقة في إســـلامه ولا في علمه ولا في فروســـيته، وهو عمرو بـــن أميـــة الضمري، وقد شـــهد بدراً وأحـــداً يقاتل مع المشركـــين!! وفي وصفه قال: «بأنه كان قصير القامة شـــديد الدكنة منفوخ الشفتين!! فما الذي خول هذا الفتى الضمري ليكون أهم سفراء الإسلام في عصر الرسالة؟؟

في الواقع أثارني هذا الاختيار طويلاً وبحثت عن حكمة ذلك واعتقد أنني وقفت على جانب مدهش من حكمة الرسول في الاختيار وأرجو أن يوافقني القارئ الكريم في فهم هذه الحقيقة.

ومن يتأمل كلام عمرو بن أمية الضمري ســـيشهد بلا ريب ما هو مدهش ومثير مـــن خطابه للملك النجاشي، فبينما كانت السفـــراء تخاطب الملوك بما تعارف عليه الناس من الألقاب فإن ســـفير الإســـلام إلى الحبشة تجاوز ذلك كله، وخاطبه بلغة الأصدقاء والأقارب قائلا:

«يا أصحمة..... إن علي القول وعليك الاستماع!!....

إنك كأنك في الرقة علينا منا، وكأنا في الثقة بك منك، لأنا لم نظن بك خيراً قط إلا نلنـــاه، ولم نخفك على شيء قط إلا أمنـــاه، وقد أخذنا الحجة عليك من فيك، الإنجيل

بيننـا وبينك شـاهد لا يرد، وقاض لا يجور، وفي ذلـك موقع الحز وإصابة الفصل، وإلا فأنـت في هـذا النبي الأمي كاليهود في عيسى بن مريم، وقد فرق النبي صلى الله عليه وسـلم رسله إلى الناس فرجاك لما لم يرجهم، وأمنك على ما خافهم عليه، لخير سالف وأجر منتظر» [٢٢٦].

ولـدى أدنى تأمل في صيغة هـذا اللون من الخطاب سـتشعر بالذهول! فكيف تسنى لهذا الفتى أن يخاطبه باسـمه أصحمة بن أبحر؟ وأن لا يناديه بألقاب الملك المعهودة؟ ثم أي جرأة هذه التي يقول له فيها إن علي القول وعليك الاستماع!!!

لقد حيرني أمر هذا الخطاب، لاسيما أن الروايات تشير إلى أن النجاشي استجاب لدعوة الرسـول الكريم وأكرم وفادة رسـوله وشـهد شـهادة الحق!! فكيف أمكن لخطاب قاسٍ كهذا أن يأتي بنتائج إيجابية طيبة؟

شخصياً أعتقد أن تفسير ذلك يمكن أن يكون في ثنايا هذه الرواية الكريمة التي أخرجها الطوسي في أماليه: وفيها أن النجاشي أرسـل يوماً إلى جعفر بن أبي طالب وأصحابـه، فدخلوا عليـه وهو في بيت له جالس على الـتراب، وعليه خلقان الثياب! فقال جعفر: «أعز الله الملك! فما أجلسك على الرماد وعليك هذه الخلقان بغير هيئة الملك التي نعرفها؟».

فقال: «إنه جاءني- الساعة من نحو أرضكم عين من عيوني هناك، وأخبرني أن الله قد نصر نبيه محمداً على قريش بواد يقال له بدر.. وإنا نجد فيما أنزل الله على عيسى أن الله يحب إذا أحدث نعمة لعبده أن يحدث عندها تواضعاً!».

قال جعفر: «وهل تعرف بدراً أيها الملك؟».

قـال: «نعم.. كأني أنظر إليه!.. إنه لما سـلبتني الحبشـة الملك وأنا صغير ركبت البحـر حتى أتيت ماء بدر فأقمت ثمـة، وكنت أرعى الغنم لسيدي هناك وهو رجل من بني ضمرة!..».[٢٢٧]

---

(٢٢٦) زاد المعاد، ج ٣، ص ٦٠٠

(٢٢٧) إزالة الغواشي عن أخبار النجاشي، ابراهيم المختار مفتي أرتريا، وقد نقلناه من موقعه الرسمي.

إن عمـرو بن أميـة الضمري إذن هو ابن تلـك القبيلة العربيـة التي احتضنت النجـاشي مظلوماً مقهـوراً، وعاش في خيامها سـنين عدداً، يلعب مـع أطفال بني ضمرة ويشاركونه حزنه وأساه ويشاركهم حياتهم وأيامهم.

وهكـذا فقد كان فتـى ضمرة ابن هذه القبيلـة الهامة، ومن يـدري فلعله كان شـخصياً رفيق طفولته، واسـتطاع أن يكـون بالغ التأثير عـلى النجاشي بخطابه المباشر هذا الخالي من الألقاب.

ومن الدلالة على طبيعة هذا الاختيار ما أورده كتاب السير من أن النبي صلى الله عليه وسلم عهد إليه أن يطلب من النجاشي تزويجه برملة بنت أبي سفيان! وكانت رملـة قد هاجرت إلى الحبشـة مع زوجها عبيد الله بن جحـش ولكن الأخير تركها وتنصر، فبقيت على عهد الإسـلام صابرة محتسبة، حتى خطبها رسـول الله صلى الله عليه وسـلم، وهنا لا بد من التساؤل: ما معنى أن يخطبها النجاشي للرسـول؟ وليس بينهما أي صلة قرابة أو نسب؟ والرسول أولى بالمؤمنين من أنفسهم؟

والجواب أن رسـول الله أراد أن يكرمها أولا بزفاف تقوم به الملوك، في رسـالة وفاء لصبرها، ورسـالة نصح لأبيها أبي سـفيان ليدرك أنه بالإسـلام سيكون أكثر عزاً ونصراً، وبالفعل فقد استجاب النجاشي وخطبها بنفسه للنبي الكريم وأصدقها هدايـا الملوك وزفها على سـفينيتين ملكيتين هي وسـائر من بقي مـن المهاجرين، وتسامـع العرب بمجد هذه العروس وما زفت به عـلى مراكب الملوك، وبلغ ذلك أبا سـفيان، فقال يصف النبي في زهو وفخر: «هو الفحـل لا يجدع أنفه!!» على الرغم مـن أنه كـان آنذاك كافراً يقود قريشاً لحرب الإسـلام، ولعل هـذا الزواج كان أول إشارة لنهاية الحرب بين مكة والمدينة، وهو ما حصل بالفعل.

وبعد أن تم ذلك الزواج الحكيم، نشير هنا إلى دور آخر لعمرو بن أمية الضمري في نزع فتيل العداء بين زعيم مكة أبي سفيان وبين الرسول صلى الله عليه وسلم فقد أورد بن حجر في ترجمة علقمة أن رسول الله أرسل عمرو بن أمية مع علقمة بن الفغواء في صرر مال أمره يعطيها لأبي سفيان يفرقها في فقراء قريش، وقال أبو سفيان يومها: «ما رأيت أبر من محمد نحاربه ونقاتله وهو يرسل لنا مالا نفرقه في ضعفائنا!!».

وهنــا يتأكد معنى ما أشرنا إليه من حكمة الرســول الكريم في اختيار عمرو بن أميــة الضمــري لهذه السفارة، ولا شــك أن هذا الدور العائلي مــن الزفاف والفرح والإكــرام لا يمكــن أن يرتبه دبلوماسي عادي، ولا بد أنه كــان ثمة علاقات من الود والصداقة في مضارب بني ضمرة توفر الجو لهذا الوداد.

إنها محض مطالعات في حكمة الرســول الأكرم صلى الله عليه وســلم في حسن تخير ســفرائه، ومراقبــة أدائهم، وهو رســول الكتاب والحكمة التــي هي فعل ما ينبغي في الوقت الذي ينبغي على الشكل الذي ينبغي.

ومــع أنه لا يمكن القــول بأن هذه السفــارات تكفي لضبــط الأداء الدبلوماسي الــذي يقوم عــلى تراكم من خبرات الأمم وتجاربها، ويتأســس عــلى منطق التبادل الدبلوماسي، وأصبحت له اليوم مؤســسات دولية تقوم بترشــيده وتنظيم علاقاته، ولكنهــا على كل حال توجيهات ملهِمة اقتبس منها فقهاء الإســلام كثيراً من أصول الوعي الدبلوماسي، وتوجيهه لخدمة الأمة، وبناء علاقات دولية رشيدة.

لقد كانت هذه القراءة جولة في ســفارات النبي صلى الله عليه وســلم في السلم، والآن لنقترب أكثر من تجربته الثانية ومتابعة سفاراته في الحرب.

٢- سفارة الحرب

دبلوماسية الرسول في حل النزاعات:

كما تجلت العبقرية النبوية في ســفراء السلم فقد تجلت أيضاً في سفراء الحرب، فقد قدم الإسلام فقهاً واقعياً للحياة، فلم يرسم الدنيا على أنها مزرعة خضراء تعم بالمباهج، وإنما قدمها على ما هي عليه في الواقع سراء وضراء، وعسر ويسر، وســلم وحــرب، ولأجل ذلك فقــد جاءت الشريعة طافحــة بأخبار السلــم وأخبار الحرب، وقوانــين السلم وقوانين الحرب، وخلال ذلك يمكننا أن نلتمس كثيراً من هديه صلى الله عليه وسلم في الجانب الدبلوماسي حال الحرب.

ولأن هـذه الدراسـة ليست مخصصـة لبحث الدبلوماسـية في السـيرة النبوية فسنكتفي هنا بإيراد مثال واحد لما أنجزه الرسـول الكريم في سفارات الحرب، من خلال استعراض غزوة الحديبية.[٢٢٨]

ومـن حسن حظ التاريـخ أن وقائع معاهدة الحديبية قـد دونت بتفصيل كبير وتناولها الشراح والكتاب والعارفون بتفاصيل واسعة، وهي ترسم ملامح العبقرية التفاوضية الدبلوماسية التي ظهرت في سلوك النبي الكريم خلال هذه المعاهدة.

كانت قريش قد حاربت الإسلام منذ فجر الرسالة، وحين هاجر الرسول صلى الله عليه وسـلم وصحبه الكرام لم تكف عن إرسـال الجيش تلـو الجيش لحربه وهو في المدينة، وخاضت معه ثلاثة أيام فاصلة بدر وأحد والخندق، وبعد الخندق أراد رسول الله أن تعلم قريش أن الرسالة ماضية ولن تتكسر أمام حملات العدوان المستمرة، فأمر أصحابه أن يتجهزوا ودعاهم للمشاركة في رحلة كريمة إلى العمرة النبوية المباركة.

لـدى أول تحرك لـه خارج المدينة تسامعـت قريش بأمر الخـروج وعلى الفور اسـتنفرت مجموعة من خيالتهم وفرسـانهم وخرجوا صوب المدينة وتعاهدوا فيما بينهـم أن يلقـوا محمداً ورجاله، وقد لبسـوا جلود النمور ومعهـم العوذ المطافيل يقسمون بالله لا يدخلها عليهم أبداً.

كانـت الظروف التـي وضعتها قريش كافية لتأجيج نـار حرب حقيقية، ولكن الرسول الكريم كان في مراده شيء آخر، لقد كان يتطلع بالفعل إلى إقامة حوار جدي وعلاقة ندية مع قريش، ولم يكن خروجه من مكة بهدف المواجهة الحربية، على أن قريشاً لم توفر سبباً لاندلاع الحرب بينها وبين النبي إلا وفعلته، فقد مارست ضده الحـرب النفسية والجسدية والتحالف مع أعدائه والاتصال بيهود المدينة وإغرائهم بنقض العهود مع الرسـول الكريم، ولكن رسـول الله ظل يبحث عن سبيل لحقن الدمـاء، وحين تسامع بخروجهم قال لمـن حوله من الصحابة: «والذي نفس محمد بيده لا تسألني قريش خطة رشد إلا أجبتهم إليها».

(٢٢٨) والمصـدر الـذي نعتمده فيما نرويه من السير هو سـيرة ابن هشـام، في فصل الحديبية، وكذلك السيرة النبوية لابن كثير.

كـان خـروج النبي الكريم يـوم الحديبية إعلانـاً لتغير جديد طـرأ على المشهد السيـاسي في جزيرة العرب فقد كانت الحال في السنـوات السابقة على الحديبية أن قريشاً هي التي تغزو المدينة وقد عانى المسلمون أشـد العناء من حرب قريش ضد النبـي الكريم، وقد هدد المشركون المدينـة ثلاث مرات في بدر وأحد والخندق، وبعد أن فشل حصارهم الأخير يوم الخندق نظر رسـول الله إلى الأفق البعيد وقال: «الآن نغزوهم ولا يغزوننا»، وكان لا بد من تغيير المعادلة التي فرضتها قريش طول هذه المدة.

لم يكن من الواضح أن هذا الخروج سـينجلي عن نصر عظيم، فقريش حشدت بالأمـس يوم الخندق عـشرة آلاف مقاتل على حـدود المدينة، وكان ذلك قبل سـنة واحـدة، وهي تقدر على حشد ضعف ذلك إذا كان الهدف هو الدفاع عن مكة، وهو مـا أدركه النبـي الكريم تماماً، ولذلـك فإن كل خطاه يـوم الحديبية كانت بهدف المكسـب الدبلوماسي وليس المغنم الحربي والعسكري،مع أن الصحابة كانوا في أتم الحماس لدخول مكة، وقد بايعوا تحت شـجرة الرضوان على الموت وكانوا يومذاك ألفاً وأربعمائة صحابي ولكن الرسـول الكريم لم يكـن راغباً بخوض حرب دامية غير محسوبة النتائج، بقدر ما كان حريصاً أن يحقق نصراً دبلوماسـياً هاماً وهذا ما عمل عليه وأنجزه خلال أيام الحديبية.

ومع أن هذه الدراسـة ليست دراسة في السيرة النبوية ولكن يمكننا أن ندنو من هذه الحقائق التي أكدها سـياق الأحداث خلال مفاوضات الحديبية، لنراقب كيف نجح النبي الكريم في تحويل موقف قريش من الرسالة، من موقف رافض للاعتراف بشرعيتها إلى الاعتراف بها كياناً سياسياً واجتماعياً جديداً في جزيرة العرب.

كان رسـول الله قد أعلن أنه مـاض لأداء العمرة وزيارة البيـت الحرام في مكة المكرمـة بعد أن صده كفار قريش نحـو عشرين عاماً من قبل، وهكذا بدأ خروجه، وصحبـه في خروجه هـذا ألف وأربعمائة صحابي كريم، كلهـم يرجو زيارة البيت الحرام وأداء العمرة الشريفة وصحبة رسول الله.

وصل رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الحديبية وهي على مسافة نحو عشرين

كيلومـترا من مكة، وبدأت طبول الحرب تقرع في مكة، وبدأ نداء الشهادة يتعالى في معسكر النبي الكريم، لاسيما بعد أن أصرت قريش على منع الصحابة من الدخول واحتجـزت السفـير المفاوض عثمان بن عفان رضي الله عنه، وشـاع بين الناس أن عثمان قد قتل.

أما رسول الله فقد كان ينظر في أفق آخر، وكان له مراد واحد من خروجه وهو إرغـام قريش على الجلوس إلى مائدة المفاوضات مـن أجل ترتيب المنطقة لمستقبل جديد.

لم يكن مشروعه القتال ولو أراد القتال لأعد له عدة، ولكنه كان في الواقع يتطلع إلى إنجاز دبلوماسي يتم من خلاله إعلان قيام الدولة المسلمة وتحقيق اعتراف أكبر قـوة في جزيرة العرب، وهي قوة قريش آنذاك، وكانت قريش واعية تماماً لما يريده النبـي الكريم، وعزمت أن لا تمنح الرسـول هذه الفرصـة، ولكنها في الوقت نفسه باتت مضطـرة للتعامل مع ألف وأربعمائة صحابي جاؤوا مع رسـول الله وكلهم يشتاق للشهادة في سبيل الله.

ونلاحظ أن قريشاً أرسلت للنبي الكريم عدداً من المفاوضين، وهم:

- بديل بن ورقاء الخزاعي
- مكرز بن حفص العامري
- عروة بن مسعود الثقفي
- الحليس بن علقمة سيد الأحابيش

وبتأمـل بسيـط ندرك أن الوفود التي أرسـلتها قريش ليـس فيها قرشي واحد، فبديـل من خزاعة وعروة من ثقيف بالطائف والحليس من الأحابيش، وهناك كلام عـن مكـرز بن حفص بن الأخيف الـذي كان عامرياً من قريـش ولكنه من فتاكها وصعاليكها، وسفارته لن تلزم قريشاً بشيء، وهذا بكل تأكيد موقف دبلوماسي مهم مـن قادة قريش الذين يدركون أن مجـرد التفاوض مع النبي الكريم يعني اعترافاً بالواقع السياسي الذي فرضته الرسـالة الناشئة في حين أن قريشاً كانت راغبة بأن

تستمر في موقفها في تجاهل وجود النبي وأصحابه بالكلية، والتأكيد على أنهم مجرد عصابة مارقون، ولكن أدركوا أيضاً حتمية التفاوض وضرورته، فالرسـول قد بلغ الحديبيـة وهو على مسافة عشرة أميال من مكة، وقد عبر أكثر من مئتين وخمسين ميلاً، ودخوله إلى الحرم أصبح شبه حتم، ولن تستطيع قريش دفعه إلا بحمام دم، ربما لن يكون مع ذلك في صالحها.

وبعد طـول تردد تنبهت قريش إلى فكرة المفاوض غير المباشر، وهكذا أرسـلت أولاً بديل بن ورقاء الخزاعي، وهو رجل من خزاعة، وقد التقاه النبي الكريم وتمكن مـن التأثير عليه تأثـيراً بالغاً، فقد كان بديل صاحب عقل ورأي، ولكنه لم يكن من قريـش وإنما من خزاعة، وخزاعة قبيلـة حليفة لقريش، وأغلب أهل السير يقولون إن بديـل بـن ورقاء دخل في الإسـلام بعد لقائـه النبي الكريم، ولكنـه أخفى ذلك، وهـذا مـا نرجحه، وقد كان له فيما بعـد موقفان بالغا الأهميـة في الأحداث، الأول: إقناعه لقبيلته خزاعة بالتحالف مع رسـول الله بدلاً من التحالف مع قريش عقب الحديبيـة، وكذلـك كان له موقف هـام جداً في :تسليم أبي سـفيان إلى خيمة النبي الكريم قبل الفتح الأعظم.

وعاد بديل إلى قريش ومعه رسـالة دبلوماسية واضحة مفادها أنه قد وصل إلى مكـة ولا شيء يثنيه عن دخول البيت ومعه ألـف وأربعمائة صحابي كلهم مستعد للموت في سـبيل دخول البيت الحرام، وأنه يتعين على قريش وجوب السماح لمحمد بدخول البيت تجنباً لمواجهة عسكرية لن تكون في صالحهم، ولكن قريشاً مضت في رفض الحوار إلى الغاية وأصرت على التعنت والعتو.

كررت قريش أسلوب المفاوض غير المباشر مرة أخرى وأرسلت عروة بن مسعود الثقفي وهو من زعماء الطائف من بني ثقيف، وقد قام رسـول الله صلى الله عليه وسلم بتوجيه سلسلة رسائل تفاوضية حكيمة لعروة بن مسعود كان لها أبلغ الأثر على تغيير موقفه في رفض دخول الرسول لمكة.

وبخلاف عادته صلى الله عليه وسـلم في التواضع والبساطة فقد نظم اسـتقبالاً مهيبـاً للرجل وأظهر الصحابة مشهداً من التعظيم للرسـول لم يكن مألوفاً، حتى

قــال عروة بعد ذلــك لقريش: «والله لقد زرت كسرى في ملكه وزرت قيصر في ملكه وما رأيت أحداً يعظم أحداً كحب أصحاب محمد لمحمد، والله ما إن توضأ وضوءاً إلا قام أصحابه يبتدرونه يلتمسون فيه البركة، وإني أرى أنه لا يرد هؤلاء عن مبتغاهم شيء».

واختــار النبــي الكريم في الوفد المفاوض عدداً من الرجــال الذين كان لهم تأثير مبــاشر على عــروة بن مسعود، فقد جــاء عروة متحمساً لمطلــب قريش وهو عودة رســول الله من حيث جــاء تجنباً للحرب، وكان يحمل الفكرة القرشــية نفسها أن هؤلاء عصابات إرهابية التحقوا بمتمرد مغامر، فقال له: «يا محمد أجمعت أو شاب الناس وجئت بهم إلى قومك تفض بيضتهم!! والله ما أرى من حولك إلا أوشــاباً لو قامت الحرب لتفرقوا عنك في كل وجه!!!!».

على الفور خاطبه أبو بكر الصديق بكلمة بالغة التأثير وقال له: «ويلك أنحن نفر عنه وندعه»، ثم قال له كلمة فاحشة بالغة يرد على دعواه!! كان ذلك أمراً صادماً في الدبلوماســية فالمفروض أن يحظى الرسول المفاوض باحترام في أداء مهمته، ولكن مع ذلك فإن عروة لم يستطع الرد وقال لولا يد كانت لك عندي لرددتها عليك.

وفي إشــارة ذات مغزى اختار النبي الكريــم أن يكون بين المفاوضين المغيرة بن شــعبة الثقفي، وهو فارس داهية فاتك من ثقيف، قــوم عروة، وكان يمثل طموح شــباب الطائف، وحين رآه عروة بدأ عروة بالإســاءة إلى النبــي الكريم ومد يده إلى لحيته كأنه يهون من شــأنه صرخ في وجهه المغيرة: « ويلك.. اسحب يدك قبل أن لا تعود إليك!!».

أدرك عــروة أن الفتــى الــذي يمثل مستقبل قومــه وأملهم قد أصبــح جندياً في قافلة الرسالة، وهكذا وجد عروة نفسه يسير عكس التاريخ، ونجحت الدبلوماسية النبويــة في فرض واقع جديد على عروة بــن مسعود، ويمكن القول إنه بدأ منذ تلك اللحظة في إعداد قومه ثقيف في الطائف للدخول في الإسلام.

وظلت قريش تصر على رفض التفاوض المباشر مع الرســول الكريم، ولكنها في

الوقت نفسه بدأت تدرك أنها بأسلوب التفاوض غير المباشر تمنح الرسول فرصاً حقيقية لكسب الأنصار من هذه القبائل العربية المؤثرة فبعد نجاح المفاوضات مع بديل بن ورقاء الخزاعي في كسب خزاعة ليصبحوا حلفاء للرسول، فقد حصل الشيء نفسه مع الوفد المفاوض الثاني عروة بن مسعود الثقفي، فقد عاد الرجل وهو مقتنع بأن أمر رسول الله ماض إلى نجاحات حقيقية وجديدة، وأن دخول ثقيف في الإسلام هو مسألة وقت ليس إلا.

ثم أرسلت قريش مكرز بن حفص بن الأخيف، وفي هذه المرة فإن الرسول الكريم اتخذ موقفاً تفاوضياً مختلفاً إذ رفض التفاوض مع الرجل وقال لأصحابه: «هذا رجل غادر، فاحذروه»، ولم يقبل اللقاء به، وكان امتناعه عن مفاوضته رسالة واضحة أنه قد أصبح في موقف من يملي شروطه وأن أحداً لا يستطيع أن يقوده إلى تفاوض عبثي لا معنى له.

وكذلك فإن التفاوض الدبلوماسي يتطلب مساواة في الرتبة أو في الصلاحية بين المتفاوضين، ولم يكن لمكرز شيء من هذا، فقد كان عروة زعيماً في ثقيف وبديل زعيماً في خزاعة، أما مكرز فلم يكن له شيء وهو أشبه بمخبر منه بمفاوض.

وكان من الواضح أن قريشاً لن تعترف بنتائج سفارة مكرز لأنه كان من الفتاك، أي الصعاليك الذين تنبذهم القبائل لسوء سلوكهم واعتدائهم على أهلهم، وكلمة الفتاك، جمع تكسير للفاتك وهو الملطخ بدماء قومه، وهو تعبير كانت العرب تقصد به ما نعبر عنه اليوم بأنه مطعون السجل المدني، وينظر إليه على أنه صعلوك مارق، ولن تلزم سفارته قريشاً في شيء.

ولكن عبقرية الرسول الكريم ظهرت مع المفاوض الأخير وهو الحليس بن علقمة، فقد كان الحليس سيد الأحابيش وهؤلاء كانوا قوماً من الحبشة يأتون لمجاورة البيت الحرام ويعظمونه ويقدسونه، وفاء لإبراهيم عليه السلام، وكانوا قد أبلوا بلاء شديداً في أحد إلى جانب قريش في حربها ضد الإسلام، وكان عددهم يقدر في مكة بثلاثة آلاف معظمهم من الشباب المحارب، وكلهم يحملون مشاعر التعظيم للبيت الحرام، وكانت قريش قد نفثت في روعهم أن محمداً قادم ليهدم الأصنام والكعبة،

وأنــه لا يعــرف حرمة للشهر الحرام ولا للبلد الحــرام، وبالفعل فقد ذهب الحليس غاضباً في رجال من أصحابه ليبلغوا الرسول الكريم قرار قريش برفض دخوله.

حين رآه رسول الله من بعيد قال لأصحابه: «هذا الحليس بن علقمة، هذا من قوم يتألهون، فأظهروا التلبية والتكبير وابعثوا في وجهه الهدي من الغنم والإبل.....».

وخلال ساعة امتلأ الوادي بالتكبير والتهليل والصحابة في ثياب الإحرام، وسال الوادي بالأغنام والإبل التي أحضرها الصحابة لتكون هدياً كريماً للبيت الحرام..

كانت الرســالة التفاوضية واضحة تماماً ولم يحتج الحليس لأكثر من هذا فقد أدرك أن القوم جاؤوا معظمين للبيت الحرام، وأنهم يهللون ويكبرون، وقد ســاقوا معهــم الهدي الكثير، ومحله أن ينحــر في مكة ويأكل منه الفقــراء، تعظيماً للبيت الحرام.

أدرك الحليــس وصحبه أن من يسوق معه الغنم والبعير ليس محارباً ولا راغباً في الحرب، وليس الغنم أداة الحرب بل الخيل، وثياب الحرب لا يمكن أن تكون تلك المناشف البيضاء التي يرتديها الصحابة ويهللون بها ويكبرون!!.

لــم يكمل الحليس مشواره إلى الرســول الكريم بل قفل عائــداً إلى قريش يملؤه الغضــب!! لقــد تمكنت قريش من خداعه يــوم أحد فحارب إلى جانبهــا دفاعاً عن البيــت الحرام، ولكن آن له الآن أن يدرك الحقيقة، لماذا يراد منه أن يمنع هؤلاء عن زيارة البيت الحرام، لقد ترك وقومه الدنيا كلها من أجل خدمة الحجاج والمعتمرين، فلمــاذا يطيع قريشاً في حقدهــا وجنونها، ويخالف مبادئه التي كرس لها حياته في الدفــاع عن البيت الحــرام؟ وعلى الفور عاد إلى قريش وقــال غاضباً: «والله ما على هذا عاهدناكم يا معشر قريش!!! أيصد عن البيت الحرام من جاء معظماً له، عارفاً لمكانتــه وفضله، وقد ســاق الهدي للحــرم الشريف، وقد أحــرم وأصحابه تعظيماً للبيت الحرام وإجلالاً؟؟ والله لتأذنن لمحمد أو لأنفرن بالأحابيش نفرة رجل واحد حتى لا يصد عن البيت الحرام حاج ولا معتمر!!».

لقد اتبع النبي الكريم أســلوب التفاوضية الصامتة، واســتخدم وســائل تعبير

أشــد بلاغة وأثراً، وأمكنه أن يقدم أدلته بكامل الإقناع والتأثير عبر ماكينة إعلامية وتأثيرية.

وعقب هذه الرســائل المتتالية رأى النبي الكريم أن يرسل مفاوضاً من أصحابه إلى مكة، ودعا عمر بن الخطاب ليقوم بهذه المهمة ولكن عمر قال: «يا رسول الله... لقد علمت قريش أنه ما أحد أشد مني على كفرها وعنادها وآلهتها... فإن كنت تريد حرباً فأرســلني يا رســول الله، وإن كنت تريد سلماً فارسل عثمان بن عفان، فإنه من بني أمية وله في القوم منعة ومكانة».

وبالفعل كان رأي عمر حكيماً، وقد قبله النبي الكريم وارســل على الفور عثمان بن عفان، وبالفعل فقد اســتقبل عثمان من بني عمه بني أمية، ولم يتعرض لأذى، وأبلغ قريشاً رسالة النبي الكريم، وأدركت قريش أنها لن تستطيع المضي في عنادها إلى النهاية.

ومــرت ثلاثة أيام وقريش تؤجل ردها على رســالة عثمان، وشــاع في الناس أن عثمــان قد قتل، ودعا النبي الكريم أصحابه عــلى الفور لبيعة الرضوان التي كانت بيعة على الموت، وكانت هذه البيعة رســالة ضرورية للضغط على قريش لتقر مبدأ التفاوض والحل السلمي للصراع.

فشلــت كل محــاولات قريش لتجنب التفاوض مع الرســول الكريــم وأيقنت في النهايــة أنه لا بد مــن التفاوض، واختارت لأجل ذلك ســهيل بن عمــرو، وهو أحد زعماء قريش من رجال الفصاحة والبلاغة، وكان موتوراً من الرســول والرســالة، فقد التحق بالإسلام ابنه أبو جندل، وقد واجهه بشراسة حتى حبسه في الدار موثقاً بالحديد لئلا يهاجر إلى المدينة.

حين رأى رســول الله ســهيل بن عمرو قال لأصحابه: «لقد ســهل أمركم»، ولم يكن ذلك اشتقاقاً لفظياً كما يتبادر إلى الذهن، بل كان في الحقيقة فهماً دبلوماسياً عميقاً وهو أن جلوس قريش للمفاوضات المباشرة يعني الاعتراف الدبلوماسي الذي كان رسول الله يتطلع إليه.

وعـبر جولات متتاليـة من التفاوض مارس فيها سـهيل اسـتفزازاً كبيراً، ضد الرسـول والرسـالة، اتبع رسـول الله أسـلوب التفاوض الهادئ، وتـرك الرد على اسـتفزازات سـهيل لمن شـاء من الصحابة ولكن ظل يتبع سياسة النفس الطويل حتى وقع مع قريش صلح الحديبية.

كـان الصلـح في ظاهره ينطوي على مخاطر كبيرة واجهت اعتراضاً شـديداً من الصحابـة حيث نص على العودة إلى المدينة دون حج، ونص على أن من هاجر دون إذن والديـه فالنبي مأمور أن يسلمه إليهـم وأما من ارتد من المسلمين فليس للنبي أن يمنعه، في سـبعة شروط كانت تمثل اسـتعلاء قريش واسـتكبارها على الرسول وأصحابه.

ولكـن الهدف التفـاوضي الأكبر الذي كان رسـول الله يسعى إليـه هو اعتراف قريـش بالدولـة الإسـلامية الوليدة، وهو مكسب سـياسي كبير لم يـدرك كثير من الصحابة أهميته ولا تأثيره، ولكن رسول الله أصر على ذلك وبالفعل تحقق له ذلك، وعاد إلى المدينة مغتبطاً بالنصر الدبلوماسي الكبير الذي أنجزه على صعيد الاعتراف بدولته الناشئة من القوة العربية الرئيسية آنذاك في جزيرة العرب.

لم يكن اعتراف قريش بالدولة الجديدة إيماناً، ولا تصديقاً بالرسـول والرسالة، ولكنه كان تتويجاً لدبلوماسية ناجحة خاضها رسول الله بكل أدوات الدبلوماسية الواعيـة مـن الضغط والتأثـير والرغب والرهـب وإدراك مكامـن التأثير في نفوس الناس.

ويمكن رصد عدد من النجاحات الدبلوماسـية التي حققها الرسـول الكريم في مفاوضات الحديبية على الشكل التالي:

- فرض الاعتراف الدبلوماسي بالطرق السياسية السلمية.
- تحقيـق مكاسـب هامة عبر التفـاوض الجانبي غير المقصـود: في خزاعة وثقيف والأحابيش.
- اختيار الفريق المفاوض بما يحقق أهداف الرسالة ومصلحة الأمة.

- سياسة التفاوض الصامت الموجه.
- أثر النشاط الإعلاني والدعائي في العملية التفاوضية.
- حق رفض التفاوض عند اختلال الرتبة أو الممارسات الاستفزازية للفريق المفاوض.
- ضرورة تقديم تنازلات سياسية في سبيل الحصول على اعتراف دبلوماسي صحيح.

كانت هذه نجاحات كبـيرة تحققت خلال صلح الحديبية، وعقب إنجاز الصلح نزل قول الله تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾.

قال عبد الله بن مسعود: «ما كان في الإسـلام فتح أعظم من يوم الحديبية، لقد دخل في الإسلام عامذاك مثل من دخل في الإسلام من بداية الدعوة إلى الحديبية».[٢٢٩]

(٢٢٩) تفسير المراغي، ج ٩، سورة الفتح، الآية ١

الفصل الرابع

المشترك بين الإسلام والدبلوماسية الحديثة

دأب كثير من الكاتبين على إظهار عظمة الإسـلام وفرادته من خلال التأكيد على اختلافـه في المبـادئ والقيم عن الكفاح العالمي وعدم الاعـتراف بالمشترك الإنساني، وخـلال ذلك يتم تبخيس المنجزات التي حققها الإنسـان خلال تاريخه الطويل أو التعامل معها على أساس أنها كانت نضالاً ضد الدين الحق، ونفوراً منه.

وفي هـذا السبيل يتم تصويـر العالم على أنه يعيش جاهلية منكوسـة وظلمات مطموسـة، وأن لا سـبيل لخلاص هذا العالم إلا أن يتبرأ مـن كل ما هو فيه ويتبع الرسالة الخاتمة.

ويمكن قراءة مثال واضح لهذا التفكير عبر كتاب جاهلية القرن العشرين لمحمد قطب، وما سـاد في الخمسينات من القرن الماضي من أفكار متطرفة عنيفة، كرست تقسيـم العالم إلى ثنائيـة الفسطاطين، وفرضت على المسلـم الكفاح من أجل هدم المنجز الحضاري الإنساني على أسـاس أنه منجز كافـر لا بد من هدمه حتى يقوم الإسلام على أنقاضه.

وحتـى لا نذهب بعيداً في التحليل بمـا يخرج الكتاب عن هدفه وخصائصه فإن علينـا أن نقول إن نصوص الإسـلام الظاهرة لا توافق على هـذه النظرة الازدرائية للمنجز الحضاري العالمـي، وإن الهدي القرآني يتعامل بإيجابية مع كل ما أنجزه الإنسان خلال تاريخه الطويل من كفاح لبناء العدالة والمساواة والحريات في الأرض.

وحتـى نكون دقيقـين فإن هذا المفهوم من وجوب الصـدام بين الحضارات هو تيار في التفكير موجود في الشرق وموجود في الغرب، وقد اشتهر المصطلح في العقد

المـاضي عندما عمـد الكاتب الأمريكي صمويل هنتنغتـون إلى إصدار كتابه: صدام الحضـارات الذي صـار عنواناً على اتجاه في التفكير يفـترض التناقض المطلق بين سـعي الإنسان الحضـاري وبين القيم الدينيـة التي بشر بها الأنبيـاء، وهكذا فإن مصطلح صدام الحضارات CLASH OF CIVILIZATIONS ليس مصطلحاً إسلامياً بالمرة بل هو مصطلح أمريكي بامتياز، ويجب القول إن الدبلوماسية الإسلامية قد قامت بدور بالغ الأهمية في الإطار الثقافي حين اعتمدت القمة الإسلامية عنوان حوار الحضـارات، واقترحته على الأمم المتحدة التي أقرت تسمية عام ٢٠٠١ على أنه عام حوار الحضارات، ومن ثم فقد انطلق برنامج تحالف الحضارات الذي صار الشكل الحضاري الأمثل للتعامل مع الاختلاف في القيم الحضارية بين الشرق والغرب.

وهنا نذكر بما قلناه في مطلع هذه الدراسة أن مصطلح حوار الحضارات نفسه ليـس كافيـاً للتعبير عن روح الإسـلام في التلاقي مع الآخر، بـل يجب الحديث عن وحـدة الحضـارة الإنسانية؛ لا توجد حضارة تبدأ من الصفر كل حضارة تؤسـس عـلى من سـبقها، وبدورنا عندما كنا نقـوم بريادة الحضارة كنا نؤسـس على من سـبقنا من رواد الحضارات السابقة، وهذه هي حركة الحياة الدائبة التي يؤسـس بعضها على بعض ويرتشف بعضها من معين بعض.

والأمـر نفسـه في إطار السنـن الاجتماعية، فما تحقق للبشريـة في إطار العدالة والديمقراطيـة والحريـة وحقـوق الإنسان ليس منجـزاً أمريكياً يجـب أن نطالب بالكفـر به والتنصل منه، وإنما هو نضال إنسانـي عظيم يشترك فيه كل بني آدم بالكفاح والعناء والعطاء.

ربما كان من أوضح الأمثلة على ذلك أن القرآن الكريم تحدث عن رسـالة النبي الكريـم في أربعة عـشر موضعاً بصيغة مصدقاً لما بين يديه، ولم يقل أبداً مبطلاً أو ملغيـاً لما بين يديه أو ناسـفاً لما بين يديه، بل إنه عبر بأوضـح عبارة بقوله: «مثلي ومثـل النبيين من قبلي كمثل رجل بنى داراً فأحسنهـا وأكملها وأجملها إلا موضع لبنـة فكان الناس إذا مروا بتلك اللبنة يقولون ما أجمل هذه الدار لولا موضع للبنة

فكنــت أنــا تلك اللبنة وأنا خاتم النبيين»[٢٣٠]، إنه لم يقل أنا البناء كله وإنما قال أنا لبنة في البناء الكبير.

إن احــترام إنجــاز الآخرين والبناء عليه هو هدي الأنبيــاء وهو في الواقع مرتكز الموقف الإسلامي في حواره مع أهل الكتاب، أصحاب الحضارة الدينية السابقة على الإســلام، وهو موقف احترام كان من أقرب مظاهره أن المسلمين ظلوا يصلون نحو نصف عمر الرسالة صوب بيت المقدس قبلة أهل الكتاب في إشارة واضحة للتكامل بين رسالات الأنبياء وإخائهم.

إن الغــرب أصبح مع التطــور الحضاري أكثر وعياً باســتحقاق السلام الدولي، وهــو يوظف هــذه العلاقة بكفــاءة في علاقاته مــع الآخرين، لقد تعلــم الغرب من قانــون الحضــارة؛ في الماضي عندما قال هتلــر: (ألمانيا فوق الجميع) أشــعل حرباً عالميــة ولكن عندمــا غيرت ألمانيا منطقها هذا، وأعلنــت (ألمانيا مثل الجميع) قامت الوحــدة الأوروبية، وتحقق أعظم إنجاز وحــدوي في العالم في مطلع القرن الحادي والعشرين.

ومــع أن هــذه الحقيقة واضحــة في كتاب الله وهــدي الأنبيــاء، ولكنها لم تكن واضحة للعيان في أي مرحلة من مراحل التاريخ كما هي اليوم، بعد ثورة المعلومات والاتصــالات التي عــززت فكرة القرية الكونية، وأكدت إخــاء الإنسان للإنسان على الرغم من إرادة الحرب الباطشة التي تتناوب على إشــعالها في الأرض قوى متقابلة في الــشر من الشرق والغرب والشمال والجنوب، ولكــن أدنى قدر من الثقافة صار يدعــو الإنســان إلى معرفة أخيــه الإنسان شريكــاً لا بد منه لبنــاء الأرض وتسخير خيراتها في منافع العباد والبلاد.

إننا جيران على كوكب واحد، وهذه حقيقة أكدها القرآن الكريم: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُــعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُــمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾، وشرحها السيد المسيح بقوله: ﴿الإنسان أخو الإنسان أحب أم كره﴾، ودلت لها حقائق العلم الحديث التي درست طبائع الإنسان وحاجاته

(٢٣٠) صحيح مسلم، ج ٧، ص ٦٤

ومقاصده وأكدت الأصـل القرآني الكبير الذي دلت له عشرات الآيات: ﴿فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ﴾، و«كل مولود يولد على الفطرة».

الناس وفاقيون وفروقيـون، منهم من يبحث عن المشترك ومنهم من يبحث عن المختلـف، ومن عجائـب القدر أن كلاً من الفريقين يجد بغيته وشـواهده في العقل والنقـل، ولا يخفي كاتب هـذه السطور انحيازه إلى تيـار الوفاقيين الذين يؤمنون بالإخاء الإنساني في الأرض، ويؤمنون بأن الله خلق العالم من أجل نهاية سـعيدة، ويؤمنون بكلمة إقبال:

لم ألـق في هـذا الوجـود سـعادة كمحبـــة الإنسـان للإنسـان

لما سـكرت بخمـرها القـدسي لـم أحـتج إلى تلك التي في الحـــان

إن فكـرة الجوار الإنسانـي على الكوكب ليسـت فكرة بلهاء تعفينـا من التزام الحقوق، وتحولنا إلى مجرد دراويش على طرف الكوكب، بل هو تشارك ومسؤولية، وكفـاح وجراح، ودمعـة وابتسامة، وحين نتخلى عن مسؤوليتنـا في القرية الكونية فنحـن إذن من يخرق وثيقة الجوار، وربما كان أوضـح شرح لمسؤولية الجوار ما عبر عنه الرسول الكريم: «مثل القائم في حدود الله والراتع فيها كمثل قوم استهموا على سـفينة فأصاب بعضهم أعلاها وبعضهم أسـفلها فكان الذين في أسـفلها إذا اسـتقوا الماء مروا على من فوقهم، فقالوا لو أننا خرقنا في نصيبنا خرقاً فلم نؤذ من فوقنـا، فـإن تركوهم وما أرادوا هلكوا وهلكوا جميعـاً وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعاً».

وهكـذا فإن المنجـز الإنساني الـذي تحقق في المجـال الدبلوماسي عـاد بأعظم الفوائد على العلاقات الدولية، وأسـهم في جعل العالم أكثر تقارباً وتفاهماً وتعارفاً وهذه كلها قيم إسـلامية أصيلة، ينبغي استثمارها في خير الأمة وبالتالي الإسهام في تطويرها وتفاعلها المستمر.

وإن القاعدة الإسـلامية التـي تحكم هذا اللون من التعـاون والتكامل هي قول

الرسول الكريم: «الخلق كلهم عيال الله وأحب الخلق إلى الله أنفعهم لعياله».[٢٣١]

وهكذا فإن اعتماد نص الاتفاقية الدولية للعلاقات الدبلوماسية التي تم توقيعها في فيينا يوم ١٨/٤/١٩٦١، هو من حيث المبدأ أمر مشروع ومطلوب فقهاً ودينا، لأنه من باب توافق الأمة مع جيرانها على أمر مباح، وثانياً لأنه وفاء بالعقود التي أمر الله أن نوفي بها، وثالثاً لأنه مصلحة حقيقية للأمة، تعود بالخير على سائر الناس.

وتتألف الاتفاقية من (٥٢) مادة، تتناول بمجموعها طبيعة العلاقات الدبلوماسية والأصول المتفق عليها في إطار تبادل السفراء والمبعوثين الدبلوماسيين، ولا يوجد سبب لتكريس أي موقف سلبي ضد هذه المواد الإجرائية، وغاية الأمر أن مسؤولية الدولة الإسلامية في تنفيذ مضمون هذه الاتفاقيات تتأكد من اللحظة التي يتم توقيعها بوجه صحيح لأنها التزام بالعهد وقد قال الله تعالى: ﴿وَأَوْفُواْ بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْؤُولاً﴾[٢٣٢].

ومع ذلك فإن من المفيد هنا أن نذكر ديباجة الاتفاقية، ونقارب بينها وبين المقاصد الإسلامية الكبرى في الوفاق والتعاون الإنساني.

الدول الأطراف في هذه الاتفاقية:

إذ تذكر أنه منذ زمن بعيد وشعوب كل البلدان تعترف بنظام الممثلين الدبلوماسيين وتعرف أهداف ومبادئ ميثاق هيئة الأمم لمتحدة الخاصة بالمساواة في حق سيادة كل الدول – وفي المحافظة على السلام والأمن الدوليين، وفي تنمية علاقات الصداقة بين الأمم.

وهي مقتنعة بأن اتفاقية دولية عن العلاقات والامتيازات والحصانات الدبلوماسية ستساعد على تحسين علاقات الصداقة بين البلدان مهما تباينت نظمها الدستورية والاجتماعية .

---

(٢٣١) رواه الطبراني عن أنس وأبي هريرة ، وأورده الألباني في السلسلة الضعيفة ٤/٣٧٢ رقم ١٩٠٠

(٢٣٢) سورة الإسراء، الآية ٣٤

وهــي على يقين بأن الغرض مــن هذه المزايا والحصانات, ليس هو تمييز أفراد, بل هو تأمين أداء البعثات الدبلوماسية لأعمالها على أفضل وجه كممثلة لدولها.

وتؤكــد أنه يجب أن يستمــر تطبيق قواعد القانون الــدولي التقليدي في المسائل التي لم تفصل فيها نصوص هذه الاتفاقية صراحة .

ويمكن القول إن ديباجة هــذه الاتفاقية التي تحدد أهدافها منسجمة تماماً مع القيم الإسلامية في بناء عالم السلم والتعاون الدولي، وفق ما دلت له الآيات الكريمة:

- قوله تعالى:﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾[٢٣٣].
- وقوله: ﴿وَإِذَا حُيِّيْتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّواْ بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا﴾[٢٣٤].
- وقوله: ﴿وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا﴾.[٢٣٥]
- وقوله: ﴿فمَا اسْتَقَامُواْ لَكُمْ فَاسْتَقِيمُواْ لَهُمْ إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾.[٢٣٦]
- وقوله: ﴿فَإِن اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا﴾.[٢٣٧]
- وقولــه: ﴿يَا أَيُّهَــا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُــوا فِي السِّلْمِ كَافَّــةً وَلاَ تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾.[٢٣٨]

والآيــات بهــذا المعنى كثيرة، وكذلك مــا ورد في السنة النبويــة الكريمة من قيم التعاون الدولي والإخاء والتسامح، وكلها تحمل النتيجة إياها من وجوب الدخول في السلم والتعاون الإنساني، ووجوب تنفيذ العقود والعهود على وجه يستقيم أخلاقياً وحقوقياً.

---

(٢٣٣) سورة الأنفال، الآية ٦١
(٢٣٤) سورة النساء، الآية ٨٦
(٢٣٥) سورة الحجرات، الآية ١٣
(٢٣٦) سورة التوبة، الآية ٧
(٢٣٧) سورة النساء، الآية ٩٠
(٢٣٨) سورة البقرة، الآية ٢٠٨

وهكذا فإن المشترك بين الإسلام والقيم الدبلوماسية كثير، وقيام التعاون الدولي على أساس من السلم والمصالح المتبادلة هو مقصد إسلامي حقيقي، وتوافق إنساني وعالمي ناجح.

وفي نهاية هذه الدراسة يمكن القول إن تطوير المعارف الدبلوماسية وبناء مزيد من ظروف السلم لتأمين علاقات دولية ناجحة هو مقصد إسلامي نبيل أكدته نصوص الكتاب والسنة، وهو مصلحة حقيقية للأمة، وحيثما كانت المصلحة العامة فثم شرع الله.

﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾، ﴿ وَتَعَاوَنُواْ عَلَى الْبرِّ وَالتَّقْوَى وَلاَ تَعَاوَنُواْ عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾.

الملاحق

- نموذج من التعامل الدبلوماسي لرسول اللّه
- نموذج من الخطاب الدبلوماسي لرسول اللّه

نموذج من التعامل الدبلوماسي لرسول الله

نجـران إقليم كبير بين اليمن والحجـاز، دخلت إليه النصرانية منذ القرن الرابع للميـلاد وكان يعتبر أهم كرسي للأرثوذكسية الشرقية في جزيرة العرب، ثم تعرض أهـل نجران لغزو ذو نواس اليهـودي الذي أحرق المؤمنين مـن المسيحيين بالنار، وفيهم نزلت سـورة البروج وفيهـا قصة أصحاب الأخدود، وقد بلـغ عدد الشهداء منهم نحو أحد عشر ألفاً، وكان ذلك عام ٥٢٤م أي قبل ولادة الرسول الكريم بنحو نصف قرن.

وقـد أولى النبي الكريم اهتمامـاً بالغاً لأهل نجران، وقد اسـتقبل النبي الكريم في السنـة السابعـة وفد نصارى نجران وكانوا نحو خمسين شـخصاً على رأسـهم السيـد العاقب، وأقـام الوفد في مسجد النبي الكريم خمسة عـشر يوماً يأكلون من ثمارها ويشربون من مائها وينتجعون أرضها، ومع أن القوم لم يدخلوا في الإسلام ولم يقروا بنبوة رسـول اللـه، ولكن النبي الكريم أكرمهم واسـتمع إليهم وأبلغهم رسـالته، ثم كتب لهم كتاباً بالغ الأهمية صار فيما بعد أحد أهم الوثائق التاريخية في الحريات الدينية وتعزيز المشترك وحسن الجوار.

وفي نهايـة مقامهم بالمدينة طلبوا من النبي أن يرسـل فيهم رجـلاً أميناً، فقال لأرسـلن معكم رجلاً أميناً حق أمين، فاسـتشرف لها الناس واختار رسـول الله أبا عبيدة بن الجراح سفيراً مقيماً فيهم، وقال هذا أمين هذه الأمة.

ومـن طريف ما روي في أمر وفد نصارى نجران، ما أورده ابن كثير في تفسيره: «ما رأينا بعدهم وفداً مثلهم، وقد حانت صلاتهم، فقاموا في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسـلم يصلّون، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: دعوهم، فصلّوا إلى المشرق»[٢٣٩].

فكانت صلاتهم في مسجد رسول الله إشارة بالغة الأهمية للحريات الدينية التي منحها الإسـلام للناس، ويمكن القول إنه تأسـيس لمبدأ تمكـين السفراء من إقامة شعائر دينهم على ما اعتادوه، وحين هم بعض الصحابة بمنعهم، رفض رسول الله صلى الله عليه وسـلم ذلك وأرشـد القوم إلى الشرق حيث يؤدي النصارى عبادتهم ومناسكهم.

وهـذا ما نطالعه في نص العهد الذي كتبه لهم رسـول اللـه كما أورده البيهقي بنصه في دلائل النبوة:

«بسم الله الرحمن الرحيم ....

هذا ما كتب محمد النبي رسول الله.. لنجران وحاشيتها، ولأهل ملتها، جوار الله وذمة محمد النبى رسـول الله، على أموالهم وأنفسهم وملتهم وغائبهم وشـاهدهم، وعشيرتهم، وبِيَعهم، وكل ما تحت أيديهم من قليل أو كثير.

لا يُغَيَّر أسـقف من أسقفيته، ولا راهب من رهبانيته، وأن أحرس دينهم وملتهم أين كانوا.. بما أحفظ به نفسى وخاصتى وأهل الإسـلام من ملتـي، ولا يُحمَّلون من النكاح شـططا لا يريدونه، ولا يُكرَه أهل البنـت على تزويج المسلمين، ولا يُضارّ فى ذلـك إن منعوا خاطبًا وأَبَوْا تزويجًا؛ لأن ذلك لا يكون إلا بطيبة قلوبهم، ومسامحة أهوائهم، إن أحبوه ورضوا به.

ولهـم إن احتاجوا فى مرمَّة بِيَعهم وصوامعهـم أو أى شىء من مصالح أمورهم

(٢٣٩) تفسـير القـرآن العظيم، لابن كثير، تفسير سـورة آل عمـران، آية المباهلـة ٦١، ودلائل النبوة، للبيهقي، ج ٥، ص ٤٨٢

ودينهم إلى رِفْد من المسلمين وتقوية لهم على مرمَّتها، أن يُرْفدوا على ذلك ويُعاوَنوا، ولا يكـون ذلك دَينًا عليهم، بل تقوية لهم على مصلحة دينهم، ووفاءً بعهد رسـول الله، وموهبة لهم، ومنَّة لله ورسوله عليهم.

وإضافة إلى جانب السماحة والمرحمة التي ظهرت في الكتاب فإن في العهد أيضاً واجبـات دبلوماسـية متبادلة بين الرسـول وأهل نجران، وتضمن كتاب الرسـول الكريم فصلاً متقدماً من التبادل الدبلوماسي، حيث نص على وجوب وفادة المبعوثين من قبل رسـول الله، وتم تحديد هذه الوفادة بعشرين ليلة، كما اشتمل الكتاب على إلزامهـم بعدد من الواجبات تجاه ظروف الطوارئ التي قد يتعرض لها المبعوثون في مناطق نجران، وتم تحديد مسؤولية نجران بالتفصيل:

«وعلى نجران مؤنة رسلي ومتعتهم ما بين عشرين يوما فدونه، ولا تحبس رسلي فوق شهر».

ويعتبر ذلك بمثابة اتفاق ملحقية عسكرية بين البلدين، تلتزم بموجبه كل دولة بحماية الطرف الآخر على أراضيها، وينص الاتفاق أيضا على أن هذه المعونة تعتبر بمثابة الدين الملزم، وهي ذمة مضمونة لدى الدولة المسلمة.

ونصت الاتفاقية أن....

«عليهـم عاريـة ثلاثين درعاً وثلاثين فرسـاً وثلاثين بعيراً إذا كـان كيد ومعرة، وما هلك مما أعاروا رسـلي من دروع أو خيل أو ركاب فهو ضمان على رسـلي حتى يؤدوه إليهم».

ومع إقرار هذه الاتفاقية الدبلوماسـية واعتراف الدولتين بحقوق كل منهما فإن النبـي الكريم نص بوضـوح على احترام الاختيار الديني لنصـارى نجران، وكذلك التراتبية الدينية والترقيات الكنسية التي اعتادوها، وكان البيان النبوي حريصاً على اسـتخدام مصطلح أهل نجران في التسميات الكهنوتية، عـلى الرغم من غربته عن اللسان القرشي وتناقضه التام مع القيم الإسلامية:

«ولنجران وحاشيتها جوار الله وذمة محمد النبي على أنفسهم وملتهم وأراضيهم

وأموالهم وغائبهم وشاهدهم وعشيرتهم وبيعهم وأن لا يغيروا مما كانوا عليه ولا يغيروا حقًا من حقوقهم ولا ملتهم، ولا يغيروا أسقفًا عن أسقفيته ولا راهبًا من رهبانيته، ولا واقها من وقيهاه، وكل ما تحت أيديهم من قليل أو كثير».

«وليس عليهم دنية ولا دم جاهلية ولا يحشرون ولا يعشرون ولا يطأ أرضهم جيش، ومن سأل فيهم حقًا فبينهم النصف غير ظالمين ولا مظلومين».(٢٤٠)

وبتأمل دقيق ندرك أن النبي الكريم نجح في تحقيق مكاسب دبلوماسية بالغة الأهمية، من خلال هذا الاتفاق نعد منها:

- اتفاقية اعتراف دبلوماسي متبادل مع دولة عريقة لديها كرسي كنسي عريق.
- اتفاقية عدم اعتداء بين الدولتين.
- إقرار بالحقوق الدينية الكاملة لكل من الجانبين.
- منح الحصانة الشخصية والمالية للمبعوثين المتبادلين (لا يحشرون ولا يعشرون).
- تعاون لوجستي لتأمين السفراء والمندوبين من الطرفين غير المقيمين.
- إعلان ما يمكن تسميته أول ملحقية عسكرية دبلوماسية في أرض العرب.
- تعيين سفير مقيم وهو أبو عبيدة بن الجراح.

لقد كانت هذه انجازات بالغة الأهمية في إطار تأمين الحدود الجنوبية للدولة الإسلامية، وبناء علاقات حسن جوار، مع أن الحوار في العقيدة لم يفض إلى نتيجة مرضية، حيث تمسك وفد نجران بموقفهم الاعتقادي، ورفضوا الدخول في الإسلام.

كما ترسم الاتفاقية ملامح الحريات الدينية التي أعطاها الإسلام للناس، والتأكيد على المشترك الإنساني على الرغم من الاختلاف الفكري، كما تعكس اهتماماً خاصاً برعاية أهل الكتاب الذين خصتهم الشريعة بأحكام خاصة قائمة على الاعتراف المتبادل والاحترام.

---

(٢٤٠) دلائل النبوة، للبيهقي، ج ٥، ص ٤٨٥

نموذج من الخطاب الدبلوماسي لرسول الله

المناذرة عـرب من قحطان غادروا اليمن عقب انهيار حضارة مأرب بعد انهيار السـد بالسيل العـرم، نحو ألف عام قبل الميلاد، واشـتهرت هجرتهم بهجرة تنوخ أو لخـم وقد نزلوا بأرض العراق، وأسـسوا أكبر تجمـع عربي حتى تاريخه، كانت عاصمتهم الحيرة وأطلقـوا على أنفسهم لقب ملوك العرب، وكانت مدنهم تمتد من الأنبار إلى البحرين إلى عمان، ويمكن القول إنهم كانوا يسيطرون على جانب كبير من العراق سـاحل الخليج الممتد إلى حضرموت، وقد كانوا يشكلون قلقاً للإمبراطورية الفارسـية وفي عام ٦٠٩م استدرج ملك الفرس خسرو الثاني ملك المناذرة النعمان بـن المنذر وقتله تحت أقدام الفيلـة، وقد ثار لذلك العرب واندلعت بينهم حرب ذي قار، وأظهروا فيها بسالة فريدة، وفيها قال رسـول الله صلى الله عليه وسلم: «هذا يـوم انتصف فيـه العرب من العجم»، وبعد سـلسلة مواجهـات تمكنوا من فرض شروط معقولـة في علاقاتهـم مع فارس، يضمنـون فيها لأنفسهم قـدراً كبيراً من الحكم الذاتي ولكنهم لا يخرجون عن سلطان الإمبراطورية.

أمـا عقائدهم فكانت على ملة إبراهيم وقد أصابهـا ما أصاب قريشاً من الشرك والوثنية، كما انتشرت في بلادهم كنيسة المشرق، وكانوا يأتون في الموسـم إلى الحرم الشريف، وكان رسـول الله يرجو أن يجد لديهم وعياً لرسالته وأن يقوموا بحمايته ونصرته من قريش.

وفي السنة العاشرة للمبعث وهي السنة التي تم فيها فك الحصار في شـعب أبي

طالب انطلق رسول الله إلى القبائل في الموسم يدعوهم إلى الله ويسألهم أن ينصروه ويحموه.

وكان رسول الله يرجو أن يجد لدى المناذرة حصناً وأمناً فهم أكبر قبائل العرب، ولديهم تاريخ حضاري، وتنتشر فيهم كنيسة المشرق المسيحية وهي على خلاف مع الأرثوذكسية البيزنطية، وتشبه أن تكون مسيحية عربية خالصة، ولديهم مراكز حضارية بالغة الأهمية منها الحيرة والنجف.

كما ظهر فيها أكبر شعراء الجاهلية: المثقب العابدي وعبيد بن الأبرص والنابغة الذبياني وطرفة بن العبد ولقيط بن يعمر الأيادي وعدي بن زيد العبادي وعمرو بن كلثوم وعمرو بن قميئة وأعشى قيس والمرقش الأكبر ولبيد بن ربيعة.

وبترتيب من أبي بكر الصديق وهو أكثر رجال قريش علماً بالنسب ومعرفة بالقبائل، وعلي بن أبي طالب وهو الذي اختار فيما بعد منازل المناذرة في الكوفة والنجف عاصمة لخلافته تم إعداد هذا اللقاء الفريد الذي تتجلى فيه دبلوماسية رائعة في الخطاب والمعاملة، ومن حسن حظ التاريخ أنه دون هذا اللقاء الفريد، وهو وثيقة هامة في الدبلوماسية المتقدمة التي كانت تعرفها العرب على الرغم من حياة البداوة التي كانت غالبة فيهم.

ومن الروايات المتعددة لهذا اللقاء، وهي روايات متقاربة عموماً أختار لك هذا النص من دلائل النبوة للبيهقي.

عن علي بن أبي طالب قال: «لما أمر الله رسوله صلى الله عليه وسلم أن يعرض نفسه على قبائل العرب، خرج وأنا معه، وأبو بكر رضي الله عنه، فدفعنا إلى مجلس من مجالس العرب، فتقدم أبو بكر رضي الله عنه وكان مقدما في كل خير، وكان رجلا نسابة فسلم ..... فقال: «ممن القوم؟» قالوا: «من شيبان بن ثعلبة»، فالتفت أبو بكر رضي الله عنه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: «بأبي أنت وأمي هؤلاء غرر الناس، وفيهم مفروق بن عمرو، وهانئ بن قبيصة، والمثنى بن حارثة، والنعمان بن شريك، وكان مفروق قد غلبهم جمالاً ولساناً، وكانت له غديرتان

تسقطـان على تريبته وكـان أدنى القوم مجلسـاً»، فقال أبو بكـر رضي الله عنه: «كيـف العدد فيكم؟» فقال مفروق: «إنا لنزيـد على ألف، ولن تغلب ألف من قلة». فقال أبو بكر: «وكيف المنعة فيكم؟» فقال المفروق: «علينا الجهد ولكل قوم جهد». فقال أبو بكر رضي الله عنه: «كيف الحرب بينكم وبين عدوكم؟» فقال مفروق: «إنا لأشـد ما نكون غضباً حين نلقى، وإنا لأشـد ما نكون لقاء حين نغضب، وإنا لنؤثر الجيـاد عـلى الأولاد، والسلاح على اللقـاح، والنصر من عند اللـه، يديلنا مرة ويديل علينا أخرى، لعلك أخا قريش؟»، فقال أبو بكر رضي الله عنه: «قد بلغكم أنه رسول اللـه ألا هـو ذا»، فقال مفروق: «بلغنا أنه يذكر ذلك، فـإلام تدعو يا أخا قريش؟»، فتقدم رسـول الله صلى الله عليه وسـلم فجلس وقام أبو بكر رضي الله عنه يظله بثوبه، فقال رسـول الله صلى الله عليه وسـلم: «أدعوكم إلى شهادة أن لا إله إلا الله وحـده لا شريك لـه، وأن محمداً عبده ورسـوله، وإلى أن تؤووني وتنصروني، فإن قريشاً قد ظاهرت على أمر الله، وكذبت رسـله، واستغنت بالباطل عن الحق، والله هـو الغني الحميد»، فقال مفروق بن عمرو: «وإلام تدعونا يا أخا قريش، فوالله ما سـمعت كلاماً أحسن من هذا»، فتلا رسـول الله صلى الله عليه وسلم: ﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ﴾ ..... إلى ﴿ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُـونَ ﴾. فقال مفروق: «وإلام تدعونا يا أخا قريش .. فوالله ما هذا من كلام أهل الأرض، ثم رجعنا إلى روايتنا، قال: «فتلا رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُـرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَـاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَـاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُـمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾، فقـال مفروق بن عمرو: «دعوت واللَّه يا أخا قريش إلى مكارم الأخلاق ومحاسن الأعمال، ولقد أفك قوم كذبوك وظاهروا عليك».

وكأنـه أحب أن يشركـه في الكلام هانئ بن قبيصة، فقال: «وهذا هانئ شـيخنا وصاحب ديننا»، فقال هانئ: «قد سـمعت مقالتك يا أخا قريش إني أرى أن تركنا ديننا واتباعنا على دينك لمجلس جلسته إلينا ليس له أول ولا آخر أنه زلل في الرأي، وقلـة نظر في العاقبة، وإنما تكون الزلة مع العجلة، ومن ورائنا قوم نكره أن يعقد عليهـم عقد، ولكن نرجع وترجـع وننظر وتنظر». وكأنه أحب أن يشركه المثنى بن حارثـة، فقـال: «وهذا المثنى بن حارثة شـيخنا وصاحب حربنـا»، فقال المثنى بن

حارثة: «سمعت مقالتك يا أخا قريش، والجواب فيه جواب هانئ بن قبيصة في تركنا ديننا ومتابعتك على دينك، وإنا إنما نزلنا بين صريين اليمامة، والسمامة»، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ما هذان الصريان؟» فقال: «أنهار كسرى ومياه العرب، فأما ما كان من أنهار كسرى فذنب صاحبه غير مغفور وعذره غير مقبول، وأما ما كان مما يلي مياه العرب فذنب صاحبه مغفور وعذره مقبول، وإنا إنما نزلنا على عهد أخذه علينا أن لا نحدث حدثاً ولا نؤوي محدثاً وإني أرى أن هذا الأمر الذي تدعونا إليه يا قرشي مما يكره الملوك، فإن أحببت أن نؤويك وننصرك مما يلي مياه العرب فعلنا». فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ما أسأتم في الرد إذ أفصحتم بالصدق، وإن دين الله لن ينصره إلا من حاطه من جميع جوانبه، أرأيتم إن لم تلبثوا إلا قليلاً حتى يورثكم الله أرضهم وديارهم وأموالهم ويفرشكم نساءهم أتسبحون الله وتقدسونه؟»،فقال النعمان بن شريك: «اللهم فلك ذلك»، قال: «فتلا رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا، وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا﴾، ثم نهض رسول الله صلى الله عليه وسلم قابضاً على يدي أبي بكر وهو يقول: «يا أبا بكر أية أخلاق في الجاهلية !! ما أشرفها بها يدفع الله عز وجل بأس بعضهم عن بعض، وبها يتحاجزون فيما بينهم»[٢٤١].

وفي قراءة دبلوماسية لهذا الحوار الفريد يمكننا إبراز الجوانب الآتية:

- أهمية الأرشفة ومعرفة تاريخ الفريق المحاور ومنازله ومكانته وطبائعه.
- المستوى البلاغي والخطابي الذي تميز به فريقا الحوار.
- الموقع الدبلوماسي الذي كان يشغله كل عضو في هذا الوفد وحسن إدراك كل سفير لاختصاصاته.
- مستوى الشفافية والوضوح الفريد الذي كان يطبع هذه اللقاءات والحوارات.
- التأكيد على عدم التعجل في الموقف الدبلوماسي ووجوب عبور القرار عبر الأقنية المتخصصة.

(٢٤١) دلائل النبوة للبيهقي، ج ٢، ص ٢٩٧

- ضرورة التأكيـد عـلى الالتزامات الدبلوماسـية السابقة، ووجـوب مراعاتها وعدم نقض بعضها ببعض.
- التأكد من دستورية الاتفاقية الدبلوماسية قبل التوقيع عليها.
- احـترام المواقف السيادية للدول، ولو أخفق الطرفان في التوقيع على المعاهدة المطلوبة.
- الإقرار بالمشترك الإنساني واحترامه، على الرغم من التناقض الأيديولوجي.

ولا شـك أن متابعة هذا الموقف النبوي المسؤول في الحوار الدبلوماسي مع عرب المناذرة فإننا سندرك المستوى الدبلوماسي الرفيع الذي جرى من خلاله التفاوض، لاسـيما إذا تذكرنا أن الفريق المشارك في وفد الحيرة كان يشكل أكبر كيان عربي في ذلك التاريخ وكان المناذرة يحكمون معظم العراق والخليج الشرقي لجزيرة العرب من الكويت إلى عمان، وكانت لهم مناطق نفوذ تصل إلى قلب الأردن ودومة الجندل.

ومع أن الحوار لم يفض إلى تحول القوم عن دينهم ولكن المتابعة الدبلوماسـية فيما يأتي من الأيام استمرت، وعلينا أن نتذكر كيف أصبح المثنى بن حارثة وإخوانه من زعماء المناذرة قادة الجيش الإسـلامي الـذي افتتح بلاد فارس وخاض معركة القادسـية، وهذا الموقف يعكس نجاحاً كبيراً في الدبلوماسية النبوية التي استمرت مع القوم حتى شرح الله صدورهم للإسلام وأدركوا أن دولة الإسلام الصاعدة هي المصلحة الحقيقية لهم ولقومهم من المناذرة من العراق إلى عمان.

النتائـج والتوصـيات

نتائج الدراسة

فيما يلي تلخيص موجز لأهم النتائج التي قادتنا إليها الدراسة:

في الفصل التمهيدي:

- إن الكتابة في الدبلوماسـية الإسلامية ليست أمراً حديثاً بل سبق إلى ذلك عدد كبير من الفقهاء والعلماء في عصور مختلفة.
- إن عدم اسـتخدام مصطلح الدبلوماسـية لا يعني أن السلـف لم يهتم بأمر الدبلوماسـية في الإسـلام، بل كان يعبر عنها بلفظ السير أو الحكمة أو آداب الملوك أو غير ذلك من المصطلحات المرادفة.

في الفصل الأول: الفقه الدبلوماسي في الإسلام:

- أقر الإسـلام مبدأ العلاقات الودية بين الدول، والاعتراف المتبادل، وقد قدمت الدراسة الأدلة على ذلك من الكتاب والسنة وعمل الأمة.
- إن فكـرة تقسيم العالم إلى فسطاطين دار إسـلام ودار حرب هي فكرة غير واقعية وتتناقض مع تأسيس النبي الكريم لعلاقات ودية مع كثير من الملوك، وهم على أديانهم، ولا بد من مناقشة هذه الفكرة والتأكيد على أن ما نقل عن السلف من هذا المعنى لا يدل على قطع العلاقات مع الدول غير المسلمة.

- تأكيد القسمة الثلاثية للعالم على أساس دار إسلام ودار حرب ودار معاهدة، أو دار صلح وعهد، وهي قسمة واقعية ومرنة وتستجيب لبناء علاقات إيجابية بناءة.
- التأكيد على أن أصل علاقة الأمة الإسلامية بغيرها من الأمم إنما هو السلم وليس الحرب، ومناقشة الآراء التي ذهبت إلى خلاف ذلك.
- الإشارة إلى مظان تفصيل القضايا الدبلوماسية في كتب الفقه الإسلامي، وتوزع ذلك في أبواب الجهاد والعهد والذمة والصلح في كتب الفقه.
- التأكيد على نجاحات الرسول الكريم في الجانب الدبلوماسي، ووجوب اتباعه في كل ما علمه من حكمة وخير.
- الإشارة إلى الزواج الدبلوماسي الذي قام به رسول الله وأثمر في حقن الدماء وقطع أسباب الحروب.
- الإشارة إلى تطور الوعي والممارسة بالمسائل الدبلوماسية عبر تاريخ الخلافة الراشدة والأمية والعباسية والدول المتتابعة بعد ذلك.
- بيان التطور الإيجابي والسلبي في علاقات المسلمين بالأسرة الدولية، والتأكيد على المرونة التي تمنحها النصوص الشرعية في الحكم على الدول المختلفة بحسب مواقفها من الأمة في العدل وحسن الجوار.
- بيان مشروعية التمثيل الدبلوماسي المؤقت في الإسلام، وتأييد ذلك من الكتاب والسنة وعمل الأمة.
- بيان حكم التمثيل الدبلوماسي الدائم في الإسلام، ووجه الاستدلال على ذلك من الكتاب والسنة وعمل الأمة، والإشارة إلى أهم السفراء الدائمين في الدولة المحمدية.
- استنباط شروط تعيين السفراء على وفق هدي الكتاب والسنة، ومحاولة تأصيل قواعد شرعية لاختيار السفراء اهتداء بسيرة النبي صلى الله عليه وسلم.

- بحث موضوع مشاركة المرأة في الحياة الدبلوماسية، ورفع القيود التي تحول دون ذلك والتأكيد على أن المرأة المسلمة شاركت في العمل العام، وأن مشاركتها في العمل الدبلوماسي ممكنة، ضمن آداب الإسلام وقيمه، وتقديم نماذج من مشاركة المرأة الفاعلة في العمل العام في عصر الصحابة.
- بحث حصانة السفراء، من النواحي الشخصية والسياسية والمالية والقضائية، وإظهار موقف الشريعة الإسلامية في كل منها، ووجوب الموازنة بين قيم العدالة والمساواة في الإسلام وبين حاجات الدبلوماسيين لتسيير أعمالهم وأداء مهامهم.
- دراسة موضوع الملحقيات الثقافية والعسكرية والتجارية الحديثة، والبحث عن نظائرها في التاريخ الإسلامي، والتماس سبل تعزيز مشروعيتها بما تقدم من خدمة للأمة في جوانب مختلفة.
- الإشارة إلى سفارة الحج وهي مما اختصت به الحضارة الإسلامية وبيان أهميتها من الناحية الدبلوماسية في بناء علاقات متوازنة وعادلة.

في الفصل الثاني: القيم الدبلوماسية في الإسلام:

- تفصيل آداب السفراء في الفقه الإسلامي، وفق دلالات الكتاب والسنة وعمل الأمة، ومحاولة جمعها في إطار منهجي وموضوعي، ومن أبرز هذه الآداب:
  - الأمانة والدقة فيما يوكل إليه من مهام.
  - التزام مبادئ القدوة في السلوك الشخصي.
  - الاعتناء بالمظهر وإظهار الهيبة في غير مخيلة ولا إسراف.
  - احترام التقاليد الدبلوماسية ما لم تتعارض مع قيم الإسلام.
  - معرفة ثقافة البلد التي يرحل إليها.

- احترام القوانين المحلية والالتزام بعادات الناس وتقاليدهم.
- عدم التدخل في الشؤون الداخلية للدول.
- بناء جسور من المحبة والاحترام مع الدول المضيفة.
- الالتزام بالتواصل مع الدولة والعمل في سياق مؤسساتها.
- وجوب التواصل مع الوطن وعدم جواز الانقطاع عنه لفترات تطول.
- الشفافية والمكاشفة مع مرجعيته الوطنية.
- تعزيز ثقافة الخدمة في أداء السفارات.
- ترقية أحوال الجالية والاعتناء بها.
- تمثيل الدولة وليس تمثيل الأحزاب.

- إن مبدأ المعاملة بالمثل تقره الشريعة الإسلامية وتحتكم إليه اليوم الأعراف الدبلوماسية، والأمة مأمورة أن تلتزمه في علاقاتها الدبلوماسية، ولا يحق التخلي عنه إلا في إطار مصلحة حقيقية للأمة.
- السفير مأمور بالوفاء لوطنه والإخلاص لأرض إقامته، ولا يجوز أن تتناقض هذه المصالح في العلاقات الودية، بل هي تتكامل وتتواصل.
- إن اختلاف العقائد لا ينبغي أن يحول دون قيام علاقات صحيحة، فالتعامل الدبلوماسي هو شأن أرضي يقوم على أساس الظاهر، أما الغيب فهو شأن سماوي ولا يعلمه إلا الله، وأمر حساب الناس موكول إلى الله سبحانه.
- إن التعاون والتكامل مع دول العالم الإسلامي هو مصلحة حقيقية لكل بلد إسلامي، وعلى السلك الدبلوماسي أن يعمل على بناء شبكة علاقات متينة مع العالم الإسلامي تحقيقاً لمصالح وطنه، واعتماداً على الحقائق الدينية والتاريخية والجغرافية التي تعزز هذا التواصل.

في الفصل الثالث: الدبلوماسية في هدي القرآن والسنة

- محاولة استنباط بعض الدروس القيادية التي قدمها الأنبياء الكرام في القرآن الكريم بوصفهم سفراء بين الله وبين عباده.
- بسط القول في سفارة موسى لدى فرعون نموذجاً للسفارة الناجحة التي شرحها القرآن الكريم بين دولتين، واستنباط الإشارات والتوجيهات منها.
- دراسة عبقرية الرسول الكريم في اختيار سفراءه وقت السلم، وبراعة هؤلاء السفراء والنجاحات التي تمكنوا من تحقيقها.
- دراسة عبقرية الرسول الكريم في دبلوماسية فض المنازعات وتجنب الحروب بالطرق الدبلوماسية.
- دراسة نموذج من الأداء الدبلوماسي العظيم لرسول الله من خلال تعامله مع دولة مسيحية في جزيرة العرب وهي إقليم نجران.
- دراسة نموذج آخر من الخطاب الدبلوماسي الذي قدمه رسول الله من خلال تعامله مع وفد المناذرة من بني شيبان.

الفصل الرابع: المشترك بين الإسلام والدبلوماسية الحديثة

- إن المنجز الدبلوماسي الذي تحقق للبشرية وأسهم في تنظيم العلاقات بين الدول وقطع أسباب الحروب هو منجز إنساني وليس منجزاً غربياً، وإن الإسلام شريك في هذا المنجز الحضاري.
- إن الإسلام لا يؤيد مبدأ الصراع بين الحضارات وإنما يسعى للحوار بينها والتحالف والتكامل.
- إن صدام الحضارات مشروع أمريكي متطرف ونظيره من الثقافة الشرقية قسمة العالم إلى فسطاطين، ومن مسؤولية الدبلوماسية الإسلامية تصحيح صورة الإسلام في التعاون البناء مع كل أمم الأرض.

- إن علاقة الأمة الإسـلامية بغيرها من الأمم يجب أن تتأسـس على التوازن والاعتدال والمماثلة وليس على التعالي ولا على التبعية والاتكال.
- الأمـة الإسـلامية وشـعوب الأرض جيران عـلى كوكب واحـد، والأصل في العلاقـة هو السلم والتعاون، وهذا لا يلغي حق الأمة في الدفاع عن نفسها إذا تعرضت للأخطار من الخارج.
- تأكيـد الاتفاق في المبادئ والأهداف بين الفقه الإسـلامي المستنير وما ورد في ديباجة اتفاقية فيينا ١٩٦١ للعلاقات الدبلوماسية بين الدول، ووجوب التعامل بإيجابية مع التفاصيل الإجرائية لهذه الاتفاقات الدولية.

التوصـــيـات

توصي هذه الدراسة بالأمور التالية:

- دعـوة المعاهد الدبلوماسـية ومؤسـسات إعداد الدبلوماسـيين إلى إظهار اهتمام أكبر بالقيم الإسلامية في الدبلوماسية.
- إدخـال مـادة الدبلوماسـية الإسـلامية في مناهـج العلـوم السياسـية والدبلوماسية في الجامعات والمعاهد العربية.
- ضرورة قيـام دورات تأهيلية خاصـة للسفراء والملحقين الدبلوماسـيين لتأهيلهم وإعدادهم، وتزويدهم بالمعرفة الإسلامية في الجانب الدبلوماسي.
- ضرورة تعريف السلك الدبلوماسي عموماً بالحقائق الإنسانية والاجتماعية والاقتصادية التي تربط بين دول العالم الإسلامي والعمل على تعزيز هذه العلاقات.
- تخصيص برامج خاصة لإعداد الدبلوماسـيين المبتعثين إلى دول إسلامية، تشتمل على معرفـة مذاهب هذه البلدان، وتاريخها الإسـلامي وروابطها التاريخية بالبلد الموفد.
- التأكيـد على دور البعثات الدبلوماسـية في تحقيـق الترابط والتواصل مع الجاليـات الإسـلامية في البلاد التي يوفدون إليها سـواء كانت الحكومات إسلامية أم لا.

- دعوة السفراء والسلك الدبلوماسي إلى تحقيق إنتاج ثقافي يتصل بالعلاقات بين بلد الإيفاد وبلد الاستقبال واعتبار ذلك شرطاً للترقيات والتكريم.
- تعزيز دور المرأة في العمل الدبلوماسي، وتوفير الظروف الملائمة لمشاركتها وإيجاد الفرص اللائقة بها، والاهتمام بالدبلوماسيات المتميزات.
- إحياء الدور الدبلوماسي لسفارة الحج، ومنح قائد بعثات الحج الحكومية الصفة الدبلوماسية، وتوفير الشروط القانونية والمادية لقيامه بالدور الدبلوماسي التاريخي الذي كانت تعنيه سفارة الحج.
- تعزيز دور الملحق الثقافي، إلى جانب مسؤولياته الثقافية التقليدية، وتوفير الوسائل والإمكانات اللازمة ليقوم بمسؤوليته في الدفاع الدبلوماسي عن سمعة الأمة الإسلامية ومواجهة ظاهرة الإسلاموفوبيا التي تنتشر اليوم في العالم الغربي ضد الإسلام، دون أن تتحول مهمته إلى رسالة تبشيرية.
- دعوة الهيئات الاجتماعية إلى تكريم البعثات الدبلوماسية التي تقوم بتحقيق خدمات حقيقية للجالية، إضافة إلى التكريم الدبلوماسي الذي تناله البعثات من السلك السياسي.
- ضرورة الاعتذار صراحة عن الصنفين المحرمين: وهي تداول الخمرة ولحم الخنزير في الموائد الدبلوماسية، واعتبار ذلك من خصائص هذه الأمة، وعدم السماح بالمجاملات في هذا، والتأكيد أن المحرم محصور في هذا الاستثناء.
- الدعوة لإصدار وثيقة عالمية لاحترام المقدس الديني في الشأن الدبلوماسي، ومنع إهانة الرموز الدينية المحترمة في أي دين.
- تدعو هذه الدراسة المعاهد والكليات الدبلوماسية في العالم الإسلامي لإعداد وثيقة الدبلوماسية الإسلامية العالمية وإقرارها في منظمة التعاون الإسلامي، ومن ثم اعتمادها في سائر المنظمات ذات الشأن.

المصـادر والمراجــع

فيمـا يلي بيان المراجـع التي تم اعتمادهـا في الكتاب وبيـان الطبعة التي تمت الإشـارة إلى الصفحـات منها، وتاريـخ الطبع (إن ذكـره الناشر) ومكانـه والدار الناشرة.

وقمنا بالالتزام بذكر الكتاب أولاً ثم المؤلف اسمه أولاً ثم نسبه، ثم تاريخ وفاته، واكتفينا في المعاصرين بالإشارة إلى أنه معاصر، ولو أنه توفي قبل سنين.

ولـم نقم بالتمييز بين المصادر والمراجع، لقناعتنـا أن معظم هذه الكتب يمكن تصنيفها تارة بأنها مصدر وتارة بأنها مرجع، حيث تشتمل على الأصالة والمباشرة في بعـض نصوصها فتكون مصـادر، كما تشتمل على النقـل والإحالة في نصوص أخرى فتكون مراجع، وسيكون التمييز في هذه الحالة تشويشاً على الباحث.

وقـد صدرنا القرآن الكريم والكتـب التسعة في السنة نظراً لكثرة الرجوع إليهم خلال البحث، ثم تم تصنيف الباقي بحسب وروده في الكتاب.

م	اسم المرجع	المؤلف	الدار الناشرة	تاريخ النشر
١	القرآن الكريم			
٢	الجامع الصحيح	محمد بن اسماعيل البخاري ١٩٤هـ	دار الفكر - بيروت	١٩٨١
٣	الجامع الصحيح	مسلم بن الحجاج القشيري ٢٦١ هـ	دار طيبة - الرياض	٢٠٠٦
٤	سنن الترمذي	محمد بن عيسى الترمذي٢٧٩هـ	دار الكتب العلمية - بيروت	١٩٨٨
٥	سنن النسائي	أحمد بن شعيب النسائي ٣٠٣هـ	دار الكتب العلمية - بيروت	١٩٩١
٦	سنن أبي داود	سليمان بن الأشعث السجستاني ٢٧٥ هـ	المكتبة العصرية - صيدا	١٩٨٨
٧	سنن ابن ماجه	محمد بن يزيد القزويني ابن ماجه ٢٧٣هـ	دار إحياء الكتب العربية- القاهرة	١٩٧٧
٨	موطأ الإمام مالك	مالك بن أنس الأصبحي ١٧٩هـ	دار إحياء الكتب العربية- القاهرة	١٩٨٥
٩	مسند أحمد بن حنبل	أحمد بن عبد الله بن حنبل ٢٢٤ هـ	طبع دار الرسالة – بيروت	٢٠٠١
١٠	مسند الدارمي	محمد عبد الله بن بهرام الدارمي ٢٥٥ هـ	دار المغني	٢٠٠٠
١١	موسوعة الدبلوماسية	د.نبيل فتح الباب - معاصر	دار الشروق - دبي	٢٠٠٦
١٢	الموسوعة العربية الكبرى	هيئة الموسوعة العربية الكبرى	رئاسة الجمهورية العربية السورية	تأسست ١٩٨١
١٣	التراتيب الإدارية في نظام الحكومة النبوية	عبد الحي الكتاني ١٣٨٠هـ	دار البشائر الإسلامية – بيروت	١٩٨٨
١٤	المغني في فقه الإمام احمد	عبد الله بن قدامة المقدسي ٦٢٠ هـ	دار الفكر – بيروت	١٩٨٥
١٥	نواسخ القرآن	أبو الفرج ابن الجوزي ٥٩٧ هـ	الجامعة الإسلامية في المدينة المنورة	١٩٨٨
١٦	الناسخ والمنسوخ	هبة الله المقري ٤١٠ هـ	المكتب الاسلامي - بيروت	١٩٨٤
١٧	الإتقان في علوم القرآن	جلال الدين السيوطي ٩١١ هـ	مجمع الملك فهد لطباعة المصحف بالمدينة	٢٠٠٥
١٨	الحاوي في الفقه الشافعي	أبو الحسن الماوردي ٤٥٠ هـ	دار الكتب العلمية - بيروت	١٩٩٤
١٩	الفقه الإسلامي وأدلته	د.وهبة الزحيلي - معاصر	دار الفكر – دمشق	١٩٩٤
٢٠	نهاية الأرب في فنون الأدب	النويري أحمد بن عبد الوهاب ٧٣٣ هـ	دار الكتب العلمية – بيروت	٢٠٠٤
٢١	السيرة النبوية - سيرة ابن هشام	عبد الملك بن هشام - ٢١٨ هـ	دار الكتاب العربي - بيروت	١٩٩٠
٢٢	الوافي بالوفيات	خليل بن أيبك الصفدي – ٧٦٤ هـ	دار إحياء التراث العربي	٢٠٠٠
٢٣	الدبلوماسية تاريخها ومؤسساتها	د. سعيد بو عباه - معاصر	دار الشيماء – فلسطين	٢٠٠٩
٢٤	مجلة الجامعة الإسلامية	المجلد ١٩	المدينة المنورة	٢٠١١

م	اسم المرجع	المؤلف	الدار الناشرة	تاريخ النشر
٢٥	مجلة العلوم الاقتصادية والاجتماعية	جامعة دمشق	دمشق	٢٠٠٨
٢٦	تاريخ الأمم والملوك	ابن جرير الطبري ٣١٠ هـ	دار الكتب العلمية – بيروت	١٩٨٧
٢٧	المواعظ والاعتبار	أحمد بن علي المقريزي ٨٤٥ هـ	دار الكتب العلمية – بيروت	١٩٩٨
٢٨	قصة الحضارة	ول ديورانت ت ١٩٨١ ميلادية	مؤسسة الرسالة – بيروت	١٩٨٨
٢٩	أبجد العلوم	صديق حسن خان القنوجي ١٣٠٧ هـ	دار ابن حزم – بيروت	١٩٨٨
٣٠	الدبلوماسية في التاريخ الإسلامي	عباس حلمي – معاصر	مقال في مجلة منار الإسلام الإماراتية – العدد ٢ لعام ١٩٧٩	٢٠١٢
٣١	تطور الدبلوماسية الإسلامية عبر العصور	محمد بوبوش، جامعة محمد الخامس – معاصر	دار الفكر – دمشق	٢٠١٠
٣٢	نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب	أحمد بن محمد المقري التلمساني – ٧٥٨ هـ	دار صادر – بيروت	١٩٩٧
٣٣	تفسير القرآن العظيم	إسماعيل بن عمر بن كثير ٧٧٤هـ	دار المعرفة – بيروت	١٩٩٢
٣٤	السيرة النبوية لابن كثير	إسماعيل بن عمر بن كثير ٧٧٤هـ	دار المعرفة – بيروت	١٩٧٦
٣٥	مغني المحتاج	محمد بن أحمد الشربيني الخطيب ٩٧٧ هـ	دار الكتب العلمية – بيروت	١٩٩٤
٣٦	مواهب الجليل لشرح مختصر خليل	شمس الدين محمد بن محمد الرعيني المغربي ٩٥٤ هـ	دار عالم الكتب – بيروت	٢٠٠٣
٣٧	شرح منح الجليل	محمد عليش ١٢٩٩ هـ	دار الفكر –بيروت	١٩٨٩
٣٨	تبيين الحقائق شرح كنز الدقائق	عثمان بن علي الزيلعي ٧٤٣ هـ	المطبعة الكبرى الأميرية بولاق – القاهرة	١٨٩٨
٣٩	البحر الزخار – مسند البزار	أبو بكر بن العتكي البزار ٢٩٢ هـ	دار الكتب العلمية – بيروت	
٤٠	المقنع	موفق الدين بن قدامة المقدسي ٦٢٠ هـ	طبع على نفقة خادم الحرمين	١٩٩٣
٤١	الشرح الكبير	موفق الدين بن قدامة المقدسي ٦٢٠ هـ	طبع على نفقة خادم الحرمين	١٩٩٣
٤٢	السنن الكبرى للبيهقي	أحمد بن الحسين البيهقي ٤٥٨ هـ	دار الكتب العلمية – بيروت	٢٠٠٣
٤٣	المطالب العالية بزوائد المسانيد الثمانية	ابن حجر العسقلاني ٧٧٣ هـ	دار الغيث – السعودية	١٩٩٨
٤٤	السياسة الشرعية	أحمد بن عبد الحليم بن تيمية ٧٢٨ هـ	دار المعرفة – بيروت	
٤٥	الجامع لأحكام القرآن	محمد بن أحمد القرطبي ٦٧١ هـ	دار الرسالة – بيروت	٢٠٠٦
٤٦	اتحاف المهرة الخيرة بزوائد المسانيد العشرة	أحمد بن أبي بكر البوصيري ٨٣٩ هـ	نسخة على المكتبة الشاملة من موقع المشكاة	

م	اسم المرجع	المؤلف	الدار الناشرة	تاريخ النشر
٤٧	تحفة الأحوذي بشرح الترمذي	محمد عبد الرحمن المباركفوري ١٣٥٣ هـ	دار الكتب العلمية - بيروت	
٤٨	مسند الإمام الشافعي - ترتيب سنجر الناصري	محمد بن إسماعيل الشافعي ٢٠٤ هـ	دار البشائر الإسلامية - بيروت	٢٠٠٥
٤٩	عون المعبود في شرح سنن أبي داود	محمد شمس الحق العظيم آبادي ١٣٢٩ هـ	دار الكتب العلمية – بيروت	١٩٩٥
٥٠	المنتقى شرح الباجي	سليمان بن خلف الباجي الأندلسي ٤٧٤ هـ	دار الكتب العلمية - بيروت	١٩٩٩
٥١	شرح العلل للترمذي	ابن رجب الحنبلي ٧٩٥ هـ	دار الملاح – دمشق	١٩٨٨
٥٢	فتح الباري في شرح البخاري	أحمد بن علي بن حجر العسقلاني ٧٧٣ هـ	دار الفكر – بيروت	١٩٨٨
٥٣	المدونة الكبرى	الإمام مالك بن أنس ١٧٩ هـ تحقيق زكريا عميرات	دار الكتب العلمية - بيروت	
٥٤	الإصابة في تمييز الصحابة	أحمد بن علي بن حجر العسقلاني ٧٣٣ هـ	دار الكتب العلمية - بيروت	
٥٥	الاستيعاب في معرفة الأصحاب	يوسف بن عبد البر القرطبي ٤٦٣ هـ	دار الجيل - بيروت	١٩٩٢
٥٦	المدخل إلى القانون الدولي العام وقت السلم	د.محمد عزيز شكري – معاصر	دار الفكر –دمشق	١٩٨٣
٥٧	القانون الدولي العام	علي صادق أبو هيف – معاصر	منشأة المعارف –الإسكندرية	١٩٩٥
٥٨	نيل الأوطار شرح منتقى الأخبار	محمد بن علي الشوكاني ١٢٥٥ هـ	مكتبة الدعوة الإسلامية –مصر	
٥٩	الخراج	يعقوب بن إبراهيم أبو يوسف ١٨٢ هـ	المكتبة السلفية - القاهرة	١٩٦٤
٦٠	روضة الطالبين	يحيى بن شرف النووي ٦٧٦ هـ	دار الكتب العلمية - بيروت	
٦١	أخبار القضاة	محمد بن خلف الضبي الملقب وكيع ١٩٧ هـ	دار المكتبة التجارية الكبرى - القاهرة	١٩٤٧
٦٢	المبسوط	شمس الأئمة السرخسي ٢٨٦ هـ	دار المعرفة - بيروت	
٦٣	المهذب	إبراهيم بن علي الشيرازي ٤٧٦ هـ	دار الكتب العلمية - بيروت	
٦٤	حاشية العدوي	علي الصعيدي العدوي ١١٨٩ هـ	دار الفكر –بيروت	١٩٩٢
٦٥	شعب الإيمان	أحمد بن الحسين البيهقي ٤٥٨ هـ	دار الكتب العلمية بيروت	١٩٩٠
٦٦	أسد الغابة	علي بن محمد الجزري بن الأثير ٦٣٧ هـ	دار إحياء التراث العربي – بيروت	١٩٩٦
٦٧	سيرة رسول الله	محمد حبش – معاصر	دار أفنان	١٩٩٢
٦٨	أخلاق الملوك	عمرو بن بحر الجاحظ ٢٥٥ هـ	المطبعة الأميرية - القاهرة تحقيق أحمد زكي باشا	١٩١٤

م	اسم المرجع	المؤلف	الدار الناشرة	تاريخ النشر
٦٩	المختصر الكبير في سيرة الرسول	عبد العزيز بن محمد الكناني ٧٦٧ هـ	دار البشير – الأردن	١٩٩٣
٧٠	ألفية العراقي في الحديث	عبد الرحيم بن الحسين العراقي ٨٠٦ هـ	عن ملتقى أهل الحديث	
٧١	معجم الطبراني	سليمان بن أحمد الطبراني ٣٦٠ هـ	مكتبة العلوم والحكم – الموصل	١٩٨٣
٧٢	مجمع الزوائد	علي بن أبي بكر الهيتمي ٩٧٣ هـ	دار الفكر –بيروت	١٩٩٢
٧٣	السيرة النبوية	محمد بن محمد بن شهبة – معاصر	دار القلم – دمشق	١٩٨٨
٧٤	السياسة	الحسين بن علي الوزير ٨٤٠ هـ	طبع مؤسسة شباب الجامعة –الإسكندرية	
٧٥	كفاية الأخيار في حل غاية الاختصار	تقي الدين الحصني ٨٢٩ هـ	دار الكتب العلمية – بيروت	١٩٨٨
٧٦	دلائل النبوة	أحمد بن الحسين البيهقي ٤٥٨ هـ	دار الكتب العلمية – بيروت	١٩٨٨
٧٧	أحكام القرآن	القاضي ابن العربي ٥٤٣ هـ	دار الكتب العلمية – بيروت	٢٠٠٣
٧٨	درء تعارض العقل والنقل	ابن تيمية أحمد بن عبد الحليم ٧٢٨ هـ	دار الكنوز الأدبية الرياض	١٩٧٣

وإذ نضـــع القلم فإننـــا نأمل أن نكون قد قدمنا مفيداً وجديـــداً للمكتبة العربية ولأبنائنـــا من الصاعدين في السلك الدبلومـــاسي، نرجو الله أن يكتب لهم التوفيق في سعيهم، في تأمين دبلوماسية ناجحة وحكيمة، تكون رصيداً للوطن وأبنائه.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

رقم الإيداع :